ليل المتنافي

أسم الكتاب: ليل المنافي
المؤلف: حامد ثامر المسفر

الطبعة: الأولى ٢٠٢١م
الناشر: منشورات أحمد المالكي
مصمّم الغلاف: حيدر الشويلي
التنسيق الداخلي: فلاح العيساوي
البريد الإلكتروني: fffhh٩@gmail.com
الرقم الدولي:

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد ( ) لسنة ٢٠٢١م

العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٣٩٢٩٣٧٨ ـ ٠٧٨١٩٣١٣٣٩٥
بريد إلكتروني: hassanjasdrt@gmail.com
أحمد المالكي: Facebook

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

All copyrights are reserved, and no organization, organization, or entity may reproduce, transmit or transmit this book in any form or mode of transmission of information, whether electronic or mechanical, including copying, recording, storing and retrieving, Without the written permission of the right holders.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

حامد ثامر المسفر

ليل المنافي

رواية

٢٠٢١

رسالة إليك.....

إليك يا من تعاتب الأيام بليل انتصار الخريف وتتمنى عودة طفولة غادرت إغماضة عين بعيدا عن أشيائك الجميلة، إليك يامن تدرك كابوس الخيبة وتعود مهملا تسير حافي القدمين على عشوائيات النواح منذ مهد النفوس الراضية الى يوم انتحار الذاكرة تبحث عن معجزة يخفيها الظلام المتوارث.

إليك أيها الفار من وجه الجهالة تمني النفس بأشباه الميول إلى الصحوة وتحسب أن الغد سوف تزينه أيام عزلتك التي تلتهم البقية الباقية من أنفاس النور، ترتقي الحزن مرغما على خيط الدخان نحو سحاب الدم المتخثر، إليك أيها الساكن في الأبدان على مقربة من رئتين تتنفس هواء خذلانك.

إليك يا قدري.....وكأني عالق بك لا محالة.

لن يبقى في الكون ظلام حين أهدي النفس وردة بيضاء ندية تضيء بقعة انسان قد فقد الأمنيات في طريق العودة إلى الذات، فقد تجرأ على الآتي ولا زال عمق النهر يبعد عني ببضع خطوات.

الفصل الأول

قال: المَوت المكرر والحيَاة النّاشزة الثانية صنفان لا يلتقيان إلا عند الشّفَق المؤجل.

قالت: كنت غارقة في الرحيل حد الاعتقاد وها أنت تبذر بقاياه في حسَراتي.

قال: لا زال في القلب نور يضئ الجمود.

قالت: لا تقلق، سوف أذرف ما تبقى من أوراق الخريف على طريق المودة.

ليس سوى ظلال الغيم يمضي بطيئا في الدروب الساكنة، يسرح بروية على بقايا ظلام تهادن عند مشارف أطراف المدينة، الأفق يصرح عن فجر خجول يسرى كالرجفة بأوصال المنازل البعيدة، يجعل وجه الضياء يطل بميلاد سلام فوق أوراق الشجر وحافات أعلى البيوت، وهج النور المحبوس تكاد أن تفضحه أصوات مبكرة لعصافير تمرح على الأغصان، الرياح التي بدأت تهب، أخذت توقظ نبض الفجر الخامل فوق العشب الناعس وبمسامات السنابل الغافية، تجري لمستقر لها بين تفاصيل المنازل الساكنة وجذوع أعالي الشجر، ولكن أية ريح تسعف اندفاع خطوات بوران المتسارعة بتخطي الشارع العريض والوصول نحو أول الطريق المؤدي إلى بيت تمنت الوصول إليه بأسرع ما يمكن، أخذت تستعجل المسافات التي بدت كالسنين، وبالداخل أحاسيس مرتبكة ونابضة بطعم هذا الفجر "سأكون هناك قبل رحيل الروح"، قالت ذلك في قرارة نفسها وحثت خطاها بسرعة مبالغ بها وجرأة مفرطة، حينها أحست بلغط في الصدر وشعور متشابك غير مفهوم، فلم يتبق سوى دقائق على رحيله وبعدها دخان الحكاية، وحدها شواهد الرحيل كانت تخالط ذكراها بنشوة السراب، كان لزاما عليها البقاء بركنها البارد تقضم الأظافر بنهم الارتباك على أن لا تخرج

بهذا الجو الملفت للنظر، فلم تكن الصباحات المسكينة قد ذرفت النور بعد، لازال بعض الظلام يخفي جسدها بالدروب، لكنها رددت بصوت مسموع أكثر من مرة، " لن يراني أحد إن عدت بسرعة "، كاد صدى صوتها يحتبس بأعماقها الفارغة التي لم تعط تبريرا واضحا لرعشة جسدها المفضوحة، كانت تريد العثور على سراج يضيء ظلمة الشواطئ عند الفقد، تمسح الحنين بقماشة من الحرمان وتلوح بها من البعيد لمراكب أصرت على أن تغادر خشب الموانئ المبلولة، كل ما كان يزعجها بأنها لا تريد أن تسمح بوجع للقلب بعد الرحيل المحتوم أن يتخطى حدود نداء المتاهات إلى حدود نداء التخبط وهي تحاول بكل صمتها المعتاد لملمة جرار اللقاء المتكسر على سواحل الحواس من دون صوت، هكذا كان الوداع عند أول الفجر، يصبح مواربا للشعور عندما تعلم أن روحها ستغادر مرغمة إلى مجهول ليس له نهاية، لا تنتظر بعدها هبة من الأيام في عامها اللاحق، لقاؤها اللاحق، وجعها اللاحق.

" فراس حسين القاسم" ترى هل تنتظرها عند بداية سطور رواية الرحيل أم أنك ستهرب سريعا في الضباب حين سماعك هفوة أجراس روح التجني التي سوف تلاحقك في كل مكان وفي كل زمان، فلم تكن هنالك في الأنحاء عرافة تنبئ بوران عما سوف تفعله، تنثر الأسرار على خرقة بالية

توضح مصير تباعد الحلزونات في كل مرة وتجزم بثبات اخر اللقاءات الناقصة، لقد رأته حين وصلت، ودعته بعينين حمراوين أرادت أن تخفيهما قدر الإمكان تحت جفون ناعسة وهي تقف خلف شجرة في ركن بيت عتيق، حين أحس بوجودها بالقرب، أدار رأسه نحوها وهي على بعد مسافة لا يستطيع تخطيها، وفي لحظة خاطفة، التقت العيون ببعضها البعض، تحية كانت كالهدوء بعد الصدمة المواربة تتبعها نظرات متسعة تبحث عن إجابات شافية في هذا الموقف المحرج الذي لم يكن يعتب على ومضة بالصدر فاقت حدود الفجأة بل تخطته إلى ما بعد آلام بالصدر تنقبض على الشرايين فتحيلها إلى علامات تعجب لا تحصى، فقد أصدرت الحواس أشعة طفيفة من غير ملامح تذكر، تمضي بالمسافات البسيطة وتخترق أطراف أمنية متهالكة، ولكن حين وقفا متقابلين من بعيد حفتهم نسمات من أولويات الفجر الموجع، عذراء الخواطر والحضور يصحبها هواء بارد أمال خصلة من على وجهها الذي بدا أكثر كآبة وألم وأيضا أكثر من هذا الحزن الذي رافقها منذ ليلة البارحة التي لم تذق فيها طعم النوم وهي تفكر في الموقف الذي قلب حياتها، وكأن الدنيا اختزلت جسديهما بفضاء واسع واستبقت الريح التي أخذت تعصف بينهما، تهيج ما تبقى من حنين، لقد هتفا سويا بصوت محترق من الداخل وسط نظرات صامتة (إلى

أين؟)، خط كل منهما خارطة من العتاب بين الجفون، رسما معا بالنظرات السارحة الدوران المتسارع حول قصة كانا لا يعرفان نهايتها مسبقا، أصبحت الوجوه متقابلة بكل صدق بعد جلاء الدموع، أخذت الشفاه المرتجفة تستنطق تنبؤات الأزمنة القادمة في حضرة حلم ليس بعاد، تحيط بهما ابتهالات تزامنت مع توتر اللحظات يسمعانها كلاهما على مهل، لقد أصبح الحزن الموروث يزف على مهل صورة آخر الرجال بعينيها وآخر النساء بعينيه، تمنت بوران أن يحدث شيء طارئ ينهي عذابها أو يعرقل هذا الموقف لأيام، بل حتى لساعات، ولكنها وبعد أن جفلت شفتاها بشهقة محبوسة، أدركت أن زمن الأساطير قد انتهى وأن نبوءات الحزن المتعاقبة قد تحققت بشكل صريح بعد أن رأت فراس يركب السيارة التي تحركت مبتعدة عبر طريق ترابي متعرج، وانطلقت مبتعدة إلى حيث أول رحلة آلامها، لم يتأخر المطر كثيرا، كان في بدايته رذاذا خفيفا أخذ ينث سخونة نزلت على مهل بداخلها، أخفى بقلبها الضياء المحتمل، وكأنه أكمل بذلك مشهد الرحيل الذي حدث ما لبث وأن انهمر المطر أخيرا بكثرة يبللها ويزيد من ذبولها، كأنه يكمل بذلك آخر مشاهد ضياعها، وكأن دمع السحاب يبادلها الألم على أرض أخذت تتبلل بالوجع بعد أن سارت عائدة إلى البيت.

سوف تخلد أخيرا لجراح متزامنة تأتيها من كل صوب، تساير الذاكرة الممتنة للزمن الرخو ببضع تنهدات، لم يتبق على نداء الفراغات شيئا سوى بعض من قصص ومواقف تحاول ذاكرتها ثنيها عن الارتماء بأحضان شتات فكر مشوش وضياعها في أفق متلاش لا تحده حدود، تتذكر بوران منها بقايا أساور من حنين تطوق رسغ ذكريات ناضجة وغياب فراشات ملونة في ضوء قنديل خافت وصرخة طفل مضنية على مشهد لا يستطيع أن يفسره، موقف ما تخيلته أن يكون لازال حيا في المدى البعيد لا ينسى ولا يتبدل، تهبط عليها الحسرات المتعاقبة مثل ظلال النجوم على مراسيم من تقلبات انفاسها المتسارعة، لتسقي به براعم الغرام المفقود في مواسم القطاف، كانت تخط بالدموع خطواتها المرتبكة على رحاب سطور الرواية المتشابكة بكل نوازع الحلم الضائع، ولكن الآن لا أظنها قد بدأت ترتب الحروف كما في السابق عندما تمر أقدام الحنين فوق يباس الذكريات على الدموع وتتجاوز آمالها، فمن سكنه الحزن على غفلة من الزمن، سوف ينادي بالأشهاد قاطبة، أيها الناس، أين المفر وكل ما في الأفق ينادي على الحنين في كل لحظة، في السهل البعيد الخانع وعند تواشيح الخطايا وتحت عناقيد الشعور المتدلي على الجراح وفوق بهتان المودة، أية علامة منكسة تخطها بوران أسفل سمائها المثقوبة بالغياب، أية

صرخة عارية عن الصحة تفضحها في أرض الشتات وأي جرح هذا الذي يضمده ملح الحنين وفي كل مرة تحاول جاهدة بأن ترسم طقوسا من الرحيل لأشباح شاغلتها، تفسح مجالا لطوفان الألم في الأعماق، يكتسح رواسب الهواء الذي باتت تتنفسه بملاقط.

لقد تعمدت أن تفتح عينيها بشكل مفاجئ بعد أن استعرضت أحداث الأمس البعيد تحت الجفون، لم تعلم كيف تذكرت ذلك اليوم القديم الذي أقبل عليها كالحلم بأشباه تجني الذاكرة، تذكرها بتاريخ اليوم بالذات إثبات وفائها لذاكرة لم تتخطى محاولات النسيان المتكررة لرجل قد استفاقت على وجوده كل حواسها بالرغم من طول السنين التي مرت ولم تستطع أن تسمح أو أن تنسى انه كان حبها السامي وخطيئتها المبكرة، ربما لم تنس أيضا سبب ضياعها الذي يسكنها، لقد أحست أن في داخل الغرفة شيء يتحرك، رفعت رأسها وتسمرت قليلا، جالت بناظريها ولم تر شيئا بأشباه الظلام، لابد أنه الرجل الأرنب، لقد تأخر كثيرا هذا اليوم وتركها تأخذ قسطا طويلا من النوم دون أن يتجرأ على ايقاظها، لابد أنه سيلقي عليها التحية سريعا حين يراها مستيقظة ويختفي كالعادة، لكنه لم يفعل، دائما ما يكون عجولا بفعل شيء ما لا تعرفه عندما يغيب عنها فترة طويلة ثم يعود يخطف أمامها ويغيب بسرعة مرة أخرى حتى لا

تكاد ترى بدلته السوداء التي لبسها ليلة سهرة الأمس ذات الاثني عشر وساما، سهرة البارحة في مركز بيت التراث، كانت من العيار الثقيل، كانت بوران قد انضمت وسط الجمع الذي كان يدعي الفرح في مركز بيت التراث، رقصت حتى وقعت على الأرض وصرخت صرخة الذئب حتى بح صوتها، الكل كان يصرخ ليلة البارحة، الكل من حولها كان يلهو بعفوية ونشاط وكأنهم لم يفرحوا بحياتهم قط، تذكرت كلمات صديقها عماد في أول السهرة، قالها بفرح وزهو، كلمات كثيرة ومثيرة تحث على الفرح اخذ يرددها بين حين وآخر، (هيا بنا جميعنا، لم يتبق شيء ونصل المريخ)، أراد هو الآخر أن يهرب من شيء ما، شرب عماد كثيرا وتجرع النبيذ الأحمر أكثر مما ينبغي، حرص على مراقصة الجميع وملاطفتهم وهي بدورها اكدت كلماته حين أخذت تغني مع عماد من دون أي ضابط، لم تشأ أن تصحو من ذلك الزهو بسهولة، رقصت على انغام العود حتى طارت في الهواء ثم عادت كما الريشة على خشبة المسرح الذي مشت وتنططت علي حافته بكل انسيابية، وكأنها تسير بخطوات حالمة على بركة يسبح فيها البط الأبيض الذي تصورته يلتف حولها، الغريب انها ضحكت أكثر مما ينبغي من غير سبب مضحك، كانت تريد ان تستحضر المرح والسعادة والفرح بنفس الوقت وبأسرع ما يمكن وتلتحم مع أضواء المسرح المتعددة.

(حاولي ان تنسي كل شيء، لسنا وحدنا هنا، هنالك الكثير يدفنون أنفسهم بهذا القبر المضيء)، قال عماد ذلك بينما هي أخذت تنظر إلى وجهه بين حين وآخر بشيء من الغموض، صديقها منذ زمن بعيد، بل عشيقها المؤجل الذي يمارس البرود على مرأى ومسمع من شعورها، كم تمنته انسانا هامشيا أو تافها حتى لا تكترث لوجوده وأن لا تكون مشدودة له بكل هذا القدر من الاندفاع، فقد كانت قصتها معه كالأساطير، تحلق معه بجناحين في سماء صافية نحو عمق مجرة مجهولة، حين يلاطفها ويعزف على آلة العود ألحانه الجميلة، تمرح معه وتطير وتتعلق بالسماء كنجمة يراها الجميع على قدر قليل من التركيز ولا يطالها إلاّ هو وحده، كانت محظوظة به وسعيدة معه، لم يحاول المساس بجسدها أو التقرب اليه أو حتى مداعبة أحاسيسها بكلماته الساحرة في يوم من الأيام، لم تفهم حتى هذا الوقت ما هو سر ذلك البرود الذي أودى بها إلى تساؤلات كثيرة، ترى هل كانت علاقته بالطرف الآخر ثانوية عنده إلى هذا الحد، ام أنه لا يجيد قراءة جسد المرأة جيدا أو أن جسدها بالذات كان مقدسا لديه بقدر كبير حتى تحاشى بأن لا يلوثه بالسائل الأبيض، كانت تسابق الريح، تسير عكس عقارب المألوف مع عماد الذي يكبرها بعشر سنوات، تسمع كل حكايات الرجال المارين وضحكاتهم وقرفهم بالقرب منها ولم تعر

لأي أحد منهم أي أنتباه، حتى تعثرت بطريق خيال عماد، الرومانسية المستبدة، وجهه الناعم، الحانه الحزينة وأيضا كلماته، كانت سعيدة وآمنة معه بكل حواسها، قطعت كل اتصال بعالمها وتوقفت ذاكرتها عند حلمه، دخل بأعماقها من غير تأشيرة مرور، سطرت كل انفاسه بصدرها خطوط من حلم يقظ وأقسمت انها لم تكذب بشعورها تجاهه، لقد أعترف هو أيضا بكل صراحة أن قلبه لم يعد ملكا لأحد سواها، أتراه كان يكذب أيضا عليها مثلما كذبت هي، فقد كان فراس يسكن بداخلها إلى هذه اللحظة، لم يخرجه عماد الذي أخذ ينظر الى وجه بوران وهو يقول بشيء من الفرح: (آن لنا أن نكون سويا).

حين أدارت عينيها في الظلمة سريعا، توقفت نظراتها عند جهاز الهاتف المحمول خاصتها المطروح بقربها، التقطته بيدها، أخذت تقلب برسائل الأمس التي أعادت تكرار قراءتها للمرة الثالثة دون أن تضيف أي شيء لتململ، (سأراك عند التاسعة قرب الملهى)... عماد، (وينك تأخرت).... سماح، (أرجو أن تأتي إلى الشركة في الغد لدينا أعمال آخر الشهر).. استاذ مهنا، (عزيزتي بوران ردي علي لقد أقلقتني)..... سماح، طالعت ساعة الحائط، لقد شارفت على الخامسة عصرا، قليل من الوقت سوف يخيم الليل الذي بدأ يزحف على ستارة نافذة الغرفة ببطء، حاولت بوران ان

تنهض ولكن رأسها المثقل حال دون ذلك، لم تستطع أن تفعل شيئا آخر غير الانصياع إلى أطراف خدرة ورأس مثقل بأشياء حاولت بقدر الامكان أن لا تستعرضها مرة أخرى وهي مستلقية على بطنها فوق فراش بدا أكثر نفورا منها وأكثر اغراء لها في بداية هذا المساء، حاولت أن تعيد الكرة وترفع جسدها مرة أخرى ولكن صعب عليها في بداية الأمر، لكنها حين تذكرت أباها الذي لابد أن تجد له مبررات للتأخير، رفعت رأسها بسرعة ثم أسندت يديها على السرير، استجمعت كل قواها وفزت واقفة مترنحة قرب السرير، لكنها جفلت وندت منها صرخة خفيفة حين رأت عماد واقفا أمامها فجأة ينظر اليها بعينيه الكسولتين، لازال وجه عماد ذابلا، قسمات وجهه تصر على ذلك، لابد انه لم يستفق من سكرته ليلة البارحة، وقف أمامها مترنحا بنظراته الفاحصة التي لا يحيد عنها حين يقف أمامها كالعادة واجما بلا حركة، عندما تجاوزته وهي في طريقها إلى الحمام، ألقت عليه التحية بسرعة قبل ان تسمعه يقول جملته المكررة: (مرحبا يا بسمة الروح)، لم تتوقع أن روحه مازالت موجودة في هذا الجسد المضطرب، لابد انه حفظ هذه الجملة منذ ازمنة شبابه الماجنة وأصبحت على لسانه الثقيل يرددها على مسامع النساء كنوع من انواع اللباقة، ينطقها بتردد كالولد الحديث النطق، كان يشعرها بالتململ عندما يستعرض حكايات

مغامراته مع النساء الرخيصات وهو يحدثها كثيرا عن مغامراته الماجنة في الزمن الغابر، يسرد عليها التفاصيل الجنسية الفاضحة، يلقي على مسامعها مغامراته وهو يمارس الحب مع بعض النساء اللواتي يأتين إلى معبد (لاليش) من أجل طلب الغفران، فمنذ أن خرج من شمالي الموصل بعد حملة الأنفال، إحدى عمليات الإبادة الجماعية التي قام بها النظام العراقي السابق برئاسة الرئيس صدام حسين في إقليم كردستان، لم يفارقه موقف الموت الذي أخذ يطارده دائما، هو ذات الموقف الذي جعله يتمرس على السفر دائما من مدينة إلى مدينة أخرى يحاول ان يهرب من صور جثث أسرته التي دائما ما تتراءى له بين حين وآخر مرمية أمام عينيه كالحقيقة، كان عاجزا عن طرد أشباحهم التي تحوم حوله دائما في كل ليلة، لم يكن بمقدوره فعل شيء لإنقاذهم، عانى من أصواتهم التي تستنجده، لكنه فيما بعد اقنع نفسه أنهم كانوا قربانا للشمس وأن أرواحهم لم تمت، لقد ترك معبد (لا ليش) خلفه ومضى يبحث عن الملائكة السبعة والطاووس والقمر والشمس والماء، حينما حزم أمتعته والمتبقي له من وصايا وكتب مقدسة، ترك الديار خلفه، أخذ يمضي إلى الشتات وحده يبحث عن نور الله من جديد، كان يريد أن يثبت للعالم أن الطاووس ليس بشرير وأن الأرواح لا تموت وأن الإله قال منذ أن خلق لؤلؤة وعصفور (افعل ما

يحلو لك ما دمت ترى الله في نفسك)، أخذ يغزل بقية أيامه بعيدا عن الوطن الذي لم يستسغ وجوده، يحاول أن يوقظ الشيطان الكسول من جديد في نفسه، لكنه لم يقدر على الترحال أكثر من ذلك بعد أن أعياه التعب وفاض به العمر فآثر الاستسلام والخنوع في آخر محطة له من الأرض واستقر به المقام في العاصمة دمشق، لذلك أطلق العنان لموهبته في العزف على آلة العود واستأجر غرفة في الفندق الذي أصبح سكنه وموطنه البديل.

رشقت بوران وجهها بالماء ثم لطمته بعنف وكأنها تريد أن تصحو من حلم ثقيل كان عالقا بوجهها، حاولت أن تستفرغ ولكن بلا جدوى، تبولت بالمياه الراكدة وهي تتحاشى أن لا تلامس أطراف المرحاض الذي علاه الاصفرار وفاحت منه رائحة النفتالين، كان عماد يتبعها بمنشفة حين عادت بخطوات مسرعة إلى الغرفة التي أرادت مغادرتها بسرعة، فمنذ البارحة عندما أتت لم تغادرها، مظلمة كئيبة، لقد ملت أركانها التي توحي بالضجر والتي تعزز حالة من الاكتئاب بداخلها، قال لها بصوت حنين أنه رآها متعبة كثيرا لذلك أتى بها إلى الفندق وألقاها على سريره ولم يشأ أن يوقظها، لكن بوران فاجأته بقولها وهي تبتسم "لابد أنك لم تستهن بجسدي البارحة"، حينها تبسم لها بشكل مصطنع وهز رأسه بعلامة النفي، حيث أن عماد لم يفعل شيئا عندما

وجدها مرهقة ومتعبة سوى انه سحبها إلى الفندق وتركها تستلقي على سريره بكل راحة، لم تحس به أن فعل شيئا أم لا فقد كان جسدها الخدر مباحا له في أية لحظة، لكن خموله أوضح أنه لم يقترب منها أبدا وإلا لما كان وجهه على هذه الدرجة من العبوس، كان يعتقد أن العمر الذي يفصل بينه وبينها ليس بالكثير بالرغم من الخطوط المتعرجة التي بدأت ترتسم على قسمات وجهه اللطيفة والتي بدت تتضح وتطفو على الجلد، كان يعلم أنها كانت تتمتع بالنضارة والجمال في السابق قبل انت تبلغ الخامسة والثلاثين وهي على نفس نضارتها، أراد ان يكون أكثر شفقة عليها وأكثر رحمة، حاول أن يجد لها الحلول التي ظن أنها ستبعدها عن ماضيها الذي خمنه لها، كان يتوقع أنها أخذت القسط الكافي من العذاب في حياتها وقد آن لها ان ترتاح لكنه فشل في كل ذلك ولم يكن قادرا على أن يعوضها عن أشياء كثيرة قد فقدتها، قال لها ذات يوم: (بوران... تمنيت لو أنني أحصل على جسد آخر لأهبه لك)

بالرغم من ملاصقته لها، تجاهلت وجوده واتجهت إلى النافذة، وقفت تتطلع عبرها على بقايا محلات كانت مفتوحة، فيما بدأت أخرى تغلق أبوابها الحديدية التي يسمع زعيقها وهي تسحب إلى الأرض، أدارت بصرها في الشارع بكل تأن، هي نفس حركة المارة المتسارعة عند بداية الليل، الكل

كان يريد أن يعود إلى البيوت قبل أن تحل الظلمة، لقد خفتت أصوات الباعة وأصوات أبواق السيارات، قد يحل الظلام بغتة فلا يترك أثرا لوجود حياة في الطرقات التي سوف تفرغ قريبا، فلم تكن شوارع دمشق على هذا النحو من الرعب في السابق، خَفت الحركة منذ أن بدأت الحرب الأهلية، أختلف كل شيء، ها هي الشام اليوم على غير تلك الصورة التي كانت عليها من أمن وطمأنينة منذ أن هاجرت بوران اليها قادمة من بغداد، كانت في السابق ترتسم على ملامح الناس علامات من الرضا وانعكاسات من ألفة بين جميع الأجناس المتآلفة بظل حياة بسيطة يحملها عبق التاريخ بين النفوس الراضية، لكن الآن، عندما بدأ حشد المتمردين على السلطة يطير بشراسة كالجراد الحانق ويتجه نحو المدن والأرياف، أخذ يقضم كل ما تقع عليه أعينهم من البشر ليخلف وراءه الموت والدمار، لقد بدأ عهد جديد مغاير لم تألفه الساحة الآمنة، أخذت حركة الخراب تسري بأعماق الطرقات والنفوس التي سرعان ما تحولت إلى غير طبيعتها المسالمة وأخذت منحى آخر غير معهود، اذ أن القادمين الجدد الذين أتوا من جميع أنحاء العالم وانتفضوا من أجل التغيير، حملوا معهم كل الأضداد والاتجاهات المدبر لها مسبقا وأطلقوها على الأرض أحقادا متوارثة وغلا دفينا وتشف بالإنسان الآمن الذي كان قنوعا في حياته، لقد تغيرت

قناعات الناس سريعا وأصبحوا في منعطف حرج، بدأ بعدها سيل من الدماء يروي أرض النبوغ وينبت الفتنة بين الجنس الواحد ليحصد أحزانا وعذابات في النفوس ويطلق للشتات أفواجا من النازحين والهاربين من هول الدمار.

عندما وقف الرجل الأرنب بالقرب منها وهو يسند يديه على حافة النافذة، أراد أن يقطع عنها حبل افكارها، قال وهو يتطلع إلى الشارع الذي سوف يسوده الظلام (لابد للعقل أن يتغلب على أهوائك)، نظرت اليه بعينين فاحصين، لوت فمها ثم أشاحت بوجهها عنه، بعدها استدارت لتجد أمامها عماد واقفا يمد لها حقيبتها، التقطتها منه وبحركة مدروسة أخرجت علبة البودر ومسحت فوق خديها بشكل سريع، نكشت شعرها بيديها ثم صفته إلى الخلف وربطه بحلقة مطاطية، تفحصت اشياءها في الحقيبة، كل شيء بدا موجودا، لبست الجاكيت الأسود الطويل، عملت كل ذلك بعجلة واستعدت للانطلاق فلقد أدركها الوقت وقد يثير ذلك حفيظة ابيها حين يراها تعود في هذه الساعة المتأخرة، فهي تعلم أنه سوف يسألها حين تعود في هذا الوقت المتأخر، سوف تقول له انها اضطرت إلى المبيت في بيت صديقتها السورية نينار المجاور للشركة لكثرة العمل في إجراءات مكتب المحاسبة، سوف لن يجادلها ولكنه قد يبدي نوعا من التذمر والضيق يستمر ساعات عديدة، فلم يعد أباها قادرا على ممارسة حياته

الطبيعية بعد أن أقحم الشلل نفسه على قدميه في غفلة من الزمن، قلل من اهتمامه بالحياة بعد أن أحس بالألم الذي كان يضرب في قلبه وينزل على بطنه ثم يسري إلى الأسفل ويستقر كالثقل الحديدي في قدميه، لذا مع مرور الوقت أحس بأنه غير قادر على الحركة والعمل، كان الكرسي المتحرك أفضل ما وصفه الدكتور كعلاج نهائي له بعد العديد من الوصفات التي مزقها أبوها أمام الدكتور بكل هدوء وأودع جسده على الكرسي المتحرك الذي الزمه السكون، لم يخرج منه للدنيا منذ ذلك اليوم، يجلس بكل انصياع للشرفة التي أصبحت نافذته الوحيدة على العالم الذي لم يعد يصبح جزءا منه، والتي تطل على نفس الأماكن ولربما نفس حركة الناس اليومية، لقد أخذت من حياته سنينَ طوال ومن احلامه الكثير، ربما لا يزال جالسا الآن في مكانه عند الشرفة على كرسيه المتحرك بصمته وشروده المعتاد، لقد انصاع رغما عنه لذكريات قديمة من الأمجاد السالفة حين كان يشغل منصبا كبيرا في عهد الحكومة البعث العراقي السابقة، فقد أصبح الاستسلام لأمر واقع الحال ملاصقا لفكره المشوش الذي يحول كل ما حوله إلى العصبية، لذلك عندما تذكرته بوران، أرادت أن تحزم أمرها وتسير في الشوارع التي ستخلو الآن وليحصل ما يحصل.

أسرعت بخطاها وهي تقطع الشارع إلى الضفة الأخرى، أخذت تسير بمحاذاة الدكاكين والمحلات بعد أن أصابها نوع من الخوف المفاجئ، أرادت أن تلوذ في الظلمة التي تمنت لو ابتلعتها، ولكن كان من السهولة لأي رائي أن يلمح جسدها من خلال أضواء الشارع المتبقية، لذا سارت على عجلة من أمرها وهي تفكر في الوضع الذي تغير، فلم يعد مساء الشام آمنا بعد الآن، بدأ كغير كل المساءات، لم يعد يوحي بالسلام بعد أن بدأت تتطاير منه رائحة البارود في سماء مربكة، تنهال اغلفة الرصاص على رؤوس الشعب الذي أخذ يسير في الدروب خائفا من مجهول بدأت تتضح معالمه في الأفق شيئا فشيئا، تعززها أصوات القنابل التي تتساقط بعفوية في أماكن غير معنونه، أخذت بوران تتطلع في الوجوه العابسة التي تقترب من الرعب، حزن في كل مكان، لقد أيقنت أن الكل كان يحمل انتكاسات بداخل حقيبة خاصة من النفس، يملؤونها بتصاريح للموت وأوراق متعددة لم تعد لها اية قيمة قد تبعثرها أية رصاصة طائشة من جهة خفية، لقد رأت السوق ملهاة للعيون، لم يستهويها شيء من المحلات المتبقية ولا من الباعة المتجولين الذين بدوا وكأنهم يسكنون صناديق الكارتون الفارغة التي تناثرت على الرصيف، حاولت أن تقطع الشارع الرئيسي العريض بأسرع مما يمكن، تلفتت أكثر من مرة قبل أن تحزم أمرها وتطلق

لرجليها العنان بتهافت لم تعتد عليه، كادت أن تقع عندما وصلت الجزرة الوسطية، لكنها أسندت يدها على عمود الكهرباء، توجست للحظات من أية سيارة طارئة، انتظرت اللحظة المناسبة للعبور بعدها انطلقت بسرعتها نحو الطرف الآخر، لم يبق سوى طريق الحارة الضيق وبعدها تكون على مشارف شارع آخر سوف تمشي به بضع دقائق وتكون قريبة من البيت الذي لا يبعد كثيرا عن أشجار الكاربس المحروقة، كان الجو على وشك ان يتحول إلى الدفء في شهر حزيران، لقد سارت مستسلمة إلى الرياح التي أخذت تضرب بها، رياح أحن من دفء بالنفس، تضفي على الشعور تنهدات تدور في الصدر دورانا بطيئا لا يخرج معها الا طمأنينة خفية تفرح القلب وتمنيه بلحظات من حبور، لقد تمنت بأن تظل هذه الرياح حبيسة بداخلها ولا تخرج ابدا فهي التي تحرك أي شيء ساكن بداخلها، أخذت تشم رائحة الاقحوان التي تأتيها كلما تعمقت في الطريق نحو الحواري الضيقة القديمة، أرادت أن تقف لحظات وتغمض عينيها، تستنشق الهواء الذي بان وكأنه يتغلغل بأعماقها، لكنها أكملت السير وهي تتطلع بطرف عينيها إلى الرجل الأرنب الذي كان يسير قريبا منها، أخذ يضرب بقدمه علبة حديدية فارغة وهو يضع يديه خلف ظهره، منذ أن كان صغيرا وهو يلازمها، لقد أهداه فراس لها منذ زمن بعيد، حلته الزرقاء وشعره الأسود الذي بدأ يتحول

إلى اللون الرمادي كلما تقدم به الزمن، تَراه يكبر معها ويلازمها بكل مكان وفي أي وقت، دائما ما يذكرها بفراس، قالت له وهي تبطيء خطواتها " هل لازلت تتذكر خطيئتك إلى الآن " حينها ركل بقدمه علبة سجائر فارغة وقال لها بشيء من الحيرة (لم أكن وحدي على خطأ) عندها توقف كلاهما غير متباعدين عن بعضهما قبل ان تتحرك بوران مرة أخرى وهي تقول " أعتقد من الصعب أن نصحح ما خلفناه وراءنا، هي الأقدار اذاً لا تكذب "، لكنه رد عليها وقال (هي قراراتنا بالنهاية).

كان هنالك شيء ما يدفعها على المضي إلى حيث استرجاع ذكريات بعضا من منعطفات حياتها المهمة، لكنها سرعان ما تخلت عن هذه الفكرة، فقد وجدت مراجعتها لأهم أحداث حياتها السابقة في هذا الوقت فكرة غير صائبة، لذلك أكملت المسير وهي شاردة الذهن، ولكن ومن غير سابق انذار، عكفت على درب آخر غير الذي كانت تسير به دائما وهي في طريق العودة للبيت، لقد تفاجأت انها تسير في الدرب على غير العادة، شيء غريب يحدث للخطوات، وكأن قدميها كان لهما رأي آخر في مسيرها لتتجه بها إلى طريق صغير مظلم وتجد نفسها مرة أخرى بعيدة عن الطريق الرئيسي ذي الأضواء الفاضحة، أحست بأن التواء الدرب الجديد قد لا يعني لها شيء مختلف ولكن بالرغم من ذلك

انصاعت لقدميها، كان الرجل الأرنب يسند جسده على عمود النور الوحيد المضيء حين قال: (أتبعيني)، لكنها لم تعره أي اهتمام بل تعدته وأكملت طريقها بصمت، فيما هو لحقها أيضا بصمت ويداه في جيبيه.

لم يكن هو الطريق المعتاد إذا، لم تختاره هو بعينه، سارت فيه بوران بالرغم من عدم معرفتها به، ربما كانت طرقاتها تختارها بشدة للانضمام إلى أحجيات ضيقة للضياع، أو أن غرائزها أخذت تغري الخطوات باتباع المفاجآت التي دائما ما تتقبلها ببرود، فقد ترغمها الخطوات بشدة للسير نحو مجهول تغافلت عن معرفته بلا مبالاة وبكل انصياع بعد أن اقتادتها خطواتها الرتيبة نحو مكان في آخر الدرب، مكتبة صغيرة كادت أن تبتلعها عمارة قديمة تتكون من طابقين وبائع عجوز يجلس بالقرب من الكتب التي بدت كأشباه بيوت متراصة، تراها من الأعلى صفت على خشب عريض غير متناسق، توقفت فجأة واستدارت نحو الكتب، لم تعلم لِمَ استوقفتها الكتب المطروحة، قديمة وحديثة، أغلبها لا يلفت النظر والأغلب منها يكسوه الغبار، كان هاجسا خفيا يلزمها بالتفحص ببعضها، أخذت تتساءل في نفسها لماذا الكتب بالذات، تشدها إلى الوقوف برهة والتفحص بعناوينها على هذا النحو من الفضول، ربما تكون مسلمات توقعاتها تقع بين منعطفين، التصديق به ونفيه المعتاد، ربما يكون نوع

من أنواع حمى الاكتشاف الذي قد يأخذ النصيب الأكبر من عقلها في فهم حلقات غير متجانسة تقترب من محيط اندفاع الغموض نحو تصرفاتها الغريبة، الشكوك التي لديها دائما ما تكاد تلامس حقيقة اكتشاف أشكال دوائر الأحداث خلف شهقة مباغتة، عندما مررت عينيها سريعا على كل العناوين البارزة، لم يستوقفها شيء مثير سوى بعض عناوين كانت قد قرأت بعضها في السابق وأخرى لا تعني لها شيئا، الطوق الخفي كتاب عن المرأة، أكثر كتاب قرأته حين كانت في الثانوية العامة ولم يضف لها شيئا عن احساسها بأنوثتها، كافكا وتروتسكي وجيمس جويس، قرأتهم سابقا حين كانت نهمة، تلتهم الحروف من غير قيود، قرأت كتبا كثيرة من غير كلل أو ملل، نظريات واطروحات ومشاهدات، كانت مثقفة جدا إلى الدرجة التي أعادت بها قراءة رواية غارسا ماركيز مائة عام من العزلة أكثر من خمس مرات، تنهدت ومررت ناظريها إلى رف صغير منزوي لم يضف شيئا لهواجسها التي أعلنت الاستسلام إلى مفارقة لم تعنِ شيئا لوجودها في هذا المكان، ولكن قبل أن تشيح بوجهها وتترك ذلك الهم الذي حاولت أن تتجاهله عمدا وتعود ادراجها، لفت نظرها أسم شخص لم تستطع ان تتجاهله، وقع عليه ناظرها كالبيان الهام وكشعاع رمادي يتموج في الأثير ويتجه نحوها، كاد الإسم يبقيها في الظلمة وحدها تحت ضوء مسلط من كوكب مكسو

بالشكوك، وحدها كانت تقف تحت ضوء يأتي من أعماق الماضي، لم تصدق عينيها الا عندما رفعت الكتاب بيديها وتمعنت به، رسم على الغلاف شكل لرجل بدون ملامح تذكر، يتألم ويكاد أن تخرج من فمه صرخة محبوسة وهو يكسر زاوية في برواز متهالك، لكن أسم مؤلف الكتاب كان كفيلا بأن يسارع في دقات قلبها كثيرا حيث بدا ذلك جليا حين أعادت قراءته لمرات عديدة " فراس حسين قاسم ".

اللعنة على تشابه الأسماء، ما مدى تطابق الحروف المركبة عندما تتشكل على هذا النحو من التشابه المعلن، قلبته على الجهة الأخرى ورأت صورة شخصية لرجل وسيم تكاد ابتسامته تشعرها بالعدوى، أنه هو، ملامح وجهه التي لم تتغير كثيرا، صمته الذي كان يعنيه، شعره وعيناه، أنفه الدقيق وخداه، لم تتمعن كثيرا، استكانت إلى لحظات من الوجوم والدهشة قبل أن تحمل الكتاب بكل هدوء وحنان بين يديها وكأنها تحمل طفلا قد مل من البكاء والصراخ وانتابته غصة في البلعوم، تطلعت في الغلاف كثيرا، لم تصدق أنها رأت أسمه هو وصورته أيضا وأنها الآن أمام جرح عميق في الذاكرة، وجها لوجه معها مرة أخرى أمام الدهشة المستعصية، كانت في أشد لحظات الوجوم، عندما اقترب الرجل الأرنب منها، مرر ناظريه على اسم الكتاب سريعا

وقال بلهجة ممطوطة أشبه بالبرود (عنوان جميل..... ليل المنافي).

أية صدفة مفبركة هذه، امتدت من مولد النور في بدايته إلى آخر رحيل ضياء النبض الضامر ومن عهد حروف الأبجدية إلى آخر روايات العشق التي لا تنتهي كلماتها، باغتها الربيع فجأة على سبيل الفرحة وأصبحت بوادره ومضة في صدر بوران التي غلفتها بالسؤال، هل كانت كل هذه المسافات تتصارع في عمق احساسها المنهك إلى أن حان وقت اللقاء بعد أن كان على مشجبة الظنون، وهل ستمطرها السماء عبثا منعطفات صدفة ملحدة تغازلها أقدارها بشفرات مبهمة، أم أن صوت الماضي يعود يتلبس عمرها الآتي ويصبح على هذا النحو من الجنون، لا تعرف، لا تعلم، كل الذي تعرفه أن يديها الآن تلامس كتابا مجهولا كأنه مركب صغير أراد الوصول إلى شواطئها حدَّ الرعشة وهي تقف على ميناء شبه مسموح الوقوف فوقه، تتطلع الى نجم لم يحترق بعد عند أطراف المجرة، وثمة شبح في الظلام يتجه نحوها من الضباب، يريد أن ينبهها إلى أن نبوءات الأمس جائزة التحقيق، يلوح لها بقصة تكاد أن تكون منسية، أخذت تتطلع في الكتاب الذي هو الآن حقيقة بين يديها وهي تقول في نفسها " صدفة.... تمنيتها الكون كله لأكون أول مؤمنة بها " بعدها أشارت للبائع عن قيمة الكتاب من دون أن تنطق بأية

كلمة، دفعت ثمنه الزهيد بارتباك مبالغ به وخبأته بعجالة في حقيبتها وكأنها عثرت على شيء ثمين تحاول أن لا تفقده ثم سارت عائدة نحو الشارع الذي تعرفه مرة أخرى.

كانت فوضوية القدر عنوان شتات ملتهب في جنح الظلام، في السابق كان ظلال من التلاقي يتلاشى بين بعثرة من الحواس في فضاء لا يلتفت إلى الأنين الطويل بصدر الأمنيات، أما الآن فقد أصبحت بوران تلوذ بداخل ريح ماجنة، قد يجرفها إعصار الذاكرة إلى أطراف الحكايات الصارخة، أو قد يقذف بها على قارعة الشتات مرة أخرى، حيث ينقطع الرجاء والضياء والصوت والكلمات في لحظة شاحبة قبل موعد التقاء الروح التائهة، لقد سقط أسم فراس في قلبها كامتداد الأمنيات المؤجلة، وحدها شواهد الحياة رمت بخوفها وحبها وهروبها وبعدها في قعر زجاجة في عرض البحر، ها هي الآن تقترب من ساحل مجهول قد يكون ملاذا غير منطقي لحياتها القادمة، لكنها أيقنت أن كل هذا البعد لم يصنع أية هزة مصطنعة في قلبها مثل رعشات يديها الآن، فقد كان النسيان وفي لحظة ما قد أتقنته المدن الساحلية بكل حرفية وألم، مدن تقبع على ساحل الأمنيات، كل ضوء يخرج باهتا منها كانت تعلم أنه لا يشعرها بالأمل بوقت من الأوقات، كل صوت يأتيها عبر سمائها لم تهبه الريح فرصة التقاء الروح ولو بجزء من الثانية بنفسها، كانت

تتعلق ببوادر النجاة على هيئة حلم طارئ، حاولت نسيان فراس بكل ما أوتيت من صلافة الأيام والسنين السابقة، خاطت جروح الأشرعة بخيوط من التجاهل، حاولت قتل طيفه بداخلها أكثر من مرة ولكنه وبرغم كل ذلك لازال يتنفس في داخلها ولم يمت، أما الآن، بعد أن رأته اليوم من خلال كتاب، أيقنت بكروية الأرض ودوران الأيام المجحفة، وحده هو بقي بأعضاء الضوء والكلمات، "يا حبي المسكين قد أتتك الشهادة على أعتاب النسيان ولم تمت"، ها هي الذاكرة ثانية تفتح أبوابا كانت مقفلة، تمنحها العذاب مرة أخرى على طبق من ألم، تذكرته قبل أثني عشر عاما، كان ذلك قبل أن يهرب بليلة واحده حين كانت السماء تمطر بغزارة، التقيا آخر مرة في ذلك اليوم البعيد بمخزن للحبوب في باحة البيت الخلفية، كان يحمل معه دمية لأرنب صغير اهداها لها، في ذلك اليوم الذي حاولت بوران نسيانه أكثر من مرة، استعرضت كل تفاصيل اللقاء الأخير أمام عينيها وهي تسير بشرود في اتجاه البيت الذي تمنت أن تصله بأسرع ما يمكن.

كانا لوحدهما قد إستقبلا مساحات من الشوق برائحة الزهور، واستمعا همسات حفيف أوراق الشجر وأصوات طيور الحب التي حطت على أيديهما المتعانقة، حلقا معها في ربيع الأمنيات، حبات المطر تضرب بسطح المخزن

الحديدي فيما كان صوت الرياح على بعد شعرة من الشعور، كانت ليلة موجوعة بين أجفان الليل، لقد تركا نفسيهما بين أحضان العناق الأخير وحلقا وحيدين في سماء بدأت تظلم، قال لها في آخر لقاء: (وإن افترقنا حبيبتي، سوف أخيط البحر العميق للسفن المتجهة إلى الأمنيات وأعود اليك) قال فراس ذلك بصوته الذي بدا متحشرجا، حينها ردت بوران بصوت بدا مجروحا وهي تشد على يده " هل ستعود حقا "وبعد لحظات من الصمت رد عليها قائلا (ليس لدي الحق بإثبات ذلك إنما هو فرض مقدس) واردف بعد عناء، (حبيبتي أكاد أموت)، بعدها لم ينطق فراس غير تلك الكلمات، لقد أخرسه الموقف، كانت مخارج حروفهما غائرة القرار وهم يتطلعون ببعضهما البعض، يلتمسون من أفق مبهم أي نور بسيط يسلطانه على تقاسيم الشفاه المرتجفة، كانا يريدان أن يستوحيا بعض كلمات تفض ذلك السكون من خلال صوت الضمير المتهادن، انتابتهما غصة في الفؤاد لم تنطلق إلى الخارج وبقيت محبوسة مع أمنية كادت تضئ مصباح الروح الشاحب وتشعل في المكان بقايا من أمل مهدور، تمتم فراس بعد عناء لكسر الصمت وقال (أنا من بعدك جثة هامدة)، حينها أخذت تنظر إلى قسمات وجهه التي تغيرت بشكل ملفت من خلال ضوء السراج الخافت وبعد أن أطرقت قالت بصوت حزين بالكاد سمعه " وما أنا من بعدك الا قماشة في

مهب الريح "بعدها بدأت مراسيم العناق، كان غير عادي، اخذ يختال في محفل التحام الأجساد المتعطشة للضياع، لقد بدأت مراسيم من الأحاسيس تطرد جفاف البوح على الأفواه، لتصبح مسافات العناق أقرب من الأنفاس التي بدأت تتصاعد، تصاحبها همهمات محمومة أخذت تصر على هيجان أصوات عواصف خرساء بداخليهما عند بداية ليل مغري، فقد تعمدا أن يدسا نفسيهما في أحضان النزوة ويصبحا كالجسد الواحد وكأن شيئا لم يحدث في تلك اللحظات التي مرت على عجل سوى أنهما استعجلا بلوغ نهاية الغرق بالأجساد المرتعشة واقتربا كثيرا من رسم حلم ألوان الطيف بداخلهما من دون اقتناع، ولكنهما بالرغم من ذلك استسلما إلى اللذة بعد أن كان في الأعماق شعور مشتت بين القبول والرفض وأشباه اندفاع فوق كوكب لامع يستهويهما، لقد كان لزاما عليهما أن يتجرعا الهروب في تلك الليلة بعيدا عن الأحضان الساخنة، لكن النبض الجارف أخذ يتحرك في الصدور رغما عنهما ولم يستطيعا ايقاف الجريمة بعد أن تلامست الأجساد وبدأت الشرارة الأولى، وكأن الدنيا أخذت تنهي ومضات كل الشهب وتبقيهما على سفح سحابة رقراقة ملونة تزيد من عمق الرغبة، يكبلهما شعاع خافت يحتويهما بكل دلالة الشبق المحتمل بواقع يرفض صنعهما، لقد نسيا في لحظات من الهيجان أن يلتفتا إلى الدماء التي

بدأت تسيل على أرجلهما أو تلك الصرخات التي خرجت بعفوية في سكون الليل المعتم، بل نسيا أيضا أنهما معرضان للفضيحة في أية لحظة من زائر محتمل في هذا الليل، لقد ولجا إلى أعماق النزوة بغير أرادة منهما وتركا الحيرة والعتاب يتبادلان حوارا هامسا في الظلام، كاد الصمت يأخذ حيزا من المكان بعد ان تفرقت الأجساد، استلقيا بصمت قرب بعضهما يستمعان إلى صوت المطر الذي أخذ ينزل على سقف المخزن الحديدي بعد أن هدأت الأنفاس المتسارعة، استلقيا مستسلمين تماما وكأنهما على جناح طائر متعب كان يطير في الظلام.

تمنت بوران أن يكون كل ذلك كابوسا لابد أن تصحو منه في يوم ما، أخذت تتساءل في قرارة نفسها، هل هو الضياع الذي ارتكباه أم هو الحب الذي أربكهما، كان باستطاعة فراس لملمة الموقف ويصلح ما تبقى من ضياع ولا ينتبه إلى وصية أشباح الغرباء الذين أخذوا يتطايرون حوله في الظلام (أهرب.. أهرب)، كان لابد له أن يبقى معها وإن كلفه ذلك حياته لكنه أراد أن ينجو بحياته في أسرع وقت ممكن بعد ان علم بوشاية أبيها، فقد كانت جريمته الساذجة التي بررها باسم الحب، وفعلته المقصودة، لقد فعل ذلك عن قصد منه حين غيب عقله الذي جزم بلحظات من القناعة أن العفة لا يستطيع الحب أن يمزقها بأي شكل من الأشكال، لذلك حين

تنبه إلى ما حصل بينهما، قام بسرعة، لبس ملابسه على عجل، فتح الباب وأخذ يركض بعيدا تحت المطر فيما هي أخذت تتطلع الى دمية الأرنب الصغير بقربها، لقد هرب فراس قبل التحرير من العراق إلى جهة غير معلومة بعد الوشاية التي كتب تقريرها أبوها فيما هي تهرب بعد الاحتلال إلى الشام مع عائلتها الصغيرة، مرحلتان من المتغيرات تفصل جيل اللوعة والقهر والحرمان عن جيل الدمار والضياع والغش، وفي كل الأحوال، من الصعب ان تكون خارج وطن يحكمه الأغبياء وصعب أن تكون داخل وطن يحكمه الغرباء، دائما ما كان يتضح في مجمل خياراتها أنها لابد أن تختار أحد الأصعبين، الشر والشر الآخر، الأسود والأسود الآخر، أما الخيار الثالث هو أن تموت ألف مرة في اليوم قبل أن يطلق عليك مسمى شهيد الشتات، هذا ما طبق في آخر الحروب التي أطلق عليها التحرير و أطلق عليها الاحتلال في نفس الوقت، أما الآن فلم يعد للعمر بقية للحنين، لم يعد هنالك أمل بنجاة الشوق بعد الغرق في الخطيئة، فليست بوران وحدها من لازمها الانكسار في زمن اللا جدوى، لقد كان وجود فراس في غربتها قشة في بحر هائج، أصبح شعورها نحوه ما هو الا بضع اشواق متروكة على رصيف للبضائع التالفة، ولكن بعد أن حفزها عنوان كتاب دخيل، لم تتوقع أن يعيد الشعور نفسه بعتمة من توارد الاحاسيس

المبهمة، أصبح وجوده في حياتها واقعا مؤجل، ولكن هيهات، فالسبيل إلى الوصول اليه قد يكون ضربا من الخيال أو مستحيلا، فهي سائرة الآن في قطار أصبح سبيل النزول منه قد لا يعني لها شيئا بالرغم من المحطات الصغيرة التي تقف بها أشباه علاقات خاطفة أرادت من خلالها أن تعزز بها نسيان فراس، حين وصلت الى العمارة، كان كل شيء يكسوه السكون، رائحة الجدران المتقشرة تشعرها بالانقباض، الرطوبة التي تزحف من أسفل الجدران، لم تعلم كيف أرتقت السلم ووصلت إلى باب الشقة التي تقع في الدور الثاني، أرادت أن تلتقط الانفاس وتعيد لملمة هيأتها وهي تمسك بمقبض الباب الحديدي، أغمضت عينيها برهة وأخذت نفسا عميقا ثم حبسته بداخلها، أرادت أن تترك الشرود على سلم العمارة يسقط، حاولت جاهدة أن تطرد طيفه والهروب إلى الداخل، لكنها استكانت لحظات وهي تستمع إلى أصوات أقدام ترتقي السلم ما لبثت وأن فتحت عينيها، فتحت الباب واندفعت إلى الداخل بسرعة، لقد وجدت كل شيء ساكنا أيضا، اتجهت إلى الشرفة مباشرة حيث مكان أبيها كعادته يراقب الشارع، لم يلتفت نحوها ساعة ما جلست قبالته وألقت عليه تحية المساء، اخذ رشفة من كوب القهوة الذي بيده واستمر بالنظر نحو الشارع وبعض المارة وهو يقول (أين كنت البارحة ؟)، كانت الإجابة

حاضرة، قالت "اضطررت للمبيت في بيت صديقتي نينار فقد كان الوقت متأخرا جدا "، تجاهلت جموده وأرادت أن تثير موضوعا آخر قد يشده اليها، قالت بكل حماسة "الم يحدثك أحد عن رحلة العودة"، حين أدار وجهه نحوها، تطلع بها في حيرة، حاول أن يتغلب على صمته الذي استعار منه شيئا من هدوء، تمتم بصوت غير مسموع بدا أكثر رخاوة وفتور (لم يحدثني أحد) بعدها أعاد نظره إلى الشارع يتابع المارة الذين أخذت حركتهم تخف مع أول بداية الليل الذي سرعان ما ابتلع الناس بداخله ليبدأ بعد ذلك الهدوء المقيت، أرادت بوران أن تخفف عنه هذا الحزن الذي رأته في عينيه حين قالت " ربما نسونا " لكنه لم يعر أي اهتمام لحديثها، فقد بدأ الشهر الثاني ينتهي ولم ترجع السفارة العراقية لهم جواب طلبهم بالعودة إلى الوطن والأجلاء عن طريق المطار بعد أن تدهور الوضع الأمني في دمشق وأصبحت احتمالات وصول خطر المسلحين الذين أخذوا يقتربون من عمق العاصمة كبيرا، فقد أصبحت أصوات الرصاص تطلق بالمجان في كل مكان، شبح الموت يداهم الأجساد التي لم تأمن نفسها في الظلام بعد اليوم، جميع المعطيات تنبئ بالموت أو بالاعتقال، كان أبوها يريد العودة بأسرع ما يمكن الى بغداد ولكن الحكومة العراقية تجاهلت طلبه بالرغم وجود العديد من أصدقاء الأمس قد شفعوا له، (لا أظنهم نسونا بل تجاهلوا

الطلب)، حين قال ذلك ضرب بيده على سور الشرفة الحجري بقوة دليلا على نفاد صبره، لقد اعتبر عدم رد السفارة الجواب اليه اهانة له وهو يتذكر كيف كان بدرجته الحزبية العالية والمرموقة وموقعه من الدولة في ذلك الزمان الغابر مما يجعله يصرخ دائما وبكل حرقة (سنعود قريبا).

كان يصعد إلى القمة بسرعة البرق، يتقلد الأوسمة ببذخ شديد كلما أوغل في الأجرام، بعد كل وسام جديد جرم جديد، يرقيه الحزب العتيد إلى مواقع أكبر مما يتصورها وهو في كل مرة يثبت ولاءه على أكوام الجماجم التي يحصيها قلمه الذي أصبح الفاصل بين الموت والحياة، يطلق الحبر على الورق كالرصاص، التقارير التي كان يكتبها كانت بمثابة وسيلة يصل بها إلى الطموحات والمراتب العليا، يدفعه بذلك عقيدة الانتماء المطلق للحزب الذي يعتبر أن الشعب كله قد أصبح عدوه الأول والأخير والذي يجب مراقبته ومتابعته بدقة بالغة، لقد انحاز في وقت من الأوقات إلى الشر كله وفضل أوسمة من الحديد البراق، يعلقها على حلة متسخة بالقومية وصدر لا يحمل ذرة من قيمة الوطن بداخله، كان حقودا متمرسا بالغ بالغل كباقي أعضاء الحزب البالي الذي رفع الشعارات المهجنة التي كانوا ينطقون بها في الأزمنة الغابرة (امة عربية تالفة ذات رسالة زائفة)، أمة عربية لا تجيد سوى قراءة آيات القتل وتنفيذها باحترافية بالغة، أما الرسالة

الخالدة هي رسالة الإقصاء والتفرد بالسلطة التي تترسخ يوما بعد يوم بالحديد والنار، لتبقى سلاح الإنسان الأعزل ما هو الا الخنوع الذي يحمي وجوده ويجعله حيا يتنفس في هذه الحياة، يعيش بداخل وطن لم يكن سوى خلية للدبابير، يُلدغ في اليوم ألف مرة وما كان عليه الا الانصياع والسكوت، تساءلت بوران في قرارة نفسها وهي تنظر الى وجهه الذي بدا أكثر عصبية، حقا ماذا لو عاد به الزمن مرة أخرى إلى ذلك الموقع وخيروه بلعب نفس الدور، حتما سينتقي أن يلعب نفس الدور بأكثر شراسة من السابق ولا يحيد عن ملء حبر الدم الذي سيكون مداد لقلمه، سيفعل ذلك حين يتطلب منه حقده، سوف ينصاع بدوره حين يرى الأمر جديا الا يسترعي التجاهل أو الرفض، سوف يعمل على زج ما تبقى من الشعب إلى غياهب السجون، يبرر الهفوات والأحقاد على هيئة الانصياع إلى أوامر الحزب المذلة، لقد رأت بوران أباها ذات يوم وهو يكتب التقرير النهائي لإدانة أبو فراس في ليلة مشحونة بالغضب، كان حسين القاسم جارا يسكن غير بعيد عن بيتهم، لا تربطه اية صلة بأفكار الحزب الأوحد، عرفوه تحت مسمى (غير منتمي)، كان صحفيا متحررا وتقدميا يرى الحياة كما يراها أغلب العراقيين بشكلها البسيط القانع بما يجري والراضي بما جرى مما حرك بداخل ابيها الحقد والغيرة ودفعه إلى أن ينعته بالشيوعي المعارض لنظام الدولة،

كانت هذه اسهل الطرق التي تؤدي بك إلى ما وراء الشمس من غير سابق انذار، أراد أن يتخلص منه بكل حقارة، عندما عاتبته امها على تلك الوشاية المغرضة، لم يشأ ان يجيب في وقتها عن سؤالها بشيء من الحدة والغضب كعادته، بل رتب كل الأوراق بكل هدوء وأودعها الظرف الورقي الذي لم يكن سوى قبر أصفر يحتوى على أوراق للموت وحدًا فاصلا للنهاية، لكنه اقترب منها كثيرا حتى كاد أن يلتصق بها وقال بصوت يميل إلى الهدوء (وان لم يفعل شيئا فهو غير منتمي إلى الحزب)، وبعد اطراقة بسيطة يحفها صمت عصيب، رفع رأسه عاليا وتطلع بصورة الرئيس الكبيرة ذات الوجه الضاحك أمامه وقال (لابد أن أعمل على اثبات وجودي ورفعة مقامي)، على أثر ذلك التقرير الذي افضت سره بوران الى اسماع فراس، وفي فجر يوم ماطر، هرب حسين القاسم هو وزوجته وبناته الاثنتين بالإضافة إلى فراس لجهة غير معلومة، بعد ذلك بوقت غير طويل، صادرت الدولة المنزل وكتبت لأبيها الوصاية عليه وأصبح يقيم به كلما طاب له الأمر، كان يتمشى فيه بشيء من الزهو والانتصار الفارغ، فقد دفع ثمنه من ضميره الميت وحقده، قالت بوران في قرارة نفسها " فراس حسين القاسم لقد انتقمت منه شر انتقام، لك كل العذر ولي كل الضياع " لكن الرجل الأرنب قطع كل أفكارها حين وقف بالقرب من بوران، أخذ يطيل النظر إلى

نفس القمر المتثلم الذي بدا وكأنه مقصوف وهو يقول (انظري هناك إلى وميض الانفجار الهادئ) حينها تطلعت بوجهه بكل امتعاض وقالت بحيرة "صوت انفجار هادئ... لا يوجد رومانسية في الحرب يا أرنب".

لقد تنبه الجميع الى طرق على الباب، كان هنالك صوت أراد أن يقحم نفسه على حديثهما ويبدد شرود بوران الذي ارجعها الى الصالة، لقد بدد الصمت الذي استشرى في المكان طرق الباب الذي أخذ يزداد، هناك من يريد أن يفض هذا الصمت عنوة بعد أن سمعت بوران من خلف الباب صوت ينادي باسمها، صوت جارهم الحاج وادي، هذا وقت مجيئه، عجوز في السبعين من العمر، في كل ليلة يأتي يمارس مع ابيها لعبة الطاولة، يتسامران حول انغام ام كلثوم ويتحدثان عن الماضي بكل حرقة وغيض، يجلجل بصوته الجهوري المميز ثم بعد ذلك يتثاءب الجار العجوز في آخر الليل معلنا عن انتهاء دور اللعبة قبل أن يتبين موقع الفائز من الخاسر ويرحل، هكذا كان يترك الامور مبهمة ويمضي في اخر الليل إلى مخدعه ووحدته من دون سابق انذار، عندما فتحت له الباب وقف قبالها وقال "بوران متى نتزوج وترثيني" عندها مطت شفتيها وتبسمت له بشكل مصطنع فيما هو أخذ يمشي بتثاقل نحو مكانه المعتاد إلى أن وصل أمام أبيها الذي لم يعره أي انتباه، افسحت له بوران المجال وقدمت له

الكرسي الذي ما أن جلس عليه حتى أخذت انفاسه المتلاحقة تهدأ وكأنه قد قدم اليهم للتو راكضا من رحلة طويلة قد عانى منها الكثير، رفع اصبعه في وجه ابيها محذرا وقال (لن تفلت مني هذا المساء)، حين تطلع ابوها بوجهه مليا قال له بعد أن أشبك أصابعه بكل ثقة (انا لم اهزم في حياتي، أأنت مجنون)، لكن الحاج وادي نظر اليه من خلال عينين غائرتين تفحص بهما وجهه قبل أن يتبسم ويلقي قنبلته التي اثارت بنفس ابيها عدوانية مبرره بعد أن قال ضاحكا (اااه يا أمريكا)، ولأول مرة كانت ردة فعل أبيها مفاجئة للجميع حين تطلع نحو الحاج وادي بعينين قدحتا شررا، احتقن وجهه من شدة الغضب، احكم قبضة يده وضرب بها الطاولة التي أمامه وقال غاضبا(انا لم اهرب كما هربت أنت بفضيحة) حينها اسند الحاج وادي ظهره على قائمة الكرسي وكأنه يهرب فعلا من فضيحة ابعدت عنه التوازن والحقت الاضطراب على قسمات وجهه التي ازدادت حدة وتحدي، لقد أصبحا متقابلين وكأنهما ديكان هنديان في حلبة صراع يكادان ينقضان على بعضهما.

لقد هرب الحاج وادي من العراق إلى الشام بعد الاجتياح الأمريكي الذي سبب الفوضى في كل مكان، جمع القسم الأكبر من أموال البنك المركزي العراقي الذي كان يعمل به كمدير للاستثمارات، وضعها في أكياس وعبر بها الحدود مع

نفر من الشباب الصايعين، لقد استباح السراق والمجرمون البنك وحولوه إلى غنائم، أراد أن يحافظ على البقية من الأموال التي لا حصر لها، كدسها في شقته سنين طوال الى أن أصبحت ليست ذات قيمة بعد أن استبدلت بأوراق نقدية جديدة ليصبح بعد ذلك مطلوبا لدى الدولة بتهمة السرقة، لقد تبين في نهاية الأمر أن تقابل الوجهين ما هو إلا وجه لفضيحة واحدة، بدا كلاهما في كفة واحدة من الذنوب، لذلك أراد الحاج وادي أن يتدارك الموضوع ويحتوي هذا الغضب النافر لأنه يعلم إن هو استمر بمجادلته فلن يصل إلى اكتمال وقت السهرة معه، وقد تنتهي قبل أن تبدأ، لذلك فضل أن يلطف الجو ويعيده من حيث بدأ أول مرة، أخذ بعض الأنفاس الثقيلة حتى استرجع بعضا من رباطة جأشه، سحب وجهه المتجهم وانتظر لحظات يستعيد بها بعض الصفاء ثم رفع يده عاليا وقال بتهكم موجها كلامه الى أبيها (لن يجدي هذا نفعا، سوف لن اجعلك تفوز هذه المرة) كان على بوران أن تتدارك الأمر وتكسر هذه الحدة، ترتب الأوراق التي أخذت تتطاير من يديهما، ربتت على كتف الحاج وادي بلطف وسألته ان كان يريد أن يشرب قهوته الآن أم لاحقا، حينها استعاد شيئا من أنفاسه المتلاحقة وأخذ يتطلع بها حتى بدا أن الخصومة اتجهت نحوها ما لبث أن قال بنبرة قاسية متوترة وهو يتطلع بوجهها بشدة (سوف اشرب قهوة سادة

على جنازة هذا الرجل)، بعدها اتجهت بوران مسرعة إلى المطبخ لكنها توقفت لحظات في الصالة، أدارت رأسها نحو غرفة أختها سماح، لقد رأتها عبر باب غرفتها النصف مفتوح جاثمة بلا حراك وقد دست رأسها بين يديها المتعانقتين وهي في وضع القرفصاء، وقفت وتطلعت بها مليا ما لبثت وأن اتجهت نحوها بتأن، حين اقتربت منها جثت على ركبتيها ومدت يدها نحو رأسها ورفعته بحنان، تمعنت بوجهها، كانت نظراتها الندية توحي بأنها كانت تبكي، سماح المسكينة، ورثت القصور الوريدي من ابيها مما شكل احتقان الدم في عضلات الساق، لا تكاد تقف حتى تسقط على الأرض مرة أخرى، ينتابها الألم كلما أرادت المسير خطوات بسيطة إلى الأمام، لقد أصبحت حياة سماح مجرد خنوع، وأمنيات وحسرات وصمت، كانت في السابق تقضي الساعات الطوال واقفة على قدميها بمصنع للحلوى، تغلف أكياس الحلوى لساعات اضافية بصبر كبير، وقوفها الطويل على آلة صف الحلويات سارع وعجل بتثاقل قدميها، لقد احتملت الألم برباطة جأش وعزيمة في بداية الأمر ولم تعلم إنها سائرة إلى نهايتها المرتقبة، أرادت أن توفر لأسرتها المال الاضافي، تبذل كل ما بوسعها لأجل ارضاء زوجها السوري العامل في نفس المصنع، عملت لأجله كل شيء بعد أن تحدت أباها الذي كان رافضا الزواج منه فما كان منها إلا أن

هربت معه رغما عن غضب أبيها وارتبطت به، عاشت معه سنينا طوال قبل أن يتبدل حاله ويصبح على غير شخصيته التي أحبتها بعد ان طرد من المصنع واصبح عاطل عن العمل، أخذ يتسكع بين الخمارات وبنات الهوى، عملت لأجله ساعات طوال في المصنع بالرغم من معرفتها خياناته المتعددة وبالرغم أيضا من معرفتها بعلاقاته المشبوهة الا أنها تظاهرت بأنها لم تلحظ ذلك على تصرفاته الأخيرة، لقد أخذت تنتقي له الأعذار بشكل سافر وترسم له صورة وهمية بذهنها صدقتها هي وحدها إذ أنها أجادت بأن ترسم له صورة غير صورة الجحود التي ازدادت يوما بعد يوم، لقد وفرت له كل احتياجاته التي أصبحت ثقلا اضافيا عليها حتى انهكها التعب وبان ثقل حركة قدميها جليا لدى صاحب المصنع الذي أدرك أنها لن تقوى على الوقوف على ماكينة التغليف مدة طويلة فطردها من العمل، لكنها عبثا حاولت ان تجد عملا آخر في معامل الخياطة، في مزارع الزيتون، خادمة في البيوت أو في أي مكان ولكنها عادت تجر اذيال الانكسار وقبعت في البيت زمنا طويلا بلا حركة بعد أن استنفدت كل مدخراتها على اسرتها الصغيرة التي تتكون من طفل صغير لم يتجاوزالثامنة من العمر وزوج يريد التخلص منها في اسرع وقت، لذا حين أحس بنهايتها، نفر منها واختلق لها المشاكل التي لم تكن صعبة على ظلمه، كان يعد لحياة جديدة مع

امرأة جديدة، فضح نواياه المرتقبة حين عاد في تلك الليلة سكرانا مع أحدى عشيقاته الجدد، دخل غرفتها وأوصد خلفه الباب، نام على سريرها وعلت الصرخات والضحكات من خلف الباب ولم تعترض على ذلك بل جلست في الصالة مع طفلها صامتين، لكنه وبعد طول انتظار، خرج اليهم برعونة مزمجرا وكأنه فقد اعصابه، لم يحتمل وجودها أكثر في ذلك البيت، صرخ بوجهها وانهال عليها بوابل من الشتائم والسباب، شدها من شعرها وأودعها الشارع هي وطفلها، فما كان منها الا أن عادت إلى أبيها بقلب مكسور تستسمحه بعد طول غياب، بدوره لم يمانع الأب بعودتها بعد أن رآها تجر خلفها الانكسار، منذ ذلك الوقت قبعت بركنها الذي أصبح ملاذها، صامتة ككتلة من المشاعر مهملة، لم تنتظر بعد اليوم أحدا أو تكلم أحدا.

"هل أنت بخير" لم ترد سماح على بوران بأية كلمة، نظرت في وجهها بكل عتب، كانت تريد أن تفرغ غضبها وكل ما بداخلها من مآسي السنين التي مرت عليها بأي أحد يقابلها، ارادت أن تستوقف المارين إلى المجهول لحظة وتقول لهم (لقد تركني جميع من حولي)، كانت تريد ان تجد تبريرا شافيا عما حدث بين متاهة الندوب المتزاحمة التي علقت بجسدها الذي يترقب الزوال، لكنها وبعد أن استجدت من نظرات بوران الشفقة والعطف، أرجعت رأسها بحجرها

وباءت بالصمت ولم تتكلم، أخذت بوران تنظر اليها بعينين نديتين، لم تنبس بوران بأية كلمة اضافية، انتظرت كثيرا عند سماح ولكن من غير جدوى فقد كان الصمت يغزو المكان مما جعلها تتجه بناظريها الى الطفل الصغير الذي كان يلهو بصنع طائرته الورقية، فما كان منها الا ان قامت ثم سارت عائدة بتثاقل إلى المطبخ تعد القهوة بشرود، أخذت وقتا طويلا تنظر عبر نافذة المطبخ إلى الأضواء التي بدأت تنطفئ من خلف العمارات المقابلة، لازالت النسمات تبعث في نفسها طمأنينة غريبة الملامح، لم تفهم سر هذا الشعور الغريب المتغير الذي زاد من موقف الرضا بنفسها للحظات قبل أن توقظها صرخات أبيها والحاج وادي تأتيها عبر الصالة (دو شيش)، التقطت الفناجين من الرف، وضعتها بشكل مرتبك في الصحن، أخذت تسكب القهوة بيدين مرتجفتين وشرود فاضح، استكانت للحظات قبل ان تنتابها غصة حاولت كتمانها ولكنها لم تقو على ذلك فما لبثت وأن اجهشت بالبكاء.

(إلى الغافلين على برك من سواد، سيأتي اليوم الذي يعلن به الموظف الأوحد على نفاد الكمية لتعودوا خلف البغال بوجومكم)، كانت هذه أول الكلمات المهداة في الكتاب الذي فتحته بلهفة وهي تجلس على حافة السرير بعد أن أطل الليل وهدأ كل شيء، أخذت تستعرض ما بداخله من أحداث

ولكنهـا أحبـت أن تقـرأ الكتـاب مـن البدايـة لـذلك عـادت وفتحت أول الصفحات بكل لهفة.

الكرباح الأول - أربيل.

أول الرحلة الشاقة، كان لابد لنا من الوصول إلى مدينة دهوك بأسرع ما يمكن، بعد أن تعدينا مرحلة الخطر من نقاط التفتيش التي تقع على طول الطريق الطويل الذي امتد عبر الكثير من المدن والقرى التي تجاوزناها بشكل عصيب، استقرينا لأيام في مدينة كركوك قبل أن نتحرك مرة أخرى إلى مدينة أربيل، لقد اجتزنا هذه المسافات الطويلة من البلاد انطلاقا من مدينة أربيل عبر طرق متعرجة ومن ثم الوصول إلى مدينة دهوك التي من خلالها سوف يتم العبور إلى تركيا بشكل آمن. لقد وجدنا أمامنا أمورا أكثر خطورة مما كنا نعتقد، كلما تعمقنا بالرحلة في ظل سيطرة الدولة المشددة أحكامها كلما كان الوضع أصعب على كل المنافذ الادارية من خلال نقاط التفتيش المشددة، المهرّب الذي طمأننا بأن نكون بخير لم يترك لنا مجالا للخوف الذي بدا على كلمات أبي وتصرفاته المفضوحة مما أدى إلى أن يصاب الجميع بنوبة من الخوف الذي سرى بأوصالنا كلما نظرنا إلى وجه

أبي الذي كان خائفا علينا أكثر مما ينبغي، حينها انتابتني رعشة مباغتة كانت كنوبة من البرد الخاطف في شهر كانون الأول.

كان أبي يود أن يبذل الجهد الأكبر من أجل التخلص من الحدود العراقية وبلوغ آخر القرى لتكون جميع العائلة بأمان لذلك استفز جميع الموجودين من أجل مواصلة المسير نحو الحدود وقال (لا بد ان نعبر الحدود بسرعه)، كنا نريد أن نكون أبعد ما يمكن عن مكان قد تطاله السلطة التي كانت غير نافذة في هذه المناطق التي يستولي عليها الأكراد لذلك حثثنا أنفسنا وواصلنا المسير عبر الطرقات الجبلية الملتوية، كان الخوف يتبعنا أينما كنا وكأنه يجري مجرى الدم فينا، قال أبي للمهرب: (وإن أمسكوا بنا قوات البيشمركة الكردية ماذا سيكون ساعتها)؟ فرد عليه (لا تخف منهم فهم متواطئون مع جميع الأطراف).

عندما تحركنا نحو مدينة دهوك، فرض علينا المهرب اللباس الكردي واضطررنا إلى أن نحفظ بعض الكلمات الكردية المهمة، قال وهو يتمعن في وجوهنا إن كل شيء سيسير على ما يرام إن أنتم اتبعتم التعليمات، سارت بنا الحافلة بسرعة وعبرت بنا التلال والجبال لأكثر من ثلاث ساعات، يحفنا الظلام من كل جانب، لم تستوقفنا أية نقطة تفتيش ونحن في طريقنا نحو الحدود الفاصلة بين العراق

وتركيا، فقد كانت الطرق الوعرة والملتوية التي سلكناها هي السبيل الوحيد للنجاة من قبضة السلطة التي لن تتوانى عن أعدمنا إن هي أمسكت بنا، اختي اصرار حاولت أن تتصنع الثبات والاتزان بالرغم من أنها كانت تتمسك بيد اختها ابرار من غير شعور، أما أنا فكنت أبحث عن ثقب بغطاء الحافلة لأرى أي ضوء يبزغ من بعيد في عتمة الأماكن التي نمر بها.

كانت ليلة أحسست أنها الأكثر عتمة على الاطلاق، لم تكن امي أقل منا اتزانا وهدوءا حين أخذت تقرأ الأدعية بصوت مسموع بأنفاس متقطعة، تغمض عينيها بقوة بين حين وآخر عندما تهتز السيارة على اثر المطبات الصخرية المتعاقبة، أما أبي فقد انتابه الصمت الكامل، أخذ ينظر الينا بعيون شاردة، كانت مرحلة حرجة قد ننجو بعدها وقد نعود إلى مرحلة ما قبل الصفر.

فراس حسين القاسم - كانون الثاني ٢٠٠٣.

كان هذا أول حدث قرأته بوران في الكتاب، لابد أنها كانت أول انطلاقة لرحلة فراس هو والعائلة بعد الهروب من مدينة بغداد، تمعنت بالكلمات جيدا، الاحساس العالي بالخوف وارتباك الحرف المتواصل، ولج إلى أعماقها دون

ان تدرك ان هذا الشعور وصلها، أخذتها الأحداث بعيدا إلى حيث معاني أصرت على أنها تعني الغربة وحدها، في صخب تلك الحروف، تعثرت بوران مرة أخرى بذروة احتراق الجذور من الأعماق، تدفعها الرحلة التي حين تعيد قراءة كلماتها بكل إخلاص وأمانة مرة أخرى تحس بأنها قد ولجت بداخل أحداثها بدون تردد، بدأ شعور بالحنين ينتابها من جديد، حنين لم يسبق له مثيل، أحبت أن تتأكد من اسم وصورة فراس مرة أخرى، نعم هو اسمه وصورته اللذان لم يتغيرا كثيرا، ملامحه على شاكلتها منذ أن رأته آخر مرة وكأنها بقيت منذ ذلك الوقت لأجلها، في هذا الليل بدأت الأحاسيس تتزاحم بنفس بوران، يتوافد عليها صخب من الأشواق عند ستار ذكرياتها، تطوقها المواقف بدائرة ضبابية، تذكرت كيف كان أول لقاء بينهما، عند المساء في المكان الذي ضرب فراس الموعد به لأول مرة حين رمى لها برسالته الأولى التي كانت ملفوفة على حجر عبر نافذتها، كان موعدا قرب نخلة في حديقة الزوراء بدت كأن لها مدارج مضيئة تصعد الى السماء، ينعكس عليها ضوء القمر الخافت فيحدد تفاصيل سعفها الطويل الذي كاد أن يصل إلى حافات الغيوم، (مساؤك أجمل من نقاء حلم)، لقد تخلل اللقاء الأول الكثير من الصمت الذي ينتظر من يملؤه، لم يخلُ من نظرات الاعجاب وبعض الكلمات المرتبكة التي اشعلتها رياح كأنها

عصفت بداخل مجرات الورد وأخذت تلج بمسامات الغرام، فقد بدأت تهب لتسرق بعض أحرف الكلمات المرتبكة على الشفاه، كانت تريد الهرب من عينيه المتقدتين ووجهه الباسم، لقد اخافها شعورها بالاندفاع، لذلك ودعته وأسرعت بالعودة في خطوات لا تعلم كيف أوصلتها إلى البيت، لقد هربت مرتعشة وأرادت أن تلتحف الشرود، لم تنم في تلك الليلة، أخذت تستعيد لحظات اللقاء، كان حلما قصيرا جعلها تطير بالمدى البعيد مع عصافير تحلق فوق سحب تتساقط على مهل فوق حافات التلال البعيدة، كان الرجل الأرنب مستلقٍ قربها على السرير، عاقدا يديه وراء رأسه حين قال (قمة الوفاء حين يطرق أحدهم نافذتك في ليل عاصف ليقول لك أنني معك) لكنها تركته وقامت متجهة نحو النافذة التي لم تر من خلالها سوى انعكاس صورتها المظلمة على الزجاج، وقفت متسمرة للحظات تتطلع بوجهها الذي أخذت الظلمة تكسو بعض مناطقه، كان التيار الكهربائي مطفأ، أطلت عليها عتمة مترامية الأطراف، الظلمة الساكنة والهدوء المضاعف يجبر الذاكرة على الحضور والوقوف أمامها على هيئة شريط لا ينتهي من المواقف والذكريات، لم يتبق هناك قرب النافذة سوى ضوء مشاكس يعاند الزجاج بدخول قبس من ضوء القمر الشاحب الذي أوضح بعض من معالم البيوت والعمارات وبعض الأضواء البعيدة، أطلقت بوران حسرة

كانت محبوسة، تركت النافذة وعادت إلى السرير، تمنت أن تزيح كل شيء عن ذاكرتها وتنام، تحاول أن تخلد إلى الخدر ولو لبضع ساعات، غدا لابد أن تذهب للعمل باكرا لأجل انجاز حسابات الشركة النهائي، أخذت تنظر إلى الكتاب الذي بدأ يغريها بتتبع مسيرة فراس، تريد أن تعرف أين هو الآن، لكنها أجلت كل ذلك الى وقت آخر، وضعت الكتاب تحت الوسادة التي رمت رأسها عليها وغطت في النوم برغم حر الغرفة.

في صباح اليوم التالي، تمنت بوران أن يمضي هذا اليوم على خير بعد أن سمعت دوي الانفجارات يعلو في سماء دمشق، يخفت حينا وأحيانا يهيج المسامع والمدامع والصراخ الذي تسمعه بين حين وآخر، منذ الأمس بدت التهديدات جادة في قصف العاصمة وأصبحت السماء تترقب اطلاقات الموت في كل حين، ودعت بوران الجميع وكأنها لن تراهم مرة اخرى، لم تكن تعلم إن كانت ستعود ام سوف تحصدها قنبلة زرعت عشوائيا في الطريق أو أن صاروخا يأتي من جهات خفية يحسم حياة البعض بنيران متطرفة قد تحصد النفوس بغير كلل، فقد تراءى لها أن شيئا ما سوف يحدث لها ولكن بالرغم من ذلك لم ينتابها هذا الخوف كثيرا، خرجت إلى الشارع ممسكة بيد ابن أختها الصغير الذي مضى معها بتردد، عبرت السوق باتجاه شارع الحمراء الذي اكتظ

بالمحلات الشعبية، لقد تمرست على رؤيتها طوال خمس سنوات وهي تتجه إلى عملها، فلم تكن الشركة التي تعمل بها بعيدة، تدخل إليها كل صباح ولا تخرج منها إلا بعد الساعة الرابعة عصرا، تعمل بكل جهد وجد وهي تتحامل على نفسها بأن تؤدي عملها بكل اتقان وتفان، تحرص على أن لا تكون مقصرة في شيء، الراتب الزهيد الذي تتقاضاه لا يكفي لسد نفقات العيش المتزايدة، لذلك كانت مضطرة إلى العمل ساعات اضافية من أجل المساعدة على توفير حياة أفضل بلا نقصان للعائلة التي كانت مقعدة تماما، فقد أصبحت مسؤوليتها وحدها في توفير كل لوازمها مما زاد من حرصها على العمل والمثابرة لأجلهم، الأمر الذي ولد عقبة كبيرة في مسيرة حياتها أودت إلى اضعافها يوما بعد يوم، هكذا كانت بوران تفكر بهم وتؤثرهم على نفسها بعد أن هربوا من العراق إلى الشام بليل الاحتلال الأمريكي واستقروا في بلاد جديدة وموطن جديد، منذ ذلك الحين، دفنت بوران نفسها بين الأرقام والعلامات القاسية غير الطيعة وغير القابلة للنقاش وفي النتائج الحسابية الصريحة، درست الحساب وتخرجت بدرجة عالية لم تصدقها هي نفسها، لم تتصور ان تكون في مجال علوم الحساب في يوم من الأيام ابدا، ولكن اصرارها على العمل كان هو الحسم، كان ميولها يختلف تماما عن غايتها، لقد تمنت أن تكون رسامة كبيرة في

يوم من الأيام بعد أن اكتشفت أن لديها موهبة لابد أن لا تهملها، فقد أحبت الفن والرسم إلى درجة النهم منذ الصغر حين كانت تخط خطوطها على الأوراق والجدران وجذوع الشجر، لكن حتى الأيام لم تسعفها في مواصلة ما تحب، لذلك ومن خلال مجال المحاسبة اصرت على أن تثبت لنفسها انها بالإمكان أن تنسى وتكون قاسية كالمادة التي درستها ولو جذر تربيعي لعملية معقدة في حياتها، لقد عملت بكل جد على فقدان الكثير من الرحمة في نفسها من خلال أدراج الأرقام الصلفة إلى حياتها، أصرت أن تتعامل مع الآخرين بمعادلة حسابية بسيطة التركيب تؤدي بها إلى نتائج صارمة على حسب قواعد مدروسة مسبقا.

عندما توقفا عند باب المدرسة، أمتنع الطفل في بداية الأمر من الدخول وأخذ يهز جسده الصغير بتمنع غير مبرر، لكن بوران جثت على ركبتيها قبالته وأمسكت بكلتا ذراعيه بعد أن وجهت نظراتها إلى عينيه مباشرة ليستمد منهما الشجاعة، تكلمت معه بكل حنان فيما هو أخذ ينظر إلى الأرض بعد أن تسمر قليلا ثم هز رأسه بالنفي وقال (اريد طائرة ورقية)، فما كان منها إلا أن أخرجت من حقيبتها قلم رصاص بدا عليه أنه عادي لولا وجود رأس أرنب مطاطي صغير بالأعلى، تقبل منها الهدية سعيدا وتبسم وهو يتطلع إلى رأس الأرنب الذي بدا سعيدا هو الآخر ويتبسم، ودعته

وهو يدخل الى باب المدرسة قبل أن تسمع دوي القذائف يتعالى بالأنحاء، بعدها اتجهت إلى الشركة التي تعمل بها، كانت الحيرة بادية على وجهها، ارادت ان تصل بأسرع ما يمكن لذلك حثت خطاها وهي تقترب من البناية التي بدت على بعد ليس بالقريب، لكنها في هذه الأثناء سمعت فجأة صوت صاروخ ينطلق في السماء أعقبه صوت دوي كبير وانفجار في البناية التي تكمن بها الشركة، دفع بها الهواء ورماها بعيدا الى الخلف وطرحها ارضا، ما هي إلا لحظات من الصدمة حتى سمعت أصوات طنين يعصف بأذنيها ورأت الغبار كثيفا حولها، ولم تسمع أصوات الصرخات التي بدأت تعج بالمكان، كان جسد بوران مطروحا على الأرض، أخذت وقتا طويلا وهي تحاول ان تقف، ولكن حين فاقت من الصدمة، وقفت واجمة بين الأنقاض فيما حل الصراخ والهلع عند المارة، كان الغبار كثيفا، جثث في كل مكان، في الساحة وتحت الجدران التي سقطت، حين أخذت تفيق من الصدمة، وقفت بتثاقل واجمة بين الأنقاض تدور بنظراتها المغوشة بالمكان وهي تتحسس رأسها الذي بدا أنه مصاب.

لم يمضي على ذلك الحدث أقل أسبوعين كاملين حتى بان على بوران آثار الشفاء بعد أن بدأت ترتسم عليه علامات الذبول سريعا في الغرفة، لقد خف ألم رأسها معقبا ندبة بالرأس أخذت تزول رويدا رويدا، لقد أصبحت كومة من ألم

بزاوية واحدة لا تبرحها، لم يخفف من آلامها سوى صديقتها نينار التي أخذت تزورها بين حين وآخر، لقد فقدت هي الأخرى عملها وأصبح الكل في حالة حرجة، كانت مشدودة البال وسارحة حين رن جرس التلفون، عماد على الطرف الآخر يدعوها لسهرة جديدة في مركز بيت التراث، كانت فرصة لبوران أن تبتعد عن هذا الجو المشحون بالحزن، أرادت أن تترك أشياءها في الزحام وتستمتع بالهرب إلى عالم خاص بداخلها، ترسم له القوانين والاتجاهات والمعاني وأيضا الأهواء التي تحاول عبثا أن تلملم بقاياها، لم تتوانى عن قبول الدعوة لذلك لم تغادرها احاسيس نشوة المساء وهي تجلس في الصفوف الأمامية أمام المسرح تستمع إلى عماد وهو ينشد الأغاني تباعا، كانت المقطوعة الأخيرة التي عزفها عماد على آلة العود جميلة جدا ومؤثرة جدا لدرجة أن الحضور صفقوا له وقوفا، لقد أطلق اللحن في تلك الأمسية كالفراشات التي حلقت على امتداد التمني، تتطاير على ضياء هز عتمة المساء بكلمات بسيطة أخذت تتراقص بداخل انشودة تتمايل على زهور وحيدة نبتت على خشب الموانئ المهجورة، وكأنها ترتوي من رذاذ البحر نبض لازال يترقب مراكب الحنين بعيون تبصر السماء الواسعة على شاكلة حلم في سحابة تذوب في الأفق البعيد.

حين غمز لها عماد بعينه غمزة قد عرفت هي مغزاها بعد انتهاء السهرة مباشرة، كان لابد لها أن تسرع الخروج قبل أن يتزاحم عليه المعجبون ويضطروه إلى التأخر، وقفت عند الباب الخارجي تنتظره بشغف إلى أن أتى مسرعا وهو يحمل آلة العود حول صدره، اتجه نحوها وأمسك يدها بقوة، تعديا بعض الحضور والمعجبين إلى أن وصلا عند الباب الخارجي، قال لها وهما يجريان سويا في الشارع: (سوف أريك دمشق على طريقتي الخاصة)، كانا سعيدين جدا حين دخلا حي ساروجة بأصابع متشابكة، طالعتهم رائحة الياسمين التي أخذت تنبعث من المداخل الصغيرة الضيقة التي تخطفك من بين هدوء الناعمة وسكون أصوات العصافير بين لحظة وأخرى، البيوت المتقابلة تكاد تعانق بعضها البعض حتى تحسب أنك مخلوق من رحمها، تحس بحنان الجدران عندما يغمرك ظلالها وأنت على الطرقات الحجرية المرصوفة، الشرفات أيضا تكاد تصافح بعضها ببساطة ونعومة وكأنها عاشقة، التراث والأصالة، رائحة الماضي التي طغت في المكان لم تمنعهم من أخذ أنفاس عميقة و ملء رئتيهما بالصفاء، كأنهما كانا يسيران في الهواء حين دخلا عبر الأبواب المقوسة، اجتازا جامع الورد واتجها إلى داخل بيت تراثي قديم أفرغ للسائحين، طالعتهما في البداية بحيرة من ماء واسعة لا زالت على نضارتها، بمنتصفها

نافورة ذات طوابق ثلاثة كأنها الأواني، ينساب الماء من فوقها ليصب في حوض حجري قديم يجمع الماء بقلبه، بقرب الأسوار شجيرات لثمار النارنج، زرعت في حوش كبير ضم غرفا كثيرة ودكة وسلالما تؤدي إلى الطابق الثاني، صعدا بمرح إلى الأعلى وأخذتهما الممرات إلى أبواب غرف باردة بداخلها شرفات تطل على بيوت أثرية أخرى متراصفة، كان يلهث حين استوقفها قبالته، تطلع بها بعمق، تمعن بعينيها، أقترب منها وهمس في أذنها(عندما يستعر الشوق بداخلك من غير سبب فهذا أعده استهانة بي) مالبث وأن لثم شفتيها بقبلة سرت في المكان دفئا مضاعفا قبل أن تلج بأعماقها وتحس بوران بحرارتها، فقد كانت هذه قبلته اليتيمة التي لم تنساها في ذلك الوقت، أحست بأنها لحن من ألحانه.

كانت تريد أن تشكو له ضعفها وأحزانها بصوتها المتحشرج، لكنها عدلت عن ذلك حتى لا يفقدون هذه اللحظات السعيدة، لكن وجهها أثار نوعا من الشفقة في نفس عماد، لقد رأى دمعة تنساب بطيئة على خدها، أمال رأسها بكل هدوء على كتفه واحتضنها، أراد أن يثبت لها أنه موجود بقربها في الوقت المناسب، لكنها تنبهت أنها في أشد الحاجة لأن ترتمي وتستكين بين أحضانه في هذا الوقت بالذات، قالت له بشكل حالم وهي تنظر عبر النافذة إلى بقايا أضواء أخذت تنطفئ من بعيد " تصور عماد.... برغم الأحزان التي

هـي ليسـت مـن ضـمن قراراتـك، تكتشـف أن بعـدك عـن المعقـول هـو قـرار بحـد ذاتـه "حينهـا أخـذ عمـاد ينظـر اليهـا بصـمته المعتـاد ولـم يعلـق علـى الموقـف ولـو بكلمـة، لكنهـا أردفـت "عمـاد، لقـد فكـرت بالانتحـار"، كانـت تريـد أن تسـتفز بداخله الغيرة والحب، لكنه ضحك كثيرا وكأنه لـم يضحك من قبل، قال لها بصوت حان: (لست مجبورة على فعل ذلك فوجودنا في هذه الحياة قدر والمسير بها قرار) لكنها ردت عليه بصوت بدا حالما أو غير مقنع "أمر سخيف أن نتعمق في جدلية الاختيار لأننا سوف نتكلم عن شيء ليس له قيمة، لابد للاحساس ان يأخذ مكانه الصحيح " لكن عماد بادرها بسـؤال: (هـل كـان اختيـارك لـي قـرارا ؟)، حينهـا ردت عليـه بوران بكل برود وقالت "كان نوعا من أنواع الهروب"، لكنها كانت تكذب عليه حين قالت ذلك، فقد تدفق الحب بكامل حلته عندما وجدت عماد بطريقها، لقد هدم كل ما كانت تبنيه مـن أسـوار حولهـا ومـن تعنـت بالشـعور، لقـد كسـر القاعـدة الحسابية، لأنها وبلحظة ما لم تقو على مقاومة شخصيته، فقد سارت معه فوق شفاه الريح كأنشودة تتغير من حولها ملامح الضياع إلى نجاة هبطت مثل ظلال الغيوم على رحابة صدرها وأصبحت تلملـم المشـاعر المتسـكعة علـى أرصـفة الحرمـان وتودع كل عطشها بحياة عماد التي كانت مرهونة بالغموض، كان زاخرا بالمفاجآت دائما، أروع ما فيه تلك الألحان التي

كان يطلقها في كل مرة من آلة العود التي يحملها دائما معه، تتسربل عبر قنوات بصدرها بكل انسجام وتحط رحالها بعمق دفين، لقد باتت علاقتهما أيقونة تتعالى بعيدا عن ضجيج الرتابة التي تسكنها، فقد أسدلت الستار على أشيائها الجميلة التي كانت تحسبها جميلة وبدأت معه بعرض مسرحي جديد، لقد قارنت بينه وبين فراس في لحظة من التفاضل، وجدت إنهما وجهان لبطاقة المعايدة، وجه ترتسم به زهور بإطار وردي وكلمات منمقة تفرحك فوق سطح ناتئ مزركش، والوجه الآخر توجد فيه مساحة فارغة تستطيع أن تخط بيدك أسم من تريد أن ترسل له البطاقة، كان سرا يشغلها في كل ليلة، أكثر من شعور في نفس الوقت، يشغلها ويتقدم مع أول بادرة حنين لفراس وعماد في نفس اللحظة وفي نفس المخيلة، لما كل هذا بالرغم من كل المحاولات السيئة لنسيان أحدهما، هي لم تعرف ما سر هذا الاندفاع، هل يستطيع المرء أن يجمع بين قلبين في جسد واحد، أو إن هذا يحمل مسمى آخر غير الحب الذي لم تكتشفه بين أسرار قلبها الذي كاد أن يصبح محطة للنازحين، أراد عماد أن ينفذ الانغام عمليا بين الحارات والدروب القديمة التي ساروا بها وهما يسرحان النظرات، اتجها نحو سوق الحميدية ذي السقف الطويل المقوس، بعد أن عبراه اتجهت بهم الأقدام نحو سوق مدحت باشا الطويل ومن ثم عبرا شارع باب

الشرقي وولجا سوق البزورية حتى انتهى بهم الأمر إلى القناطر ومنطقة القنوات إلى أن وصلا بالقرب من القلعة التي ظلت صامدة إلى يوم انتحار الشام، تعدياها وسارا سويا نحو منطقة عين الفيجة، أرادا في ذلك اليوم أن ينسيا نفسيهما ويطلقا لروحهما العنان في الحارات النقية تحت ظلال الغيم الابيض.

الكرباج الثاني ـ شرناق

لم تكن الجبال التي عبرناها أقل قساوة من الجو الذي بدأ يزداد برودة كلما اقتربنا من السفوح، التعرجات الصخرية والطرق الملتوية حالت دون الوصول بشكل سريع إلى مدينة شرناق التركية التي سوف يتم بعدها الانطلاقة عبر سلسلة طويلة من المدن المتتالية حتى نصل إلى مدينة أزمير، الليل يلازمنا وأيضا ثلوج شهر كانون التي غطت كل شيء حولنا بسطح ثلجي ابيض شفاف بانت من تحت الصخور وبعض الإخضرارات، لم نتعود على هذه الأجواء القاسية التي يألفها الشعب الكردي، كان إصرار الأكراد على العيش بهذه المناطق التي تعج بالصراعات الدائرة بين حزب العمال الكردستاني والسلطات التركية هو حماية له، صموده صمود

الجبال التي يسكنونها، انتشروا في كل مكان مما جعل من رحلتنا أكثر صعوبة.

رفيق رحلتنا الدليل هافال الذي لم يأبه لقساوة الجو أخذ يحث البغال التي تقلنا بالإسراع عبر شريط وعر إلى قمة الجبل الذي يكاد يعانق الغيوم، فلم يكن هنالك طريق آخر للخلاص سوى سلسلة من الجبال غير منقطعة كان يجب أن نقطعها للوصول إلى مدينة شرناق التي من خلالها سوف نكمل المسير نحو الجزء الغربي من تركيا حيث الساحل، المقاتلون الأكراد كانوا يسيرون بقربنا خلف بعضهم البعض بخط متعرج يحملون السلاح على أكتافهم ويتغنون بأهازيج ثورية نسمعها كلما مررنا بهم ونحن في طريقنا، نسمع حتى صدى أصواتهم في المحيط وكأن صخور الجبال تتغنى معهم بالإضافة إلى المهرب هافال الذي أخذ يترنم بالأغنية:

جندي هابم جبي باشم بيرتانا دم

آفا سوسرو روسيرديفي بريرتانا

كانت نظرات الشفقة بادية على وجوههم عندما علمو أننا هاربون من العراق، لقد توقف كبيرهم وقال بصوته الحاد موجها حديثه إلى أبي (كان يجب عليكم البقاء والمقاومة) عندها تطلع به أبي وقال له بصوت رتيب لم يخف الألم من ورائه (لو أن لدينا مثل جبالكم لاحتمينا بها) ولكن قائدهم الذي أخذ يضحك وهو يتطلع بنا، رد بنفس صوته الحاد

(الثورة لا تحدها الأماكن إنما هي بالقلوب) حينها توقف أبي عن المسير وأنتظر لحظات يتأمل ما حوله بعيون فاحصة ثم قال له وهو يكاد يجزم بكلامه (وما نفع العاطفة حين يصبح الوطن آلة للقتل يفتكون بالأجساد المعرضة دائما للقتل، أنه الجنوب يا صاحبي).

الجو لا يُحتمل، برودة تحاوطنا، عندما تهب الرياح يتحول كل ما حولنا الى صقيع، أخذت أختي اصرار تسعل من شدة البرد، كانت أول ضحية لهذا الجو القاسي، لقد اشتد عليها المرض واصبحت تعاني يوما بعد يوم مما اضطرنا إلى أن نتوقف أكثر من مرة في القرى الواقعة عبر الطريق الصخري، نتزود ببعض الدفء ثم نكمل المسير، تحملت أمي كل شيء كعادتها وأخذت تداري أخواتي الاثنتين بكل صبر، أما أبي فقد أخذ يسير أمامنا صامتا بالرغم من تشقق حذائه.

فراس حسين القاسم– كانون الثاني ٢٠٠٣

ترى أين فراس الآن، انقطعت أخباره منذ أن غادر خارج العراق، لم تستدل بوران على وجهته بالرغم من محاولاتها العديدة في معرفة مكان وجوده ولكن كلها باءت بالفشل، ربما يكون في العراق الآن أو في أي موطن من العالم،

أخذت تفكر قليلا فيما إذا أرادت أن تبحث عنه وهي تجلس قرب سماح في الصالة، لكنها عدلت عن كل أفكارها لأنها اعتبرت ذلك شبه مستحيل، ربما سوف يأتيها هو من دون أن تذهب إليه في صدفة أخرى لم تحسب لها حساب وربما لن تجده أبدا، لماذا لم يبحث عنها هو، أليس هناك عهد بينهما، كان يجب عليه أن يجدها في سرعة قياسية ولكن ما أن تنبهت لذلك حتى ايقنت أن فراس قد نسيها، ارادت ان تلوذ بالكتاب الذي اصبح لا يفارقها، اخذت تفتح صفحاته بهدوء، ولكن قبل أن تستمر في القراءة سمعت صوت أبيها العالي يقول: (هذا يكفي، سوف نعود إلى العراق) قال أبوها ذلك واستدار نحو بوران وسماح اللتين كانتا تجلسان بالقرب منه، لم تندهشا إلى هذا القرار المفاجئ، بل كانتا أشد تحمسا إلى هذا القرار ولكن بوران تساءلت بضيق " كيف ؟" حينها تطلع أبوها عبر الشرفة إلى السماء التي بدأت تعتم وقال من دون أن يدير ناظريه نحوها: (سوف نتخذ الطريق البري رغم خطورته... لا يوجد هناك حل آخر) وأردف حين لم يجد أي اعتراض: (لابد أن أعود).

كان قرار العودة إلى بغداد قد وافق عليه الجميع من دون أي نقاش أو جدال، أخيرا سوف يعودون إلى بغداد اذا، هكذا مضى الأمر حين وصلوا إلى ما بعد النظرات التي تبادلوها بصمت يهيئوا أنفسهم للمرحلة القادمة، لا يوجد شيء هنا

يستحق وجودهم، لقد انتهت اللعبة وأصبح الكل خاسرا، يجمعهم شيء مشترك واحد هو العذاب ألذي طالهم كلهم على حد سواء ولم يعد يفرق بينهم، ربما سوف يجدونه أمامهم هناك أيضا في بغداد، ولكن بالرغم من ذلك فقد استبد بهم الحنين، كان عليهم أن يعودوا ويخلفوا وراءهم أيام الغربة التي كانت أشد ضراوة وخذلان، كل ما عليهم أن يذهبوا إلى حفل الوداع الأخير بثيابهم الرثة، فقد تكون وحدها شواهد العودة الى الوطن تميل نحو السلام، أمسية عماد الأخيرة في بيت التراث كانت من النوع الحزين، أحست بوران كما لو أنه أخذ يعزف على آلة العود فوق سطح قمر يهيئ الأنغام للمراكب المغادرة نحو الفضاء على بجسد مبلل بالألحان، أخذ يعزف مغمض العينين طوال السهرة في مركز بيت التراث بعد أن علم برحيل بوران، عندما انتهى من معزوفته فتح عينيه ليجد مكانها فارغا، قام واتجه إلى الخارج بسرعة، وجدها تسير لوحدها عبر الشارع، حين لحقها أمسك بيدها وأدارها نحوه وقال بشيء من الحدة: (هكذا يكون الوداع) لكنها تطلعت بعينيه المبللتين وقالت له بعد أن أرادت أن تهيء لأمنيتها الأخيرة شيئا معقولا "لم احتمل هذه اللحظات " ثم أخذت تمسح الدموع التي نزلت عبر تعرجات وجهه الذي بدا أكثر ذبولا وهو منكس الرأس ولكن ما لبث وأن احتضنها وهو يصدر صوتا

أشبه بالأنين، سمعته بوران حين دس رأسه في صدرها من دون أن يتكلم، لقد علمت حينها أن للأرواح الدامية حكاية في النبض الحي، يأتي عبر مكامن من الغبطة أحيانا، وفي أحيان أخرى يدرك جيدا إيقاع القلب المصغي لنشيد الوداع، حينها تنهمر الدموع كالنهر الذي لا تحده السدود، يكاد يفيض على ضفتين من النجوى، ضفة الرجاء وضفة البقاء لكنها حين تفيض أكثر من اللازم، قد تذهب إلى غير موضع فتهدم بيوت الطين المبنية في القلوب، بعد أن سادت لحظات من الصمت قالت بوران وهي تكمل سيرها عبر الشارع "أحببت أن تكون أشد عنفوانا من الألحان " لكن عماد رد عليها قائلا: (كنت مصرا على عدم لمس الجسد) وأردف بعد رأى منها عدم القناعة: (توقعت أنه غير مدنس، كنت أريد أن أثبت أن للحب بكاره)، حينها بادرته بقولها الذي لم يثير أي ذهول على وجهه الذي لم تتغير ملامحه " لقد تعديت مرحلة الطهر منذ زمن بعيد، للعهر أيضا بكاره، ولكن أنت تكذب "، حينها ادار وجهه عنها وقال بنبرة حزينة: (أنا نصف رجل)، لقد توقعت بوران ذلك ووضعته من بين كل الاحتمالات التي كانت تراودها، لكنها لم تصدق أن يكون هذا الرجل العفي لا يقدر أن يمارس حياته بشكل طبيعي كما الرجال الآخرين الذين لن يصمدوا امام فتنتها، حين أخذت تتطلع بوجهه وجدت أنه قد افضى سرا كان يحتبس في داخله مدة

طويلة، لكنه قال وهو منكس الرأس: (بوران تذكريني حين تسمعي النغمات) فما كان منها الا ان قالت "وداعا عماد".

صديقتها السورية نينار اكتفت بأن عانقتها وهي تقول: (أهتمي بنفسك ولا تنظري إلى الخلف)، بعدها ودعتها سريعا وهي تحبس دموعها، بينما الحاج وادي، توسل بأن لا يرحلوا، لم يحتمل غيابهم عن حياته بعد أن كانوا جيرانا زمنا طويلا، سوف يعود إلى وحدته من جديد ويودع الاحبة من جديد، غاب عنهم فترة وجيزة عندما سمع الخبر، جاءهم وهو يجر خلفه حقيبتين كبيرتين ووضعه أمامهم، عندما فتحهما قال: (خذوا كل ما شئتم من المال) لكنهم أخذوا ينظرون اليه بعين الشفقة، لم يعد للأوراق النقدية التي كان يحتفظ بها أي قيمة، أصبحت مجرد تذكار تحمل صورة الرئيس، قالت له بوران قبل الوداع الأخير" لقد تأخرت كثيرا حاج وادي"، عندما رأى الحاج وادي السيارة التي أقلتهم تتحرك بهم وتختفي عنه بعيدا، لوّح لهم بيده عبر نافذة شقته، مسح دمعته التي نزلت رغما عنه ورمى خلفهم بمكعبات الزهر للعبة الطاولة.

هذا كل ما في الأمر، كلمات من وداع وذكريات تتعثر أحداثها برحيل الخطوات، سوف تنساها بوران بعد أن تخطو بأرجلها خارج الحدود، كيف لا وهي أول المهنئين بعرس البعاد، تودع ظلها بالطرف البعيد، تدخل وترحل من باب

الذاكرة دون استئذان، يأخذها موج البحر إلى ساحل آخر يعانق حافة قاربها المرير، ويبقى وهج المشاعل كدليل وجودها بضفة نهر التمني الذي يتعالى بأنفاس القصيدة والنغم، سوف تتذكر وجوها كانت تمر كومضة عند منعطفات حرجة في الفؤاد ووجوه موجودة في حلم عنيد، تبرر وجودهم في حياتها بأنهم بالونات ملونة لا تطير في الهواء، عالقة بقلبها بخيوط من أطياف، لكنها تفقعهم بدبوس البعاد، فتصدر فرقعة في القلوب، تفاصيل الوجوه التي ودعتهم لا تمت لها بصلة، لكنها تأسرهم بأسوار ضبابية بليل يمهد لها الآلام من جديد، تتبعها أصوات الريح التي أخذت تزداد بغبار الغائبين، بالأمس كانت بوران مشروع حب لعماد مفعم بحرارة من اللقاءات المفتعلة، فوق ليالي التمني، رمت بكل ثقل جسدها في سجن لوعة وجوده على الأسلاك الشائكة، أما الآن، لسوء الحظ، نخب من الخذلان قد هزمها بآخر حفلات الوداع، هذا الشوق ربما يذهب نحو شطآن أخرى، ينهل من ذاكرة المرافئ الف الف حكاية ولا يتقبل رهان الجزر عند اطراف السواحل البكر، تحاول بوران أن تركل المألوف بشتات صعب، تترقب قيد شكر وتحية حين لا تلتفت بعد اليوم إلى اللهاث المتوارث خلف الأمنيات وحين يتقبلها الآخرون على شكل حلة من صبر لا تتمزق، " سوف أتغير "، قالت ذلك في قرارة نفسها أكثر من مئة مرة، أرادت

أن تتغير بشكل حقيقي وتغير كل شيء في حياتها، سوف لن تتطلع إلى الوراء بعد الآن، سوف تسترجع شيئا من بكارة الرضا وتترك كل الذكريات خلف الحدود وتعود إلى نفسها، عندما فتحوا الباب لها كي ترحل، وقفت في المنتصف تبكي الحرمان ولم تشأ الخروج وحيدة تحت وابل من الحنين، أخذ الرجل الأرنب يتطلع بها وحيدا في الدرب وهي تمسك بيد أختها وأبيها والابن الصغير، سارت ولم تلتفت إلى الوراء، فقد تركت كل تاريخها الذي مضى خلفها واتجهت إلى الحدود التي تفصلها عن السابق " الوداع...لكم مني اجمل التحايا".

الفصل الثاني

قال: إن هي الا مجسات تدفع بنا إلى حتف لا نعلم نهاية قلقه... ولكن بالرغم من ذلك نتبع آثار أقدام القادم.

قالت: هو ذاك... غادر مع من سبقك واترك طيفك يواسي ذاكرتي فسوف الحق بك بعد أن أغلق نافذة الرّوح وأتبع مراكب اللوعة.

قال: سوف أكون هناك قرب الاختلاف.

قالت: وهج الذاكرة يرسم على الرّمل دمُوع رهان بقائها.

السماء، لازالت كالذهن الغافي على لوحة من مساحة شبه رمادية، تلال من الرمال بدت مجحفة، كأنها أورام على سطحها الناشف، مساحات واسعة غير صالحة للحياة، وحده الغيم، أخذ يعكس ظلا مملا على رمال الصحراء الصفراء الشاسعة، سرعان ما يزول وينسحب ببطء نحو البعيد ليفضح ما لهذه الصحراء من وجه بائس يعززه وجه الخواء الذي لم يحييه المطر منذ وقت طويل، لقد بدا الانطباع الأول أقل ما يمكن أن يطلق عليه كلمة مقبول، لقد عبروا الحدود من الناحية الغربية برتل من السيارات كانوا به في المنتصف، يسير بسرعة على الشارع الأسفلتي السريع الذي بدا كخيط أسود غير مستقيم، لا ينتهي عند نقطة محددة، يفصل جهتين متماثلتين من المساحات القاحلة التي تقبع على كل جانب منه بيوت من الطابوق تناثرت وكأنها البثور على جلد مدبوغ، أقبلت عليهم حرارة غير معهودة، أضفت على أنفسهم شيئا من الضيق وهم يسيرون بكل سرعتهم تحت شمس الظهيرة التي بدت وكأنها تترصدهم كلما تقدموا نحو الأفق الذي ليس له حدود في صحراء لم تتسم بالحياة أو النجاة، لازالت سماح صامتة منذ أن خرجوا من الحدود، جلست قرب النافذة بصمت، فيما جلس ابنها الصغير في المنتصف بينها وبين بوران، لا تنظر إلى شيء معين في الخارج، أصبحت

خاوية من كل شيء، تحاول أن تسترجع الأحداث التي تشابكت في أعماق تربة يابسة في داخلها، تخرج منها قضبان طويلة، تمتد وترتفع إلى عنان السماء حتى تعبر المدى ولا تصل إلى مستقر لها فتجعلها أسيرة ذكرياتها التي دائما ما تحاول أن تطبق على أحداثها الأجفان بقوة وتعصر الدمع الذي أصبح لا يفارق محجر عينيها، كانت فيما يبدو أكثر الخاسرين، أما بوران التي اخذت تنظر عبر نافذة السيارة بشرود، أصبحت على قدر فاضح من الاهمال واللامبالاة، شعرها أخذ يتطاير عبر نافذة السيارة المفتوحة وعيناها المسلطة على رمال الصحراء الشاسعة عكست ما لهذه الرمال من سطوة على نفسها، ينتابها شعور عميق من التصحر الخاوي والذي كان في السابق من ضمن مقتنياتها اذ أنها سوف تدخل المدينة على هيئة انسانة مهلهلة قد خسرت كل شيء واستسلمت إلى صحرائها التي لم يلتفت اليها أحد في وقت الرحلة الموبوءة، لقد أسرجت للأطياف صورا غير معلنة، كادت أن تسابق بها الزمن المغوش بداخل ذاكرتها، وجوه كثيرة أخذت تمر أمام ناظريها، تطايرت كما الأوراق المتساقطة على مهل أمام عينيها، تذكرت أمها في آخر أيامها قبل أن تفارق الحياة، لقد كانت بوران تراقبها بعد أخذت القسط الأكبر من العذاب، لبست السواد مبكرا وأصبحت مثقلة بالنذور التي لم توفيها قط، كان حزنها المتوارث قد

تعدى حدود الكتمان المؤجل عبر ثقب صغير من البوح على أنقاض عينيها التي تفضحها خرائط الدموع ليصبح الألم بعد ذلك فيض جبل، لم تجيد أمها كتم الصراخ على الأطياف التي فارقتها في كل ليلة، إخوانها وأهلها الذين أخذتهم الحروب، أصبحت ترنيمات الألم والمعاناة متداولة على لسانها في آخر أيامها، تركن إلى حياكة المناديل القطنية الملونة والمزركشة الأطراف، بعد أن تتمها، تحاول أن تمسح بها غبار الأيام عن وجوه صور الراحلين على الجدران ذات الخط الأسود المائل في لحظات من الشرود، تتمعن في الوجوه الشاحبة، يلازمها الانكسار بلحظات مرغمة ثم تعود فيما بعد لتغسل المناديل بآنية من الفخار وتشرب ماءها، هذا ما كان يهون عليها غليان الحنين بداخلها حين تتذكر كل الوجوه الراحلة، لقد تطلعت بوران بكل الوجوه التي أخذت تتخاطف من خلف الزجاج، لم تجد سوى شخصية حية واحدة تأتي من الماضي وتنتظرها عند قارعة الطريق، تعيد لها نصف عقلها المرتبك بين افكارها أو تزيح عنها شعورها بالغبن في وقت حرج، فقد كاد اليأس أن يرمي بها إلى فتات الشجون في وقت من الأوقات لولا خبر وجود ابن عمتها "أثير" بانتظارهم في بغداد، تذكرت ذلك الشاب ذا الوجه الخشن والعيون الثاقبة، لقد تربى معها منذ الصغر فكان كما الأخ الوحيد لها فيما بعد بالرغم أنها كانت تكبره بسبع

سنوات، تذكرت أنه نجا من الموت بأعجوبة عند ولادته بسبب لم يكن له الذنب الأكبر به سوى أنه جاء إلى الحياة بطريقة غير شرعية، عمتها سارونه التي اجهز عليها ابوها بعد ولادته، كانت تتوسل بأن لا يقتلوه، حين أتو به إلى الجد ملفوفا بقماشة قطنية بيضاء بليل ماطر من شهر آذار، حركاته البطيئة وبراءته الطفولية حالت دون أن يرمي به الجد خارج البيت أو يودعه أحد أبواب المساجد في ذلك البرد القارص، ينهي بذلك جريمة أبنته سارونه التي ما كان الاجدر بها أن تنصاع إلى نداء الحب الذي أودى بها إلى الهرب مع عشيقها نمر الغاوي الذي تخلى عنها لتعود بعد ذلك الى حتفها، لقد تطلعت عينا الجد في ذلك الوقت بعيني أثير اللامعتين وإلى وجهه البريْ الذي بدا أكثر احمرارا من وجه أمه، تحركت به نزعة الرأفة والرحمة بداخله في لحظة ضعف وبوقت مناسب أسعفته من الهلاك، تلفظ الجد بكلمات كان من الواجب أن لا يتكلم بها في ذلك الوقت المتأزم على مرأى ومسمع من جميع أفراد العائلة الذين أحاطوا جسده بنصف دائرة وتركوا مجالا لمدفأة المنزل تنشر نوعا من الدفء في المكان (قد تكتب لهذا الطفل الحياة ولكنني أكاد أموت من الغيظ) قال الجد ذلك، حمله بكلتا يديه ورفعه عاليا، اتجه به إلى نافذة الصالة المطلة على البستان، ولأول مرة منذ أن فقد أبنته ذهل الحضور بتساقط دموعه دون أن يداريها أو يتفادى نظرات

الشفقة التي كانت تحيط به، فقد كان حزنه على فقدان ابنته أكبر وأعمق من أن يستر مشاعره التي فاضت وطبعت على يديه رعشات ووهن وهو يستسلم للريح الباردة التي هبت بكل قوة وصفعت أبواب النافذة على الحائط حتى كادت أن تكسر الزجاج مما اثارت هذه الحادثة الدهشة والغرابة على وجوه أسرته الذين تطلعوا بريبة إلى السماء عبر النافذة وهي تصدر الرعد والبرق والمطر في وقت واحد، عززتها الرياح التي كادت أن تدفع بجسد العجوز إلى الخلف لولا أنه كان صلبا جلدا واجهها بكل ثبات، لكن الموقف هذا لم يثن الجد عن الصراخ في وجه الريح وهو يرفع الطفل عاليا ويصيح بصوت عال: (أي ذبيح هذا في حضرة الرب؟)، منذ ذلك الوقت، انطوت العائلة على نفسها مدة طويلة بعد أن ثارت حولهم الشكوك باختفاء ابنتهم سارونه، مما اضطرهم الي التعتيم والسرية التامة، أخذوا يحاصرون أنفسهم بالغموض ويتركون الأبواب موصده قبل الغروب حتى مطلع الشمس، وفي بعض الأحيان حتى إلى ساعات قريبة لمنتصف النهار، حتى أن رائحة بخور الياون التي كانوا يشعلونها على مدار اليوم ليداروا بها رائحة جثة سارونه التي بدأت تخرج من قبرها تحت الشجرة، لم تمنع الرائحة العفنة التي تكاد تزكم الأنوف من السريان في المكان، آثار الغموض المريب والتحركات غير المألوفة للعائلة المعتمة

إلى أن أستفز الفضول بداخل الأهالي الذين ازدادت لديهم حالة من التقصي عن أحوالهم، مما أثار لغطا كبيرا يشير إلى أن الجد هو من وراء اختفاء ابنته، لكنه لم يترك ذلك الأمر يتفاقم وصرح لكل من سأل عن ابنته حين قال: (لقد رحلت الى خارج البلاد للدراسة).

تذكرت بوران أثير حين بدأ يكبر، أخذ يحبو بينهم في الدار سعيدا، كان مشاكسا منذ الصغر يختلق المواقف والأزمات ببراءة طفولة غير متجانسة بين حركته النشيطة وطبعه الهادئ، أخذ يربو ويكبر معهم في البيت أمام عينيها وأصبح واحدا لا يتجزأ من العائلة التي أصبحت بمأمن من المشاكل، تذكرت ذلك اليوم حين وجدوه يوما قد زحف واتجه إلى قبر أمه تحت الشجرة في الباحة الخلفية، أخذ يبكي هناك طويلا وكأنه يعرف من تحت الأرض، في كل يوم يذهب الى نفس المكان والبكاء، مما أدى بأن يستشيط الجد غضبا لذلك الموقف، قال وهو يقبض على يديه (سوف أدفنها بعيدا وأتخلص من هذا العار) ما لبث ان أخرج بقايا جثة سارونه ودفنها بعيدا في البراري وساوى قبرها بالأرض ثم عاد منهكا ليجلس وحده بغرفته ويغلق عليه الباب أيام عديدة لم يكلم أحدا، ولكن في أحدى الليالي التي علا بها قمر كان يحمل على وجهه بعض البقع الحمراء، أحس الشيخ الكبير بأن هناك حركة غريبة في البيت، عندما خرج ووقف

في الخارج وجد شبح جسد ابنته تيسير في باحة البيت المظلمة بخطوات ثقيلة حزينة منهكه وخلفها خيط من الدم يسيل على الأرض ينبت سكاكينا قد لمعت تحت ضوء القمر ثم بعد ذلك يختفي، تكرر ذلك لاحقا أكثر من مرة في ساعات الليل الأخيرة بعد أن أخذ الجد يسمع صوت شبح ابنته هذه المرة يطرق على الأبواب والنوافذ من الخارج وعيناه مسلطة على داخل البيت ينظر عبر النافذة إلى مكان أثير، يصدر نشيجا من الآنين بدا وكأنه صوت ممطوط لمرأة تنازع الموت في آخر لحظات حياتها، مما أثار في نفسه الرعب والفزع من ذلك الصوت المزعج في كل ليلة مما جعله لا ينام الا لساعات قليلة ثم يفز على نفس الصوت الذي زاد من وجله وخوفه، فما كان منه الا أن أخرج كل اغراض سارونه واحرقها قرب قبرها بليلة بكى فيها لوحده وهو يرى النار التي أخذت تلتهم أشياء ابنته المدللة ثم بعد ذلك وجدوه في الصباح ميتا.

كانت الأصوات التي سمعتها بوران كفيلة بإيقاظها من غفوتها، انتبهت أنهم اقتربوا على أول سيطرات الطرق الخارجية، وفي لحظة عفوية شدت على رأسها الشال واحكمت ازرار قميصها واستعدت للتفتيش، اربع سيارات كانت قد توقفت طويلا قبل أن تتحرك بشكل بطيء نحو الحاجز الحديدي، كان كل شيء يسير بخوف وارتباك، لقد

سمعت كثيرا عن التجمعات المسلحة التي يشكلها أشخاص على الطرقات الخارجية بوجوه غير متداولة ولهجات متعددة، أشخاص بلباس من قطعتين الجزء الاعلى طويل يصل إلى حد الركبتين فيما الجزء الأسفل الذي يختفي نصفه يكون عبارة عن سروال فضفاض، يتسمون بالشعور المنكوشة واللحى الطويلة والوجوه المتجهمة، يحملون اسلحة رشاشة لا تفارقهم أبدا جاهزة للإطلاق في أية لحظة، يسيرون بشكل متسارع حين يقترب نحوهم أحد، سوف يعملون على إنزال الركاب من جميع السيارات ويقتادونهم خلف التل الترابي ويتم فرز الرجال والأطفال حيث يتم ذبحهم بسكين حادة مع صيحات: (الله أكبر)، أما النساء فيتم اغتصابهن بوحشية قبل أن يطلقوا النار عليهن وينهوا بذلك حفلة صغيرة للموت الرخيص، لقد أصبح العدول عن التقدم فكرة غير صائبة، فقد استسلمت كل السيارات للتفتيش أو إلى المصير الخفي المرتقب، عجلات السيارات أخذت تسير بشكل بطيء على الشارع الأسفلتي مما زاد من حالة الترقب التي يحفها الخوف الذي ارتسم على الوجوه، وبلحظة من التوجس، أدخل أحدهم رأسه عبر نافذة السيارة وبشكل مفاجئ أخذ يتفحص الموجودين الذين جفلوا من موقفه، لم يتحدث بلكنة غريبة، لم يكن لديه لحية طويلة وشعر منكوش طويل ولم يكن يلبس الرداء الأفغاني بل كان بلباس عسكري وتكلم

بلهجة عراقية: (هوياتكم)، بعد أن تفحص الجندي كل المستمسكات أرجعها اليهم وقال بشدة محذرا بأن هنالك عبوات ناسفة مزروعة على الطريق، يجب عليهم أن يسلكوا المسار الترابي لبضع كيلو مترات حتى يكونوا بأمان وبعدها يستقلوا الشارع الرئيسي الذي انطلقت به كل السيارات بسرعة وكأنها تفر من الموت، كان الجميع على درجة كبيرة من التعب عندما وصلوا إلى أطراف بغداد في ساعات العصر الأولى، استقبلتهم العاصمة بشيء من الفتور، الشوارع والبيوت والعمارات لازالت على حالها، لم يتغير منها شيء، أسلاك متشابكة وزحام خانق وغبار ومناظر لبيوت لم تتغير واجهاتها منذ انتهاء الحرب، الناس تتزاحم في كل مكان والقطط والكلاب السائبة أيضا، عمارات مغلفة بألواح اسمنتية تقف حولها سيارات عسكرية مصفحة وعساكر في كل مكان يحملون الأسلحة الرشاشة، كل شيء كان يوحي بالترقب والتأهب إلى معركة ما قادمة، هل هي نهاية الرحلة أم بداية الخراب، هل أصرت بوران على بلوغ المدينة الخاطئة أم خطواتها أودت بها إلى الوراء، انتابتها لحظات من التيه تلفها خيوط متشابكة تأخذها إلى احتمالات مبهمة وغير واضحة المعالم للقادم الذي لابد أن تبدأ معه من الصفر المترهل والمندس بين عمليات حسابية لم تشأ أن تشغل فكرها بها الآن وهي تقترب من البيت، تفاجئت بوران بوجود

الرجل الأرنب الذي أطل برأسه المقلوب من اعلى قمرة السيارة وهو يضرب بيده على الزجاج ثم يقول بصوت لم تسمعه واضحا: (لقد وصلنا)، حينها أخذت بوران تنظر إلى البيت الذي بدا ساكنا من البعيد، منزل من الطراز الحديث ذو طابقين يقع على مساحة واسعة من الأرض له واجهة خرسانية عريضة ترفعها اعمدة غلفت بالمرمر الابيض وباب كبير من خشب البلوط يعلوه زخرفة اسلامية مقوسة، ثمة ضربة مدفع ثلمت جزء من جدار السطح، لقد وصلوا الى بيت الذكريات، كانت العمة اصيلة التي استقبلتهم بفرح غامر وسعادة لا توصف على علم مسبق بقدومهم، حين أقبلوا عليها ضمتهم إلى صدرها واحدا واحدا وهي تبكي، كان أثير يقف خلفها وهو ينظر لهم بعينين كادتا أن تقفز إلى الخارج من شدة الفرح، حين اقتربت بوران منه قال لها بصوت فرح:(لا مفر من الأحضان) بدورها بادلته الفرحة وقالت بصوت مسموع بعد أن عانقته "دعني ارى ماذا احدثت بعد الغياب".

أحبت بوران أن ترى كل شيء في المنزل لذا انطلقت واخذت تعانق كل ركن وكل زاوية به بعيون شبه دامعة، أحست بأن ذكرياتها تناديها الى ضم كل جزء من أجزاء البيت، وكأنها تعانق كل شيء أمامها، رائحة المكان تجذبها إلى طمأنينة ألمت بها فجأة، وكأنها تشم رائحة البخور الذي كانت تشعله أمها دائما في كل ليلة لطرد الأرواح الشريرة

الخفية التي أحتسب أنها تسكنها على الدوام، هنا كانت تجلس ساعات العصر مع أمها تحوك مناديل القطن، هناك كانت تنام حين تغفو تحت شجرة السدرة وهنا كانت تأكل ثمرة الكنار التي تسقطها الشجرة كل يوم من على الأغصان، في كل زاوية كانت لها ذكريات ومواقف، كانت تريد أن ترى تلك الشابة اليافعة أمامها وهي تسير على العشب الأخضر الذي دائما ما يبعث بنفسها الطمأنينة ولكن لم يعد هناك عشب اخضر بأي مكان من أجزاء الباحة الخلفية، فقط كان هنا عشب متكسر يميل الى الاصفرار في الركن الذي كان يقع به قن للدجاج وأقفاص للحمام البيتي، لا شيء من ذكرياتها باق في محله، حتى الرسوم التي كانت تخطها على السور قد اختفت، ماضيها الجميل بقي حبيسا في عقلها وفؤادها المزدحمين، لقد احتل المكان زحام آخر من الدمار والبعثرة و أكداس من الطابوق المتناثر وأخشاب مركونة على السور وبعض المخلفات الورقية وأوراق الأشجار المتناثرة التي أخذت جزءا كبير من المساحة مما اثار حالة من الاحباط بنفسها، تمنت بوران بأن تعود وتجلس على خشبة مرجوحتها التي كانت تتدلى من غصن الشجرة الوحيدة عن طريق حبلين متينين، لكن لم تجدها بل لم تجد الغصن المتين مكانه، ذكرياتها الجميلة قصت بمنشار ايضا، انتبهت الى مخزن الحبوب، المكان الذي كان يذكرها بخطيئتها مع

فراس، الم بها حزن بالغ مشحون بالندم، أشاحت بناظريها على عجل واخذت تدور وتدور، بالرغم من ذلك سارت حتى وصلت الى منتصف الحديقة، تمشي وتمشي بمحاذاة السور تلمس بيدها الطابوق القديم الى أن أحست بالرجل الأرنب يقف بصفها بعد أن جاء من خلف البيت وهو يمرر ناظريه في المكان ثم قال: (حين يبعدك القدر عن اشيائك الجميلة فلا احد يهمه امر نهايتها).

كانوا في حفاوة بالغة في الأيام الأولى لوصولهم، أخذت العمة أصيلة وأثير يحتفون بهم في كل يوم ويعدون لهم الأكلات العراقية المتعددة من كل الأصناف، يتسامرون في حديقة المنزل وهم يجلسون حلقة دائرية حول مأدبة الشاي العراقي في الليالي الدافئة، مضى على وجودهم أكثر من اسبوع وهم على هذا الحال من الحفاوة والفرح الذي أحست بوران أنه أخذ يدخل على نفسها السعادة للمرة الأولى بعد أن خرجوا من الشام، يجملها بنوع جديد من الحياة، حتى الرجل الأرنب بدا فرحا هو الآخر، أخذ يتنطط في حديقة البيت، يمرح مع ابن اختها سماح التي لم يتغير مزاجها، فقد ظلت على نفس حالة الصمت، أما أبوها فقد أخذ يهيئ غرفة المكتب منذ اليوم الأول، عمل على ترتيبها بكل إتقان وأصبح لا يفارقها إلا لساعات النوم القليلة، لاحقا أخذ كل شيء يسير عاديا ورتيبا، حركة البيت العادية التي يتخللها

بعض ضجيج النهار والجمود والهدوء في أغلب الليالي التي مضت سريعا على بوران التي اختارت غرفة نومها في الطابق الثاني وهي في كل مرة لا يدخل إلى جفنيها النوم وتغمض عينيها عليه بسهولة، أيام لم تحمل الجديد برغم وجود أثير الذي كان يحاول جاهدا أن يعطيها نوعا من المرح والحركة، حتى لا تشعر بالوحدة والملل، ولكنها دائما ما تعود إلى مخدعها تساورها أفكار عديدة من ضمنها وجود كتاب ليل المنافي بين يديها.

الكرباح الثالث ـ مدينة قونية التركية

وصلنا إلى أكبر المدن التركية، مدينة قونية ذات الطبيعة الخلابة، صوفية المكان تأخذك إلى حيث تجليات روحية تستحضر بها شخصيات كان لها الأثر العميق بتاريخ ميلاد المعرفة والاتجاه إلى روح الحقيقة والفناء بها، تكاد تسمع تجليات جلال الدين الرومي في الفضاء الرحب، عاصمة السلاجقة العظيمة وموطن من مواطن بداية التاريخ الذي يتطاير بسحر المكان وينقش على الأحجار جمال الأناضول الاستثنائي، لقد مررنا بهدوء في المدينة التي رأينا من خلالها المساجد الأثرية والقلاع والميادين الواسعة وشواهد الماضي إلى أن وصلنا إلى موطن البحيرات التي زخرت بالنباتات

وأشجار الصفصاف ومساحات من الخضرة تمتد كعمق حالم على الأرض إلى أن تصل إلى حافات الجبال التي تحيط بالمدينة، الليل يدس بداخله الأسرار، يصارعك الحب في موسيقى تنبعث من تواردات تتغلغل في الأعماق وتحط رحالها بين أعماق الذات.

كان المهرب هافال الذي يرافقنا قد دبر لنا كل شيء وعمل على إخفائنا عن أعين السلطات، متمرسا ذكيا ونشيطا، اسكننا في فندق بعيدا عن العمران، يبعد خمسة كيلومترات تقريبا عن مركز المدينة، عمل على مداراتنا وراحتنا، أخذ يجلب لنا أصناف الطعام، من ضمنها المعجنات التي يطلق عليها التليتمه مع اللبن ذي الرغوة الطافحة وأيضا حلوة الهوشميره المصنوعة من الزبدة والدقيق والسكر.

لم أنم تلك الليلة وأنا أستمع إلى صوت الطبيعة التي تصلني عن طريق تغريدات الطيور في الوقت الذي لم تنم أختي أصرار طوال الليل، فقد أخذت تسعل بين حين وآخر، حتى أن الدم أخذ يخرج من فمها قطعا صغيرة، مما دعانا إلى أن نجلب لها دكتورا يخفف عنها الألم، فلم تكن تتحمل المرض الذي ألم بها وهي تحاول أن تقاومه، ولكن يبدو أنه تفاقم عليها واصبح تحمله اكبر من طاقتها، لم تتمالك نفسها حين أخذت تسعل طوال الطريق المؤدي إلى مدينة قونية إلى أن وصلنا، بدا الأمر أكثر صعوبة مما تصورنا حين اتى

الطبيب الذي تفحص الوجوه قبل أن يبدأ بفحص اختي اصرار بصمت بعدها أخذ يكتب العلاجات التي أصر على أن تأخذها بانتظام، أراد أن يطمئننا من خلال نظراته الودودة، لكنه ودعنا من دون أن يتكلم أو يأخذ قيمة الفحوصات، كانت ليلة عصيبة على جميع أفراد الأسرة، كنا جميعا نجلس حول جسد إصرار الذي بدا نحيلا أكثر من ذي قبل، لم ننم حينها حتى الصباح، كانت ليلة عصيبة علينا جميعا ونحن نحاول أن نبعدها عن وضعها المتأزم.

فراس حسين القاسم - كانون الثاني ٢٠٠٣

في مساء يوم قائض، أصر أثير على أخذ بوران معه إلى السوق والتفرج على عالم بغداد الجديدة بعد التحرير، كانت هذه المرة الأولى التي تخرج بها من البيت بعد قدومها من السفر، عندما جلست قرب أثير في المقعد الأمامي للسيارة ضغطت على أزرار جهاز التسجيل الذي أصدر أغنية أخذت تصفق معها وتتمايل برأسها، فيما جلس الرجل الأرنب في الكرسي الخلفي، أشبك يديه خلف رأسه ووضع رجلا على رجل وأخذ يتطلع هو الآخر بشيء من البرود عبر زجاج سيارة أثير القديمة التي استقلوها نحو مركز المدينة، قالت له بكل حماسة: (دعنا نذهب إلى شارع الرشيد)، حينها ضغط

أثير على دواسة البنزين، أخذ يقود بسرعة جنونية عبر الشوارع وهو يمسك بالمقود بكل قوة إلى أن وصلوا إلى منطقة باب المعظم ومن ثم إلى منطقة سلطان علي التي عبروها ببطء، فقد كان الزحام شديدا، بعدها دخلوا شارع الرشيد الذي يعد أهم شارع تجاري وثقافي في قلب بغداد عبر طرق ضيقة، حين ركن أثير السيارة في مرآب غير بعيد أتجها معا سيرا على الأقدام عبر الشارع الذي يمتد إلى أن يصل إلى شارع آخر يسمى شارع المتنبي الذي تنتشر فيه الكتب والمطابع والمكتبات على أنواعها، عندما أخذت بوران تسير بمحاذاة الأعمدة الأيونية المتراصة أحست بأنها تسمع نغم المقامات يأتيها عبر الجدران وكأن الألحان التصقت به منذ نشأته الأولى تعززها الزخارف والشناشيل التي لم يتبق منها الا ايحاءات لوجود جماليات تكاد تنقرض وتندثر، لقد مروا على مسرح الزوراء التاريخي الذي أصبح مخازن للأعلاف وعلى صالات السينما التي أصبحت مقرات للأحزاب الجديدة، أخذوا ينظرون الى المقاهي العريقة المهملة التي أصبح بعضها موطنا للحشاشين وشاربي الخمر، الشارع أخذ يعج بالباعة المتجولين والبضائع المكدسة على الارصفة وأصوات أبواق السيارات وضوضاء مزعجة، جزء كبير من عبق تاريخ هذا الشارع العريق أخذت تتغير ملامحه، لقد رأت ما لهذا الخراب والدمار يجثم كواقع مقيت مؤلم

تراه عبر الطرقات المتكسرة والحواجز الكونكريتية وأكوام القمامة والمنازل المهترئة والأسلاك الكهربائية التي بدت كأنها خيوط العنكبوت، تلف الحواري والبيوت القديمة، أحست بالرجل الأرنب حين أقترب منها، همس بأذنها وقال: (هذه المدينة تحتاج إلى أحد ليس من الأرياف)، هزت بوران رأسها بشكل ينم على الموافقة، تطلعت بوجهه وهو يكمل ويقول:(لقد سرقوا بغداد)، كان صوت أثير كفيل بأن يبعدها عن الذكريات حين قال: (سوف أريك بغداد الحديثة).

كانت وحدها الجسور هي التي تفصل الحداثة المزيفة وبين تاريخ بغداد المهمل، حيث أن هنالك مناطق تختلف عن سابقتها، تحمل طابعا مغايرا تماما بلغ الاهتمام بها حد الاختلاف، بيوت من الطراز الحديث عالية ومرتبة، يقف تحت أسوار بعضها حراسات مشددة، مناطق تكثر فيها المطاعم والمقاهي والعمارات ذات الواجهات الزجاجية والأضواء الملونة وإشارات مرورية لا يضئ منها لونان بنفس الوقت، السيارات الحديثة تعج بكل مكان واناس على قدر كبير من الأناقة، وجوه فرحة ضاحكة تراها تحت أضواء لافتات المحلات الضوئية الساطعة وكأنك في عالم آخر مستقر ومنظم يلغي فكرة وجود حروب في الأنحاء، لقد رأت بوران المحلات الجديدة التي انتشرت بشكل ملفت للنظر، لم يعهد وجودها الشعب في الزمن السابق، محلات في

واجهات حديثة تواكبت مع الطفرة التي أحلت بنبض الشوارع المضيئة، كان الوقت عصرا، شارف نور الشمس على الزوال، عندما وصلوا إلى أول السوق توقفوا عند إحدى حواجز التفتيش، بدا على اثير الارتباك حين أقبل نحوهم بسيارته، ما ان اقتربوا من الجندي الذي كان يلبس زيه العسكري الكامل حتى أشار لهم بالانطلاق من دون ان يستوقفهم، بدا السوق يعج بالحركة و الزحام الكثيف، اضاف حركة غير عادية للمشهد، احست بوران بالضيق، لكنها احبت ان تكمل تلك الرحلة القصيرة مع أثير، كان من الصعب أن تجد مكانا لركن السيارة من بين هذا الكم الهائل من الزحام ولكن اثير بلغة العارف، أتجه إلى قلب الشارع الرئيسي بثقة بالغة من غير تذمر، ماهي الا بضع دقائق حتى توقف فجأة في المنتصف، انتظر احدى السيارات التي بدأت بالخروج من احدى المصاف وركن في مكانها بكل سلاسة وكأن المكان قد أفرغ له عن قصد، لقد بدا أثير مرتبكا وهو يسير معها عبر الشارع الذي ازدحم بالمارة، ولجأ إلى شارع فرعي ثم اتجها الى كافتيريا أنيقة كانت في البداية، عندما جلسا متقابلين على طاولة دائرية، كان أثير على درجة عالية من الارتباك لم تعرف بوران سببه، أخذ يرد على مكالمات من جهاز تلفونه المحمول، يتلفت بعفوية حوله وهو يقضم أضافره، أراد ان يقول لها شيئا ولكنه لم يتحدث اليها بشيء

طيلة جلوسهم في المكان الذي بدا هادئا بعض الشيء، سألته ان كان يشكو من شيء ولكنه لم يرد عليها، أخذ يعبث بتلفونه المحمول وهو يكبس على الأزرار التي أخذت تصدر نغمات كئيبة، لكن بعد أن تنبه إلى سؤالها هز رأسه بالنفي، مضت بعض الدقائق قبل أن تبادر بالسؤال عن عمله، لكنه لم يرد عليها في بداية الأمر وكأنه لم يسمعها ما لبث أن قال بعد أن تطلع بوجهها: (أنا أعمل الآن بتجارة الهواتف المحمولة)، لقد شعرت بوران برغبة في محادثته واستفزازه مما اضطرها إلى أن تتلقف جهاز التلفون من يده وتسحبه منه ثم تخفيه خلف ظهرها، لكنه سرعان ما تغيرت ملامحه، تمعن بوجهها طويلا قبل أن يقف منتصبا ويسترد منها الجهاز بحركة عصبية من دون أن ينطق بأي كلمة، استغربت بوران من موقفه العدواني، لكنه تطلع الي وجهها مرة أخرى وقال: (لابد أنك تبحثين عن جهاز هاتف محمول جيد... لدي العديد منها بشتى الأنواع والأحجام) لكنها لم ترد عليه وتركته يكمل إرسال رسالة عبر تلفونه الذي أغلقه وأودعه في جيب بنطاله الأيمن ثم أخرج من جيبه الآخر تلفونا صغيرا قديما، أمسكه بيده بحذر ونظر اليها مرة أخرى وقال وهو مبتسم: (لدي أيضا تلفون للموت).

كانت الحيرة بادية على وجه بوران التي أخذت تنظر اليه باستغراب، أرادت أن تستوحي منه سر تصرفاته التي ازدادت

غرابة، اخذ يتلفت يمينا ويسارا قبل أن يعود ويركز على التلفون ما لبث وأن كبس على زر الارسال الذي أصدر صوتا خفيفا كأنه صوت فأر في مصيدة، بعدها سمعت بوران دوي انفجار كبير هز أركان المكان الذي يجلسون به، وصل إلى مسامعها وكأنه البركان الهائج الذي بدأت تتطاير منه الحمم والدخان، كأنه صوت زمجرة غول هائج يصم الآذان، يقفز في الهواء يصرخ خلف فريسته التي لن تفلت منه، حينها رأت الرجل الأرنب يركض نحو اعماق السوق بسرعته المعهودة وقد استطالت اذناه، ومن غير سابق انذار، وقفت بوران واتجهت إلى مصدر الانفجار، أخذت تعدو كالمجنونة عبر الطريق المؤدي إلى داخل السوق وهي تصرخ على الرجل الأرنب، حين وصلت إلى المكان الذي تصاعدت منه السنة اللهب من السيارات المتصافة، وجدت العديد من الجثث مرمية في الشارع وعلى الأرصفة بشكل مرعب، أخذت تتطلع بذهول من داخل الدخان إلى الناس الذين بدأوا يتهافتون من أماكن عدة وأناس يتطافرون وغيرهم يهربون الى البعيد، بدأ الهرج يصل قمته حين أخذت انفجارات أخرى تعلو من البعيد، لقد بدا الجحيم أمامها بصورته البشعة، فقد تناثرت أشلاء الجثث في الشارع الذي أصبح قطعة من الجحيم، رأت الرجل الأرنب يحمل بعض الأجساد ويلقي بها بعيدا في مكان آمن، وضعت يديها على

خديها وأخذت تبكي وتصرخ فلا تعرف ما الذي تفعله، لكن أثير حين لحق بها، أمسك بيدها وأخذ يسحبها بقوة نحوه، لكنها افلتت يدها من قبضته وعادت واجمة ترقب المشهد الذي لم يكن سوى دمار لم تتصور أن يكون بهذه البشاعة، لقد حل الخراب في المكان واصبح من الصعب تصديقه، لكن أثير في هذه المرة عاد وأمسك يدها بكل قوة، سحبها معه بعيدا عبر طريق فرعي أودى به إلى طريق يؤدي إلى الشارع العام، أوقف أول سيارة تكسي رآها وزج بها إلى الداخل بقوة وهو يأمر السائق بأن يبتعد بهم بعيدا، انطلقت السيارة مبتعدة عبر الشارع مخلفة وراءها صورة من صور الخراب الذي أخذت بوران تنظر اليه عبر زجاج نافذة سيارة التكسي وهي تبتعد عن الدخان المتصاعد الذي أخذ يتضاءل شيئا فشيئا كلما ازدادت سرعة السيارة.

لقد وزعت الأحداث الدامية والمستمرة على أذهان الناس توزيعا عشوائيا، باتت الانفجارات من المسلمات اليومية التي لا تحيد عن سماعها في كل صباح ومساء، لقد أصبحت الانفجارات جزءا من ثقافة المدينة اليائسة التي بدت أكثر سوادا من جراء الدخان الذي تعمل الأحزاب المتناحرة على تأجيجه في كل مكان من العاصمة، تتصارع فيما بينها وتعمل بجدية على اشعال الفوضى والدمار، لقد عبثوا بالأرواح التي أخذت تتزاحم في السماء، ونثروا الأشلاء بالجملة واثقلوا

الأجساد بالجراح في ليلة دمار الضمير، سقوا الشارع الأسفلتي بالدم وانتظروا أن ينبت علامات متقطعة لا تؤدي إلى شيء، الجموا وصايا الانسان اليافعة بقيد التجاهل والاهمال وتركوا الصراخ يعلو إلى السماء بأعاصير التجني، وحدها شواهد الخذلان ترتسم بعيون عراقية، تترقب نكسة أخرى في شارع آخر في المدينة، يا ويح المدينة إن لم تفق على الندم بعد الكابوس.

في هذه الليلة، بعد أن عجزت بوران عن استحضار خدر في الرأس، قامت واتجهت إلى النافذة المطلة على الشارع الرتيب، بينما ظل الرجل الأرنب مركونا على رقدته مفتوح العينين ينظر اليها بخمول بين حين وآخر، لم تقف طويلا عند النافذة، فالمنظر الذي أمامها لا يوحي بشيء مهم، أضواء الشارع الباهتة لم تضف شيئا إلى البيوت المظلمة التي اصطفت عبر الشارع الهادئ، فقد كانت ليلة ساكنة بلا حراك برغم الساعات الأولى، جو الغرفة بدأ يحمل بداخله حرارة غير معتاده، لم يغير رأيها بالعودة الى السرير حتى جهاز التكييف، أرادت بوران أن تنزل إلى الصالة في الاسفل علها تترك الأرق بالطابق العلوي وحيدا مع الرجل الأرنب الذي أخذ النوم يشاغله، كانت تحتاج أن تتحدث مع أي أحد في أي شيء، لبست معطفا طويلا من الصوف على البيجاما، شدته على خصرها بإحكام واتجهت عبر الممر الذي عكست

على أرضيته خطوط قضبان النافذة الزجاجية الطويلة التي رسمها نور الشارع، نزلت السلم المؤدي إلى الصالة بخطوات متأنية حتى وصلت الى المنتصف، كان كل ما حولها ساكنا على حاله لم يتغير، لكنها تفاجأت بوجود قطعة جديدة قد ضمت إلى باقي أثاث الصالة، كرسي الخيزران الهزاز، أطالت النظر إليه وهي تستذكر أبيها الذي كان يجلس عليه في ذلك الزمن، كان يغط في تفكير عميق وهو يتمايل بهدوء، لقد بدا أشبه بغرفة عمليات القرارات المجحفة وانطلاقة لكل تقرير سوف يكتبه بحق أحد البائسين الذين سوف تطالهم خطوط قلمه، في ذلك الزمن، حين يختمر كل شيء بذهن ابيها يقف فجأة ويتجه إلى غرفة المكتب مسرعا لتسطير جريمة الوشاية بأقلامه المتنوعة الملونة التي تلازم جيب قميصه الأمامي والتي تنوعت باختلاف كتابة الادانات، القلم الأحمر للحالات الطارئة التى تودي إلى الموت الفوري والقلم الأسود للاستبيان عن أحوال الضحية المرتقبة، أما الأزرق فقد كان للحالات العادية التي ما وجدت الا للتسلية والتمرس على الادانات الكبرى وفي كل الأحوال مهما اختلفت الألوان فالموت واحد، تساءلت بنفسها عن سبب وجوده في هذا الوقت، أرادت أن تجلس عليه وتستكين قليلا، لكنها عدلت عن ذلك بلحظات من الخوف، أحست بأن عدوى بغيضة سوف تصيبها أو سيتغير

شكلها ويصبح بشعا بشكل مرعب، تخيلت أن سحنتها سوف تنقلب إلى اللون الأسود المخضر، يخرج لفمها نابان ولرأسها قرنان بالأعلى وتكون أكثر بشاعة من كائن مسخ يلوي رأسه ويُخرج صوتا مرعبا كخوار متقطع، جفلت وابتعدت قليلا عن الكرسي الذي أخذت تنظر اليه بريبة ووجل، ولكن الصوت الذي أتى من غرفة مكتب أبيها كان جديرا بأن يشد الانتباه، لقد سمعت همهمات و كلمات غير واضحة اثارت بها بعضا من الفضول، كان نزاعا حادا أو هو أشبه بنقاش شديد اللهجة بصوت فضحه سكون الليل، أخذت تستمع إلى الأصوات التي كانت تصر على فعل شيء ما غير مفهوم بجدل متفاوت، حين اتجهت إلى باب المكتب الذي أوصد بشدة، اقتربت كثيرا من الباب واسترقت السمع من خلفه، تعمدت التنصت للأصوات الصادرة، لم تسمع صوت أبيها من ضمن المتحدثين، ربما كان مستمعا جيدا كما يفعل دائما حين يكون الموضوع على درجة كبيرة من الأهمية، ولكن الأصوات ما لبثت أن هدأت قليلا وانطلقت بعدها همهمات ثقيلة متقطعة ثم ساد بعد ذلك السكون، وفجأة، فتح الباب بعجلة، وجدت أمامها أثير الذي أخذ يتطلع بوجهها متبسما وقد ملأ الباب بجسده الذي بدا أكثر ضخامة، أخذ ينظر إليها بلحظات من الصمت ما لبث أن قال لها: (تفضلي بالدخول)، كاد الارتباك يودي بموقفها إلى

الحرج الفاضح، فكرت بالعودة والهرب من حيث أتت ولكنها تداركت ذلك بشيء من اللامبالاة، تبادلت النظرات مع أثير بعدها تنفست بعمق واتجهت إلى الداخل بخطى ثابتة مدفوعة بحس المغامرة والفضول، لم ينتابها الحرج حين خطت أول الخطوات بداخل الغرفة الدافئة، لكنها تسمرت حين رأت عدد من الرجال مجتمعين حول أبيها بصدر المكتب العريض، كانوا أربعة رجال كبار في السن، يكادون يحملون نفس القسمات ونفس العمر ونفس نظرات الاعجاب التي تتبعت قوامها الممشوق من خلف المعطف الصوفي، أشد ما أثار انتباهها رجل في العقد السادس من العمر، تبينت من خلال ملامحه التي لم تتغير كثيرا أنه يعرفها جيدا، حين قام واستقبلها ببشاشة، شد على يدها بحرارة وهو يقف أمامها مبتسما، قالت بوران بشيء من الدهشة " لابد أنك السيد أصلان، قالوا أنك قد مت بالحرب" لكنه رد عليها وقال:(لازال في العمر بقية)، بلحظة صامته تذكرت بوران الرجل الذي كان يعدم ثوار الجنوب بعد انتهاء حرب الكويت بفأسه القاطع في ذلك الزمن، لم يمت السيد أصلان وخلفه يقف هذا الحزب البالي ورجاله المخلصون، ثلة من القتلة، موجودون لم ينتهوا، جميع أعضاء حزب البعث هم نفايات الأعضاء التناسلية، عرفتهم بوران منذ زمن بعيد حين كانوا يقتلون الثوار بلا رحمة ولا شفقة، يزجون بهم في

المعتقلات التي فاضت بالأجساد، عندما أخذت مكانها بالقرب من أبيها، بدا لها أن الأنظار تتطلع اليها بشغف، أحست أنها تجلس عارية تماما بينهم، سادت لحظات من الترقب الحذر قبل ان يتكلم اثير ويكسر الصمت حين قال: (أعرفكم على ابنة خالي بوران، دبلوم محاسبة، حذقة ذكية، تحمل أفكارا ناضجة، طيعة وهادئة جدا إلى درجة انها تسمع الكلمة من دون نقاش) كانت هذا مقدمة غير شافية لتساؤلات أحست بوران أنها تتضور بداخلهم عن هذه المرأة الجريئة التي اقتحمت عليهم خلوتهم، لكنهم رحبوا بها بحرارة بالغة مما استفز أثير مرة أخرى بأن يقف قبالتها بثبات واتزان، أدخل يده في جيب بنطاله ورفع الأخرى إلى الأعلى ثم صوبها ناحية وجه بوران التي استكانت برهة وهي ترفع حاجبيها تعجبا من حركته هذه وكأنها تنتظر قرارا مهما سوف يدلي به أثير الذي قال بجدية: (لابد لهذه الفتاة أن تحظى بمكانة جيدة)، لم تفهم ساعتها ما هو المقصود من كلامه الا حينما اقترب منها كثيرا وقد أشبك يديه خلف ظهره، قرب وجهه نحوها وهو يهز رأسه أمامها بطريقة مسرحية مدروسة وأردف بكل اقتناع: (لدينا وظائف شاغرة كثيرة) لكن بوران أشاحت بوجهها نحو أبيها و رمقته بنظرة عرف هو مغزاها، كانت تنتظر منه الجواب الذي لم يتأخر كثيرا، لقد أعلن أبوها تأييده للفكرة عندما هز رأسه موافقا مما أعطاها تبريرا

لاستحسان الفكرة التي لم تثر لديها هذا الاقبال الشديد، لكن السيد أصلان أصر على ذلك بشكل مبالغ فيه حين قال: (لابد من وظيفة وفورا) بعدها أنتظر من البقية ردة فعل تؤيد رأيه عندما قال: (سوف تكون هذه المرأة اللطيفة من ضمن مجموعتنا)، حينها ساد المكان نوعا من الهدوء، تقافزت النظرات وتبادلوا فيما بينهم اشارات لم تفهم ساعتها ما القصد من ورائها، بعدها وقف الجميع وتهيأوا للرحيل:(لقاؤنا بعد اسبوع هنا في نفس المكان) قال السيد اصلان ذلك بجدية بالغة واتجه إلى باب الغرفة بخطوات سريعة وقد تبعه الباقون بكل انصياع.

لم تمض عدة أيام حتى غاب أثير اسبوعا كاملا الى جهة غير معلومة، أخذ معه الحركة والضحكات والمرح، الشخص الوحيد الذي يعيد الحياة إلى البيت عندما يحضر، يضفي على جو المكان الغارق بالرتابة طابع من المرح والضوضاء، طبيعته المرحة كانت سببا لقبول حتى ضرباته الخاطفة على الأكتاف و الصدر والرأس من دون أي تذمر، لقد أصبحت الرتابة والهدوء يأخذان مكانهما الطبيعي بلا منازع في البيت، كان الأب يقضي معظم وقته بغرفة المكتب، لا يخرج منها الا لوجبات الطعام أو متابعة الأخبار، سماح لازالت تغلق على نفسها باب غرفتها إلى وقت متأخر من الليل، راقت لها الوحدة التي اختارتها بمحض الارادة وأصبحت لا تريد ان

تكلم أحدا، حتى أن ابنها الذي دائما ما يحاول أن يستفزها بحركاته الطفولية، لم ينجح في كسر عزلتها وصمتها، أما العمة أصيله فهي تعمل دائما بصمت في ترتيب البيت وإحضار الطعام، تترك عينيها فقط تتحرك خلف بوران، تراقبها اينما ذهبت، الرجل الأرنب قلما يتواجد في البيت، في كل مرة يغيب ويعود ليحضر معه شيئا غريبا، بقايا اطلاقات رصاص وأغلفة لصواريخ في كيس من الخيش وعظام آدمية متنوعة مربوطة ببعضها البعض بقماشة عليها دم متيبس، يرمي بها في باحة البيت قرب الشجرة، أخذ يجلب عدد كبيرا من قنابل يدوية ومسدسات صدئة وعبوات ناسفة يكسوها الطين الطري، يتبين أنه قد اقتلعها من الأرض، ملأ بها ركن كبيرة من المساحة الخلفية من البيت، لقد ظلت بوران تراقبه من خلف النافذة كل ليلة، جاء في يوم من الأيام يجر خلفه مدفعا كبيرا ذو سبطانة واسعة وركنه في الزاوية البعيدة، بعدها دخل وهو يحمل على ظهره دبابة يتطاير منها دخان أسود بدا كالخيوط التي تتعلق بالسماء، وضعها فوق اكداس الأسلحة الرشاشة، لقد كانت مدهوشة من عمله الذي دأب على ممارسته في كل يوم، لم تعمل بوران شيئا سوى أنها أخذت تراقب اصراره على تجميع كل هذه المعدات في مكان واحد، لكن بوران أخذ كتاب ليل المنافي وقتها الطويل، ارادت ان تتبع سير رحلة فراس.

الكرباج الرابع – مدينة أزمير

لقد وصلنا ليلا إلى ساحل مدينة ازمير الغربي الذي يطل على بعض الجزر اليونانية، وجدنا بعض العوائل التي تنتظر عند ساحل البحر الذي يفصل مدينة إزمير عن أقرب جزيرة يونانية هادئا في ذلك اليوم، السكون يشوب المكان على طول المدى إلا من صوت موج خفيف أخذ يعانق الشاطئ برويـة، استبشـر هافـال المهـرب خيـرا وقـال وهـو يصـطنع الابتسامة على فمه.

ـ سوف تكون الرحلة آمنة مالم تبتعدوا عن الخوف.

كان أبي يركز ببصره على القارب المطاطي الذي سوف يقلنا من الشاطئ عبر بحر أيجه ومنها إلى شواطئ جزيرة ساموس اليونانية التي سوف تكون بداية أول الانطلاقة نحو أوروبا، العوائل الباقية التي كانت تنتظر اشارة البدء بالإبحار قد تجمعن حلقات حول نفسها وأخذوا يتكلمون بلغة أشبه بالأفغانية، أطفال لا يعرفون إلى أين ذاهبون ونساء يذرفن الدموع على المصير الغامض الذي ينتظرهم بينما الرجال أخذوا يدارون مخاوفهم خلف حزم وشده مفضوحين، أصبح سؤالنا الوحيد عن النجاة هل سيبتلعنا البحر أم إننا سوف نخوض هذه الرحلة غير الشرعية بلا جراحات اضافية، فلا قيمة للنجاة إن لم نكن في الطريق الصحيح.

ـ قد يكون هذا القارب عمليا ولكن لا آمن تقلبات الجو.

قال المهرب التركي بلكنة عربية مكسره ذلك وهو يلبس طوق النجاة على جسمه ويحكم اغلاقها على صدره بعدها أخذ يسير نحو القارب المطاطي، مما دفعنا إلى أن نتبعه بنفس الخطوات، حينها ودعنا المهرب هافال الذي كان يرافقنا طيلة رحلتنا عبر الأراضي التركية من البعيد ورحل، انتظرنا أكثر من ساعة على الساحل ونحن على أعصابنا، كنا قلقين من هذا التأخير الذي زاد من مخاوفنا إلى أن سمعنا أصواتا لرجال بدأوا يقتربون نحونا بسرعة، حين تجاوزونا واتجهوا إلى القارب المطاطي وهم في عجلة من أمرهم أخذوا ينادون علينا بعصبية، كانوا عددا من الرجال الذين أخذوا يتفحصون كل ما حولهم وهم يتكلمون اللغة التركية إلى أن أعطى احدهم اشارة صارمة من يده حين لوح بها عاليا وقال بلكنة عربية مكسره.

ـ هيا ليصعد الجميع.

فراس حسين القاسم ـ كانون الثاني ٢٠٠٣

قطع عنها القراءة صوت أثير الذي سمعته يأتي من الصالة، حين نزلت وجدته يجلس مع أبيها يتكلمان بصوت خافت، لم يكن وجهه على هيئته المعتادة كما رأته بوران

آخر مرة حين ودعته، كان مصفر الوجه، عيناه غلفهما السواد وشفتان يابستان، جاء بشعر رأس كثيف، أطلق لحية على وجهه المتعب والمرهق، بدا وكأنه عائد من عمل شاق ومهلك، عندما رأى بوران قام وألقى عليها التحية دون أن يصافحها ثم اتجه من دون اية كلمة اضافية إلى غرفته المنزوية اسفل الدرج، كان على غير عادته في الأيام التي قضاها مع العائلة، يرد على مكالمات عديدة وهو يسير في حديقة البيت الخلفية، كان دائما ما يخطف بسرعة في حركات سريعة، رأته بوران يجلس في احد الأيام وحيدا بعد الظهر في الصالة يميل إلى الصمت وهو أمام شاشة التلفزيون يقلب القنوات على مهل، لم تشأ أن تسأله عن أي شيء، أخذت ترمقه من حين لآخر بعد أن طباعه قد تغيرت، لقد تحول إلى شخصية أخرى غير معهودة، أصبح حاد الطباع، تتبدل طبيعته عندما يأخذ بالرد على التلفون المحمول بكلمات متقطعة غير مفهومة، حتى أنها رأته في يوم من الأيام يلقي جهاز التلفون بعصبية على الأرض ويهشمه، لم تفهم بوران ساعتها لما كل هذا التغيير الذي طرأ على تصرفاته التي بدت أكثر غرابة الا عندما أخذ يصرخ في صباح اليوم التالي على الجميع، يحثهم على المجيء ورؤية الأخبار في التلفاز، لقد جاء الخبر مثل الصاعقة في هذا الصباح الاستثنائي، أنباء توافدت عبر شاشة أخذت تعرض فاجعة ليست بالحسبان،

لقد احتلت مدينة الموصل ثاني أكبر مدن العراق بغمضة عين من مجموعات اطلقة على نفسها داعش، أعقبها احتلال مدينتين انصاعتا بكل رخاوة أيضا للسواد القادم من الجهة الغربية، لقد جلس الجميع في صباح هذا اليوم حول التلفاز يستمعون إلى الأخبار التي أخذت تتوافد بشكل متسارع، كان الذهول يشاطر الصمت في أوقات حرجه، تفضحه العيون المتسمرة على الشاشة، لم يتكلم أحد ولم ينظروا لبعضهم البعض، فقد أخذت الصور تتوالى عبر القنوات، صور الجنود المذهولين الهاربين من أرض المعركة، يعودون بلا ملابس عسكرية ولا سلاح، لم يكن هناك أحد بانتظارهم سوى الندم على اطراف المدن، السيارات المحروقة والطرقات والبيوت التي بدأت تخلو من ساكنيها الذين أخذوا يهربون تباعا إلى مناطق أخرى أكثر أمنا، قد بدت على وجوههم علامات تنبيء بالفاجعة التي أتت بحلتها الجديدةعبر الدروب التي بدأت تتسع للموت والضياع، القادمون الجدد الذين أتوا براياتهم السوداء المزيفة، غرسوا سارية من الموت بقلب الإنسان الآمن، من الذي أتى بهم على هذا النحو الهائل من التمرد على الانسانية، من سمح لعصف الموت أن يجتاح الأرض بهذه السهولة وبدون مقاومة تذكر، يقيم علاقة غير شرعية مع الوطن، ها هي المدن تستباح بأيدي أبنائها الذين فتحوا لهم الأبواب على مصاريعها، يهيئون لهم موائد من

رذيلة ويقربوهم من صروح التاريخ التي اتسخت بأيديهم، من له الحق بأن يقتطع جزءا من هذا الوطن بمغامرة مدفوعة الثمن؟، الخيانة وحدها كفيلة بأن تختزل الطرق المؤدية إلى الانتكاسات، وحدها الخيانات المتكررة أصبحت من المسلمات، مثل الانفجارات ومثل الموت المبكر، قادة الفرق العسكرية الذين انسحبوا مع سابق انذار، تركوا مواقعهم الآمنة للعدو بكل سلاسة وكأن الأمر مدبر سلفا، لقد تركوا الفرصة للخلايا النائمة بأن تأخذ دورها في مواصلة الخراب وبمساعدة الأهالي الذين تخاذلوا بشكل سافر مع المغتصب الجديد على اكمال المشهد المفبرك بشكل يشيع الذهول، لقد حاول المنطق ترتيب الدهشة أكثر من مرة، لكن طابور الخيانات قد اتسع، كان وحده الرئيس من له الحق بأن يقتطع جزءا من الوطن بمغامرة مدفوعة الثمن، ليس لشيء سوى أنه أراد أن يطيل أمد إقامته في المنطقة الخضراء التي تعصمه من السقوط، يستدرج المتبقي من الخيانة و يدرجها برعونة مع الأوراق التي تقبع في أدراج مكتبه المفتوحة دائما للعقود المشبوهة، لتكتمل صورة المشروع الجديد لمستقبل الدولة فيما بعد، فتتضح على هذا النحو الاستهتار، بناء كيانين جديدين من سواد متكامل يخرج من مكتب الرئيس الذي أخذ يوقع على جميع أوراق الجرائم بنهم.

لقد أصبحت الأخبار السعيدة غير معروضة للبيع بوطن أصبح كالدكان، جلها تتوفر عند بقال عنيد، يغلق الأبواب في قمة حاجة الناس له ويذهب ليصلي صلاته التي لا تنتهي حتى مطلع الغدر وعند العودة، يخط على الحائط خطوط متراصفة هي عبارة عن حسابات ديون الشعب التي لم يقترفونها، لقد أخفق المستبصرون هذه المرة حين قالوا أنها ستكون أعوام رخاء واستقرار لسنوات قادمة ولم يستنبئوا بهذه الفاجعة وهذا الاجتياح المصرح له، الذي لم يأخذ سوى ساعات قليلة حتى كانت مدينتي الموصل والأنبار في قبضة الأوباش الذين أتوا من كل صوب واجتمعوا بأرض السواد والهلال العصيب تحثهم الكلمات المقدسة التي بررها على حسب أهوائهم، كانت صدمة لم تستثن وقوف الكون كله على قدم واحدة بانتظار ما سوف تكشفه الأحداث القادمة التي سوف تجبر العالم اجمع على اعادة ترتيب الأفكار القادمة على نحو من الصحوة من هذا الكابوس الذي يخرج من تحت وسائد الذهول ويرتسم أمامهم كالغول على مشارف حقيقة فاضحة.

كان كل من في البيت يرسم على وجهه تعبيرا يخصه، اختفت قسمات وجه سماح التي كسرت عزلتها خلف تعابير غير واضحة هي أقرب إلى الجمود، حتى أنه لم يتبين مدى تأثيرها بما يحدث حولها، لم تعلق بكلمة واحدة وكأنها

أصبحت مجرد كتلة من لحم فقط، أما العمة أصيله عملت على أن يكون إبريق الشاي حاضرا دائما وساخنا في كل وقت مع صحن الكعك المحمص، لم تعلق هي أيضا على الحدث وكأن الأمر لا يهمها، بينما لم يبرح أبوها شاشة التلفاز منذ يومين، يتابع بشغف الأحداث بابتسامة صفراء علت وجهه بكل رتابة، لم ينتبه إلى أثير عندما جاء ووضع يده على كتفه وجلس قربه بكل هدوء وأخذ يتابع الموقف عن كثب، أما بوران التي لم تكن علاقتها بالتلفاز وثيقة جدا، فقد كانت تراه من البعيد وتقول أنه مربع كاذب فهي تعتبره نذير شؤم، ولكن الأحداث التي توالت في الفترة الأخيرة أجبرتها على الجلوس أمام الشاشة ومتابعة الأخبار بشكل هستيري، لا تكاد تغفو حتى تعود بسرعة إلى الصالة وتجلس قبالة التلفاز، وجبات الأكل أيضا لم تطيب الا في هذا المكان، فقد أصبح شغلها الشاغل لعدة أيام مضت، لقد أصبح النوم لديها شحيحا جدا إلى درجة إنها أصبحت لا تبالي بتعاقب الليل والنهار ولا بالأوقات الطويلة التي تقضيها بمتابعة الأحداث إلى درجة الإرهاق، لتعود تستلقي على السرير تحاول أن تستسلم للخدر ولكن بلا طائل لذلك، تبقى طوال الليل مستسلمة للخيبات في الظلمة، فقد أخذت الأفكار تراودها دائما وهي تتساءل بنفسها، كيف آن لنا أن نعيش في هذه الحياة مشاريعا للموت المؤجل، تتطاول علينا

العذابات من كل جهة فتجعل منا جثثا غير قابلة للتشريح، لماذا يستهدف الانسان ويكون وقودا للتعصب، هل كانت فكرة فنائه تتصل بتوازن البشرية أم هو اختبار لقدرات الانسان العقلية الجبارة في مصارعة تركيبة تراكمات الحياة المعقدة أم أنه اختيار عشوائي لموته غير المبرر في اي وقت ليصبح بعد ذلك بقايا هيكل عظمي بداخل تابوت ملفوف بعلم دولة، تعلم بوران بأن كل أفكارها ما هي الا ايحاء في وقت القنوط، حاولت ترتيب الأحداث اكثر من مرة عبر الأدوار المرسومة التي أخذت شكلها الصريح، كيف لشرذمة أطلت بوجهها البغيض من كل اصقاع الأرض، يريدون أن يستعيدوا نشاط القتل والتنكيل الذي تمرسوا عليه منذ أن هبوا يتصارعون من أجل ارجاع دولة الوهم ويجعلوا الانسان المتحضر يسير خلف الدواب مرة أخرى، تغلغلوا كالعفن بين اغصان الذبول، كالدود تحت خياشيم متعفنة، تبجحهم بكل الرذائل، تفاخرهم بعهد الجدود الذي ورثوا منهم عظام منخورة على الأبدان، أصبحت الصدمة مطلية بصبغة من ذهول، رهان الأقوام المتعطشة للخراب قد اتضح جليا على الأرض، لقد أخذت المدن تتساقط الواحدة تلو الأخرى بشكل صادم، تتلوها وحشية متعمدة واستباحة للدماء بشكل فظ وغليظ، أصبح الغموض والقادم المعتم نزوة في رياح سموم مسمومة تجتاح زمن هزيمة المدن المطعمة

بالانتكاسات، أخذت بوران تشاهد المأساة وهي مدهوشة يوما بعد يوم، لقد رأت الغزاة يحتفلون بعملية الذبح والتنكيل التي تمرسوا عليها منذ زمن الجدود، عند ذلك الجبل البائس، اجتاح مسوخ الزمان والمكان الاقليم الآمن في جبل سنجار، الطائفة الأيزيدية التي لم يكن لها ذنب سوى أنها كانت تتقرب إلى ربها على طريقتها الخاصة، أستبيح دمها، ذلك الموت المجاني لأكبر عدد من النفوس، السبي المتوحش للنساء والأطفال، صوت بكائهم وصراخهم، لم يحرك شعرة من الضمير الانساني، لقد تخلى عنهم الجميع وتركوهم إلى مصيرهم المحتوم، لم يكن هناك سبيل إلى النجاة إلا ذلك الجبل الذي كان عاصما لهم، بين الصخور التي كانت أشد قسوة من الموت نفسه.

" الأوطان معروضة للبيع " قالت بوران ذلك وانتظرت من الرجل الأرنب أن يتكلم، كانت الكلمات تخرج من فمها ثملة وهي مستلقية على سريرها، كان الرجل الأرنب يرمي بكرة مطاطية على الحائط المقابل فترتد إليه يتلقفها بهدوء بيديه الاثنتين ويرمي بها مرة أخرى من دون أن يتكلم في لعبة أراد بها أن ينشغل عن أفكار بوران التي أيقن أنها أصبحت تهذي، لكنها حثته بأن يقول شيئا معقولا ويكسر الصمت لكنه كان غير مهتم، أمسك الكرة بكلتي يديه واستكان للحظات وهو يرفع أذنيه عاليا وكأنه أخذ يستمع

إلى حركة بدأت تفض سكون الليل، نفس الهمهمات السابقة التي سمعتها بوران أول مرة، وقع أقدام كثيرة تتوالى على الممر المحجر الضيق المؤدي إلى الداخل، لابد أنهم أصدقاء أبيها، جاءوا إلى اجتماع جديد، ولكن بلحظة غير مبررة، انتابها نفس الفضول الملح في اكتشاف السر الذي يجعل هذه الحركة المشبوهة تأتي في آخر الليل على هذا النحو من السرية، قامت بعجلة وانتصبت، وكأنها تستعيد نشاطا كان مؤجل، في هذه المرة لبست رداء طويلا داكنا، لفت رأسها بالشال الأسود وأسرعت بالخروج من غرفتها، إنسلت في الظلام عبر الدرجات المؤدية إلى الأسفل بكل حذر في الوقت الذي أخذ الرجل الأرنب يتبعها بنفس الخطوات وهو قابض على يدها بقوة مما زاد من حالة التردد لديها وهي تخطو آخر درجات السلم، عندما اقتربت من الباب الموصد، حاولت أن تسمع بوضوح إلى ما يدور في الداخل، ألصقت اذنها على خشب الباب واسترقت السمع، ولكن لم يكن هنالك أي شيء واضح، هدوء نسبي تتخلله بعض الهمهمات غير المفهومة، تململت قليلا وأرادت أن تعود ادراجها وتترك عنها الحدس الذي كان يلهج بداخلها، لكنها ما لبثت أن عادت وقرعت الباب بتردد بيد اشبه بالخجولة، انتظرت لحظات قبل أن يفتح لها الباب، كان أثير خلفه هذه المرة، أخذ يتمعن بتفاصيل لباسها الذي كان محتشما ما لبث أن

أوسع لها الطريق ودعاها إلى الداخل بكل رحابة، لم يكن الترحيب بها هو ذاته كما بالمرة السابقة على الوجوه شبه المتجهمة، ولم تكن نظرات الاعجاب حاضره كما توقعت برغم قوامها الممشوق الذي بدا كقطعة نادرة ونفيسة، وجهها الدائري الذي احتوته تفاصيل متناسقة، صدرها العالي، ومشيتها المتمايلة، أشد ما كان يميز حضورها، خصلة من شعرها الفاحم التي تدلت من تحت الشال لتصل إلى منتصف الصدر البارز وتلتف بالأسفل لترسم علامة أشبه بعلامة تعجب فوق يديها التي أخذت تفركهما بحرج، كانت الوجوه أكثر حدة وصرامة من ذي قبل تعلوها جدية بالغة مما زاد من توتر موقفها وارتباكها بعد أن ألقت تحية المساء وتقدمت نحو مكان جلوس أبيها الذي أخذ ينظر اليها بنظرة رافضة لوجودها، كأنه يقول لها ما لذي أتى بك إلى هنا الآن، بعد لحظات من الصمت والتململ بدأ السيد أصلان بتوجيه الحديث نحو الجميع الذين أخذوا ينصتون له بصمت: (لابد أن نكون على حذر، لسنا وحدنا في الشمال)، كان من بين الحضور وجه جديد لم يكن في الجلسة السابقة، وقف ينظر الى بوران بعد أن انتبه الى وجودها، رجل يصغرهم سنا، ذو طابع غرائزي طاغي، يجبرك على أن تقبل عليه بكل استسلام، لديه من الجاذبية ما يوهم أنه مقبل على موعد غرامي، بدا من هيئته حاذقا لماحا متوقد الذكاء وفي نفس

الوقت هادئا غير مبتذل، استدار نحوها بشكل ملفت قبل أن يسحب كرسي ويجلس على مقربة من الخزانة العريضة التي تحمل بعض التحفيات النحاسية والكتب المتناسقة، بعدها أشعل سيجارته التي اخرجها بكل سلاسة وتأن، بدا عليه أنه على قدر كبير من الاهمية، انتبه الجميع اليه حين قال بكل اتزان مصطنع: (الحمد لله على السلامة انسة بوران، شرف عظيم وجودك هنا)، بدورها ردت عليه بوران مرحبة بابتسامة مصطنعة مع حركة خفيفة من رأسها دليل الاستحسان، أخذت تنظر إلى عينيه التي بادلتها النظرات، انتظرت قليلا ريثما ترسم في مخيلتها معالم وجهه الذي بدا مألوفا لديها، استفزت الذاكرة وحاولت أن تتذكره بتركيز شديد ولكن أثير الذي كان جوابه حاضرا، اختصر عليها العناء حين قال: (أقدم لك الاعلامي الأستاذ أنمار مقدم البرامج السياسية)، حينها أخذ الأستاذ انمار يتنحنح وهو يصلح من جلسته ثم قال موجها الحديث الى بوران: (ربما لديك شيئا تحاولين قوله آنسه بوران عن وضعنا السياسي الحالي)، انتابها شيء من التردد في بداية الأمر، لكنها استعادت رباطة جأشها وتطلعت بوجوه كل الحضور بكل تحدي قبل أن تطلق كلمات كادت أن تكون كالمفرقعات في وجوه الحاضرين، وبالأخص في وجه السيد أصلان، "أظن أن لكم يد بكل ما يحدث في الشمال"، أخذ الجميع يتطلعون مذهولين بوجه بوران الذي

لم تتزحزح عنها الجدية، انتبهوا إلى مغزى ما ترمي اليه خلف كلماتها، ساد المكان بعض الصمت وتطلعت بها الوجوه ولم يتكلموا الا حين أشار لهم ابوها بيده دليل الاستمرارية، أراد بـذلك أن يقـول إن وجودهـا لـن يشـكل أي خطـر علـى وجودهم، لكن السيد أصلان قطع كل ذلك الوجوم وقال بشيء من الحده: (لقد آن لك آنسة بوران أن تفهمي أن هذه دولتنا نحن) حينها بان على قسمات وجهها علامات التعجب الذي لم ينعكس على وجوه الموجودين، فقد كانوا أكثر هدوء حين استقبلوا كلمات بوران الجريئة " لما لا تعيشون بسلام" حينها أخذ الشاب الوسيم ينظر اليها بتفحص شديد وهو ينفخ دخان سيجارته بجو الغرفة مما أدى إلى أن ترتسم على وجه بوران علامات الاحراج والارتباك، قال وهو يحاول أن يداري بعضا من استياء: (سوف نتحدث عن ذلك لاحقا ولكننا عازمون الآن على ضمك الينا)، فركت بوران يديها ثم اشبكت الأصابع، قالت وهي تنظر في عينيه " لا يمكن أن أكون في الطرف الخاسر"، كان صمتهم دليلا على ثقل وجودها بينهم، هنالك شيء بالغ الأهمية لا يستدعي وجودها في هذه الليلة بعد أن رأت في وجوه الجميع عدم قبول رأيها ما لبثت أن وقفت من مكانها بكل هدوء ثم انسحبت باتجاه الباب، وقبل أن تخرج أستوقفها أثير الذي أمسك يدها، حاول اعادتها بشكل مسرحي إلى الداخل لكنها

أصرت على الخروج بحركة منتفضة مما أدى إلى أن يتخلى أثير عن فكرة عودتها مرة أخرى ويترك لها نظرة الغضب الاخيرة التي وجهتها للموجودين.

اذا بان المستور وأصبح كل شيء واضحا لدى بوران، هم اضداد الاضداد، تركوا طريق النجاة المباح وتمسكوا بالثبور مرة أخرى، سوف تقودهم أقدامهم بإرادتهم إلى نفس حفرة الخذلان العميقة التي لن يخرجوا منها ابدا بسلام هذه المرة أن هم حاولوا اعادة الكرة بإرجاع السلطة من جديد بنفس مواصفاتها السابقة من القتل والتعذيب والتنكيل والتدمير، لم يعلموا أنهم أودعوا الوطن في خانة الضياع بأيديهم وذهبوا مع رفاق النضال يرقصون ويمرحون بكل قبح على القبور التي تفور غيظا، لقد ركنوا الواقع إلى عشوائيات صريحة، يتلاعبون بالداخل والخارج بتخبط كالمجانين ويجمعون حولهم شرذمة من قطاع الطرق وأبناء الطرقات من أجل ضرب الأصول الثابتة، يريدون أن يأخذوا رحيق البترول و يقتسمون فيما بينهم ويتركوا للجياع فتات آمالهم القومية ليعودوا جياعا من جديد، يدافعون بتخبط عن شتاتهم بشعارات لم تستخدم قط ومبادئ حشرت عنوة برؤوس قذرة، يحاولون استعادة دولة يحسبونها من مقتنياتهم الخاصة وأرضهم وحدهم ورثوها من الأسلاف، وكأن الدولة لديهم اختصرت على صحراء مترامية الاطراف وعشيرة تحاول الثأر

بمعركة بدوية، عندما عادت الى غرفتها، اخذت تفكر بالكلام الذي دار، كانت فرصتها بأن تستغل نفوذهم وتكون على خط تماس معهم من دون أن تكون طرفا في ضرر أحد، لكنها لم تستحسن الفكرة، ربما ارادوها في تنفيذ مخططاتهم وتكون بذلك قد ساعدت في اعادة شيء ترفضه تماما، ظلت تراودها هذه الأفكار وهي مستلقية على سريرها الى أن سمعت صوت الأقدام يخرج من الباب الرئيس الذي سمعته يغلق، حينها أسرعت بالنزول نحو الصالة حتى تتابع آخرالأخبار، عندما وصلت بوران الى نهاية درجات السلم الحجري الأخيرة، وجدت كل أفراد الأسرة في مكانهم بالإضافة الى أثير الذي انتهى من عزلته تماما وانضم مؤخرا الى الموجودين وأخذ يتابع الأخبار بانتباه، (انفجار اسفر عن قتل العشرات وجرح المئات، وجود عبوة ناسفة في منطقة البتاوين، اجهاض عملية انتحارية في الجامع الكبير)، لقد أصبح الأمر عاديا، كانت الأخبار كالمعتاد في كل يوم، بنفس سمة الدمار الذي اعتادوا سماعه في كل يوم عبر القنوات الفضائية التي تتصدر أخبارها التفجيرات في المدن، كان الكل على وتيرة واحدة من الصمت يتابعون بعيون تنفرج أحيانا وأحيانا أخرى تقطب عليها الحواجب، ترتسم على الوجوه علامات مختلفة كلما أشتد الخبر أو ضعف حتى أن بوران لم تنبس بكلمة واحدة ولم تعلق، أخذت تفكر بما لا

يعرفه أحد غيرها عن شعورها تجاه الأحداث، اذ تنبهت انها تصاب بالإحباط يوما بعد يوم مما جعلها مستسلمة وصامتة حيال الجو العام الذي ليس لها به قرار التغيير، ذبل كل شيء فيها ولم تعرف كيف تعود وتوقد الشعلة التي أخذت نارها تخبو يوما بعد يوم بداخلها، كانت تريد أن يحدث أمر مهم ينتشلها من كل هذا الجمود ويجعل في حياتها حركة ما، حين وصلت نشرة الاخبار للنهاية قامت بوران وأرادت أن تعود الى غرفتها في الأعلى علها تحظى بقليل من النوم، فقد بان عليها النعاس أخيرا وأخذت تتثاءب، ولكن قبل ان تصعد أول الدرجات حتى توقفت فجأة وكأن أحد ما استوقفها لأمر مهم قد تأخر بقوله، كان صدى الاسم الذي سمعته اكبر من ان تتجاهله، لقد وصل إلى مسامعها كالضربة على الرأس، اضطرها للوقوف أمام الزمن برهة كتمثال من صقيع، كان هذا الاسم كفيلا بأن يجعلها تتسمر بعينين جاحظتين على أعجوبة من عجائب اقدارها ويجعلها تدير رأسها نحو شاشة التلفاز المستطيل بذهول رغما عنها وهي تسمع صوت المذيع وهو يقول: (أستاذ فراس حسين القاسم).

كان هناك شخصان متقابلان يتحدثان عن أمر بدا مهما، عرفت أحدهم أنه الرجل الوسيم استاذ أنمار الذي تواجهت معه في الاجتماع الأخير، أما الآخر فقد احتاجت وقتا طويلا حتى تستفيق من الدهشة المباغتة التي ألمت بها بلحظة لم

تستوعب أنها الآن أمام خبر يقبل التصديق من عدمه، أخذت تركز بذلك الوجه وتتمعن به وهي مصدومة، الوجه الذي لن تنساه أبدا برغم من مرور تلك السنين، كان جالسا بكل وقار أمام المذيع الذي أخذ يسأله عن رأيه فيما اذا ازدادت أعداد النازحين من المناطق التي استولى عليها تنظيم الجماعات الارهابية المسلحة التي اجتاحت المدن العراقية وعن كيفية تقديم المساعدات التي أصبحت ملحة وعن كيفية شحذ الطاقات من اجل احتواء الأزمة التي بدأت تتفاقم، كانت الأسئلة سريعة وحماسية على الضيف الذي أخذ يرد بثبات واتزان على كل الأسئلة التي دارت حول أمر النازحين بطلاقة واتزان، وكأنه قد سيطر على كل الأحداث واحتوى الأزمة منذ ان حلت، لقد جلس بكل رصانة يتحدث عن الغد والتقدم والازدهار للوطن وعن اعادة الفكر المسالم عبر القانون الجديد وعن الانتصارات القادمة والحياة الكريمة للشعب: (سوف نشحذ كل الطاقات من أجل احتواء الأزمة)، لم تقو بوران على إخفاء صيحة محبوسة سمعها جميع المتابعين بما فيهم الرجل الأرنب الذي ترك اللعب مع ابن سماح الصغير واقترب منها، وقف قربها ثم التفت الى وجه بوران الذي كان يحتاج الى تفسير، رفع حاجبيه عاليا وتسمر قليلا قبل أن يتطلع بلمحة خاطفة الى جهاز التلفاز ثم قال: (أنه هو)، ابيها الذي قطب حاجبيه ولوى فمه بعد أن أمال

رأسه قليلا نحو كتفه بدا على قسمات وجهه اهتمام بالغ واستبقى ناظريه على التلفاز، قال بصوت متحرج وهو يرمق اضطراب بوران: (وجهه يبدو مألوفا لدي) ثم التفت الى وجه اثير قبل ان يستدير بكرسيه المتحرك ويعود الى غرفة المكتب ويوصد الباب خلفه، فيما بقيت بوران فاغرة فمها وعيناها مسلطة على المذيع الذي أنهى اللقاء وقال: (شكرا لك استاذ فراس حسين القاسم عضو البرلمان العراقي ومسؤول ملف اللاجئين على هذا اللقاء... أسعدنا حضورك).

كان هو ذاته فراس حسين القاسم، لقد أصبحت رئتا بوران لا تكفي لاستنشاق الهواء الذي حبسته بداخلها واستبقت بقايا نسمات كانت تتطاير في سماء الدهشة، وكأن الاقدار أخذت تدحرج كرات محشوة بالانتباه نحو شاشة التلفاز الذي لم يكن مربعا كاذبا هذه المرة، فقد أصبحت العين تبدد غبش الشك ليتضح اليقين، انها الصدفة الجريئة مرة أخرى، أخذت تكبر بداخل بوران التي تخيلت نفسها طائرا كان يسافر بعيدا الى عش الذات، يحلق نحو الأفق البعيد الى ما لا نهاية، " يا للروعة، أكاد لا أصدق عيني " قالت ذلك بعدها التفت سريعا على نفسها وأخذت تصعد درجات السلم بسرعة ولهفة، كانت تريد ان تكمل معه رحلته وتتواصل معه عبر الكتاب الذي كانت تريد من خلاله الوصول اليه، أرادت أن تكون على دراية بكل الماضي الذي

ارتكبه الزمن بفراس، وتكون جاهزة للتواصل مع مسيرته حين تلتقيه بداخل رحلته التي عانى منها الكثير وتسأله عن مكانه " ليل المنافي اين أنت ؟".

الكرباح الخامس ـ جزيرة ساموس اليونانية

لا نعلم كيف عبرنا هذا البحر ووصلنا الى أقرب جزيرة يونانية بقارب مطاطي يحمل على ظهره أكثر من ثلاثين مهاجرا هاربين يبحثون عن عالم جديد وعن مستقر لهم في احد الدول الاوروبية التي كانت الحلم الموعود، ساعتين من الخوف كانتا كالدهر الذي يكسوه الغموض يتبعهما المجهول القادم، كانت قناديل البحر تضيء المياه المظلمة التي كانت تحيط بنا من كل جانب، وكانت أضواء الجزيرة تقترب منا ببطء ونقترب منها بسرعة، تستقبل الأجساد المرتعبة و المتوجسة والفرحة في نفس الوقت.

لقد وصلنا الى ساحل جزيرة ساموس اليونانية بعد أن تعدينا مرحلة البحر الذي لم يكن سوى الفارق بين الموت والحياة واستعدادنا لرحلتنا القادمة التي سوف تكون بلوغ نهايتها هي المسعى الوحيد، فقد كان أشد ما نخاف منه هو أن تمسك بنا السلطات اليونانية ونحن في بداية طريق حياتنا الجديدة، لقد انتشرت العوائل الى مجموعات واخذت تتبع

مهربين متمرسين على خوض هذه المغامرات المدفوعة الثمن، كانت معنا عوائل عديدة أكثرها من الأفغان والايرانيين وأخرى من دول أفريقية متفرقة، أخذت تنتشر إلى جهات متفرقة، أما نحن فقد تعاقدنا مع المهرب اليوناني جيورجيوس الملقب بـ الفلاح وزوجته ساندرا اللذين كانا بانتظارنا، أخذنا نتبعهم سيرا على الأقدام وهم يسلكون طريق الغابات الذي يبعد عن مركز مدينة جزيرة ساموس أكثر من عشرة كيلو متر حيث الطريق الذي يبدو أكثر امانا عبر الاشجار الكثيفة ومن بعدها أخذنا بصعود جبل ليس بالكبير، رأينا من خلاله الأضواء المسلطة على البيوت التي طليت باللون الأبيض في اعالي قمم جبال صخرية أخرى، كانت البيوت تبدو وكأنها بيوت احلام أو كنائس صغيرة، بيضاء جميلة وانيقة ومنسقة ولكن ليست اجمل من بيت المهرب جيورجيوس الفلاح الذي بالرغم انه كان صغيرا الا ان حديقته المنسقة بعناية وأشجار الزيتون التي تحفها من كل ناحية زادته روعة وجمالا، لكننا لم نمكث طويلا به، فقد أحضر المهرب اليوناني سيارة جيب ذات دفع رباعي وقال أنها سوف تقلنا الى الميناء الذي ترسو به قوارب تستخدم لصيد السمك زودت بماتورات صغيره، كان يجب علينا أن نغادر قبل أن تحس بنا السلطات التي دائما ما تتواجد في هذه المناطق تبحث عن المهاجرين، لقد اوضحوا لنا مسار الرحلة

التي سوف تكون الأصعب بعد ذلك، مهربون سوف يبحرون بنا في القوارب يوما كاملا في البحر حتى نصل الى العاصمة اثينا، سوف يكون الأصعب ولكن ليست أشد صعوبة ان نحن بقينا هنا معرضين للاعتقال على أقل هفوة، لذلك اخذت زوجة المهرب اليوناني تساعد على ان نكون بأمان من السلطات اليونانية وتصر على ان نتبع تعليماتها.

لقد ارتحلنا وتقفينا أثر الأضواء التي كانت تبعث الدفء من البعيد على طول السواحل المتفرقة من الجزر، الهواء البارد كاد أن يلامس قلوبنا، فلم يزل القلب المرتق بالحنين الى الوطن نصفه يهذي والنصف الآخر يعاني من هذا الليل الطويل، ماذا جرى للسماء، لم يتوقف عصف الهواء الذي اخذ يلفحنا منذ ان أخذنا نشق عباب البحر ونحن في طريقنا الى العاصمة أثينا.

فراس حسين القاسم – شباط ٢٠٠٣.

تتبعت بوران الرحلة بكل تفاصيلها حتى قبيل الفجر، لقد بقيت مستيقظة حتى الصباح، روحها تترنح بين النعاس والصحوة، تمنحها الذكريات عمرا أصبح ينفع للحنين بعد أن اقحم فراس وجوده مجددا في حياتها، انتابها الأسى والحزن لهذه المسيرة التي كان ابوها سببا في خروجهم وتشريدهم

الى بلاد ليست بلادهم وطريق مجهول، شدها الحنين بقوة الى فراس في هذه اللحظة، زائر الفجر ترك ومضة في الصدر هزت كيان الحنين بكلمات لازالت عالقة بذاكرتها أخذت تشعل الأنفاس المتسارعة، لقد قال لها قبل أن يسافر: (لابد أن أعود غدا لأجلك وحدك)، لقد مضى على ذلك الحدث أكثر من أسبوع كامل قبل أن تستفيق من الصدمة، كان المفروض منها أن تنسى أو أن تتجاهل وتترك كل شيء للنسيان، ولكنها أحبت أن تثبت لنفسها أن الحب الذي تكنه له باق في داخلها وأن هنالك شيئا ما يدفعها للقائه، ربما ارادت أن تحاكمه أو تعاتبه أو أن تنتقم منه أو تطلب له الغفران ولكنها لن تتهاون عن إيجاده ان بحثت عنه بجدية، فبعد كل هذا الزمن هل تراه يعرفها او يتعرف عليها حين يراها بعد كل هذا الزمن، أخذت تبحث عنه في كل مكان، في الصحف اليومية وفي المجلات الدورية وفي مواقع التواصل الاجتماعي، عرفت عنه الكثير وعن طبيعة عمله، عند أية معلومة تعرفها كان قلبها يخفق من شدة الشكوك، مسؤول النازحين في الدائرة البرلمانية، كيف وصل الى هذا المركز المرموق وعلى هذا القدر من الأهمية، أين كان، لابد أن يكون هنالك في الأمر شيء لا تعرفه، تساؤلات لا يمكن لأحد أن يجيب عليها غيره، أرادت ان تلتقي به بأية وسيله وتفك رموز شخصيته بعد الشتات الذي يلازمه ويلازمها،

فقد وجدت شيئا مهما يشغل أوقات حياتها بعد أن عرفت مكان عمل فراس.

في صباح اليوم التالي قررت أن تخوض هذه المغامرة، لذلك بادرت بالاتصال بالسيد أصلان الذي ربما تجد معه حلا لبداية أول الطريق الذي سوف يوصلها الى فراس، عقدت معه موعدا سريعا في مكتبه الذي لا يبعد كثيرا عن المنطقة الخضراء وكان لها ذلك، أحست بضيق لم تعرف سببه عندما وصلت الى العمارة التي وصفها لها، دخلت عبر ردهة طويلة الى أن وصلت الى شقة كبيرة قديمة في الطابق الأرضي، حين دخلت عبر الباب الذي كان مفتوحا، تنفست عفونة المكان الذي طغت عليه الرتابة والهدوء، برغم الجو الذي يميل الى الدفء أحست ببرودة المكان القديم الذي تفوح منه رائحة أشبه بالينسون، عندما قطعت صالة واسعة تضم مكاتب صغيرة سارت نحو غرفة في المقدمة تحيط بها غرف أخرى يبدو أنها غير مشغولة، زاد من انقباض قلبها هذه الجدران المتقشرة والأرضية المتكسرة ذات الشعار الثماني للحزب، الضوء الخافت الذي زاد من كآبة المكان الغارق بالرتابة لم يشعرها بالرضا، لكنها حين دخلت الغرفة وجدت السيد أصلان ينتظرها خلف مكتب حديدي عريض يعلو سطحه مساحات جلدية تبدو غير مستهلكة، عندما رآها قام واستقبلها بحفاوة بالغة، اخذ بيدها وأجلسها على كرسي

خشبي منزو ليس أقل قدما عن غيره فيما هو جلس قبالها على كرسي عريض مهترئ الأطراف، لفت نظرها للوهلة الأولى تراكم الأوراق والملفات فوق ادراج طالتها الاتربة، أخذت تتطلع حولها بعينين فاحصتين بينما أخذ السيد أصلان يتطلع بها مليا قبل ان يقول لها: (يبدو أنك لم تفكري كثيرا بأمر الوظيفة)، كانت خجلة، نكست رأسها وأرادت ان تعتذر عما بدر منها في آخر لقاء لهم، ولكن السيد اصلان لم يعطها فرصة للكلام فقد اكمل حديثه وقال بنبرة أشبه بالحنونة: (أعرف ما تريدين قوله، الشباب دائما مندفعين)، ندت عنها ضحكة خفيفة أشبه بصوت عصفور يتبجح فيما هو تبسم لها وانتظر منها ان تتحدث، ارادت ان تنهي ارتباكها حين قالت بشكل سريع " لقد وعدتني بوظيفة اليس كذلك " عندها بدت على وجه السيد اصلان علامات الظفر، وكأنه كان ينتظر منها هذا القرار منذ زمن، ولكنه اعتدل بجلسته وقال لها بكل رزانة: (الكرة في ملعبك)، ارادت بوران في بداية الأمر أن لا تستعجل حتى تبعد عنها الشبهات ولا تبين مدى اندفاعها لهذا الامر الذي تمنت ان يكتمل بكل سلاسة، لكنها احبت ان لا تطيل بنواياها وحديثها حين توقف السيد أصلان عن الكلام واخذ ينتظر ردها، قالت بنفس السرعة التي أرادت أن تنهي بها الحديث " أريد وظيفة تكون في البرلمان " حينها أخذ السيد اصلان وقتا غير طويل وهو يمسح بيده على ذقنه،

أخذ يتطلع بوجه بوران الذي بدت عليه حالة من القلق ما لبث أن قام مسرعا الى الخارج ليغيب دقائق معدودة بعدها عاد يحمل بيده أوراقا أخذ يدون فيها معلوماتها الأساسية على عجل، بعدها انتظر كثيرا وهو يحك صدغه ثم قال وهو يشدد على مخارج الحروف: (موظفة الدائرة الإعلامية في البرلمانية، بالإمكان أن تباشري عملك في غضون أسبوع واحد، ما رأيك)، فرحت بوران عندما جرت كل الأمور على نحو من السهولة والسرعة، كانت الإجراءات سريعة وسهلة، لم يتجاوز انتظارها أسبوع واحد حتى أحضر السيد اصلان ورقة المباشرة الى البيت و سلمها اياها، لقد أحبت أن تدخل هذه المغامرة بكل ما تحمله من روح التحدي وأمل لقاء فراس، لذا وافقت على الفور من دون أن تسأل لماذا بهذه السرعة، لقد بان من خلال بريق عينيها شيء من الظفر، أهو العطف والحنين على شخصه أم هي بقايا قصة تنبأت بلملمة أحداثها مرة أخرى في لحظات من الحزم، أم كان هناك شيئ أخر بانت من خلفه بوادر الانتقام، لقد رأت خطوط حكايتها تتشابك بعفوية في لحظة من اللحظات، لكنها أيقنت الآن أن المسير نحو ذلك الذي أخذ يزرع فيها ليل نهار يقترب من الارادة والعقلانية، فبعد اليوم لن تمضي على مسطحات الشعور وحدها ولن تقف مكتوفة الأيدي عند خيارات الأمس ومفاجآت اليوم، ها هو القدر قد رتب لها بخطوات

ثابتة، عودة الروح الى قرار ليس لديها منه اليد الطولى حتى تصده، فليس من البديهي أن تتجاهل كل تلك الاشارات والعلامات التي أخذت تتوافد عليها وتعيد لها حكاية لا تعرف مدى نجاح القادم منها، اعتبرت أن اللقاء سوف يكون من مخلفات الماضي أو هو اتصال بالقادم ولكن جل ما كان يشغل اهتمامها الآن هو مكنونات الطرف الآخر فراس حسين القاسم، هل تراه لازال يحمل ما تحمله هي تجاهه، هل سيفض ذلك الصمت الذي أصبح مهزوما بين حنين متكسر يتيه بواد عميق يسكنها أم أنه يعيدها الى طوفان لا يرفعها الى سفح جبل او حتى انصاف تنصفها، أرادت أن تنهي حالة من وجدانيات المشاعر التي أخذت تحاصرها بنوبات من الاندفاع في بحر قد لج حول مركب يبحر بخطى مرتبكة نحو يابسة لا تحمل على الأشجار سوى القرود الموارية.

اليوم الأول في العمل، لم يكن عسيرا الى هذا الحد وهي تدخل الجزء الخاص للدائرة الاعلامية في المنطقة الخضراء وتكون في وظيفتها الجديدة، لقد ولد لدى بوران الارتباك في بداية الأمر ولكنها كانت تحاول أن تتصرف بطبيعتها، رزانة الى حد اللامبالاة وهدوء معتاد لم يفارقها منذ زمن طويل وملامح من الثبات بادية على محياها الى حد الهدوء والاستسلام لأي أمر طارئ، لم تبدو قسمات وجهها فاضحة الى قدر يوحي بكبر السن، وجه طفولي لم يمنع من

نظـرات الاعجـاب ولبـاس متحضـر وقـوام جميـل يغـري بالاستحسـان الملفـت للنظـر ممـا دعـا الـى أن تتعـرف علـى الكثير مـن المـوظفين ذي الوجـوه المكتبيـة بسـرعه بالغـة منـذ اليـوم الأول لهـا، يصـدرون تحيـات مصـطنعة واخـرى عفويـة اخـذت تتسـارع منـذ الصـباح البـاكر عبـر الممـرات، احاديـث خاملة هنا وهنـاك وبعـض الضـحكات التي مـا ان تعلـو حتـى تعـود عبـر همهمـات سـرعان مـا تنتهـي أيضـا بتحيـة السـلام، : (هذا هو مكتبك الخاص)، انتبهت الى مصدر الصوت، عندما اسـتدارت تفاجـأت بوجـود الاعلامـي الأسـتاذ أنمـار مقـدم البرامج السياسية يقف بقربها وهو يشير اليها بيده نحو مكتب صـغير يضـم جهـاز حاسـوب وبعـض الاوراق والاقـلام، بـدا على وجهه قسوة مفرطة بالرغم من لطافته حين رأته أول مرة فـي مكتـب أبيهـا، لـم يكـن ثرثـارا كمـا الآخـرين الـذين أخـذوا يتحدثون بصوت عال بل أخذ يتحدث بشكل جذاب وهـادئ وهو يقول: (سوف تكونين مرتاحة في هـذا القسـم) وأضـاف: (لا تهتمـي، الجميـع هنـا مبتـدؤون مثلـك)، مـن شـدة حركتـه الرتيبة الملفته للجميع، يجعلك لا تقـدر ان تتجـاوزه، لقـد بـدا رزينـا ولبقـا وحيويـا فـي صـباح بـدأت تكثـر فيـه الحركـة فـي الغرفـة التـي ضـمت عـدة مكاتـب صـغيرة لمـوظفين أخـذوا يتبادلون الأحاديث الجانبية، أخذ يقدم خدماته بغير ان تطلـب منـه المسـاعدة، يشـرح لهـا عـن طبيعـة عملهـا القـادم الـذي

يتضمن مراجعة التقاريرالواردة وادراجها في ملفات خاصة ترسل اليه في نهاية كل يوم، وأخيرا، هي الان في المنطقة الخضراء، منطقة يجتمع بها المباح المغلق، تجثم بعيدا عن أنظار الشعب العراقي في موقع لا يطؤها الا المقربون، تحمل أسرارا غير واردة على اسماع ومرأى الناس وحتى خيالهم، الحراسات المشددة التي لا تُخترق، كانت دليل على خوف السياسيين الجدد على انفسهم وعدم ثقتهم بما حولهم، لقد وصل بهم الحال الى حد الانعزال، وكأنهم في محمية بشرية مشددة بنوا حولها الأسوار الطويلة بالإضافة الى الحواجز الكونكريتية العصية على الانفجارات والعبوات الناسفة، طوقوا انفسهم بطوق لا يخترق وحبسوا أنفسهم بعيدا عن حنق وغضب الشعب الذي يتربص بالقضاء عليهم، لقد أصبحت هذه المنطقة دولة فارهة داخل دولة يكسوها الخراب، صنعوا علامة من علامات العنصرية السمجة بكل تبجح متناسين أزمنة الشتات والفقر في الغربة التي تحولت فيما بعد الى مكاتب مخملية ومراكز غير مسبوقة الوصف في الوقت الذي تركوا فيه عامة الشعب يعاني من شتات آخر يعزز الحنق الذي بدأ يتفاقم يوما بعد يوم.

لقد مضى على وجود بوران في العمل الجديد اكثر من اسبوع، لم يكن شاقا إلى هذا الحد الذي ينم عن الانزعاج، الموظفين يجلسون على المكاتب بلا عمل طيلة النهار،

يتبادلون الأحاديث والأخبار والمشروبات، فقد كان أكثرهم زائدا عن الحاجة، كانت سعيدة في العمل الجديد بقدر كبير، أبعدها عن أفكارها المتراكمة وأيضا عن جو البيت الخانق، لكنها كانت تخطط بروية وبكل هدوء عن كيفية الوصول الى مكتب فراس النائب في البرلمان، كانت تريد أن تجد اللحظة الحاسمة والفرصة المناسبة حتى تكون بقربه وتزيح الستار بيد الإصرار والترقب عن وجوده مما جعلها تواظب على الدوام في كل يوم على أمل أن تجد طريقا للذهاب الى مكتب فراس الذي عرفت مكانه بالتحديد، حاولت أن تذهب وحدها في يوم من الأيام من دون أي موعد ولكن كانت هناك حراسات مشددة حالت دون ذلك، حينها عدلت عن هذه الفكرة، حاولت أن تجد طريقة أخرى تكون بها هناك من دون أي معوقات، لكنها لم تأخذ وقتا طويلا للتفكير حتى اندفعت في صباح أحد الأيام الى مكتب مسؤولها المباشر السيد انمار ودخلت عليه من دون استئذان، حين اقتربت منه وألقت عليه التحية كانت مترددة في بداية الأمر عندما رأته ينظر الى وجهها باستغراب، ارادت تبدأ معه الحديث وتختلق سببا لوجودها أمامه في الوقت الذي أخذ يرتب بعض الأوراق خلف مكتبه، لم تنتظر كثيرا حتى بادرته بالسؤال عن معرفته بالنائب فراس حسين القاسم الأمر الذي جعله ينهي ترتيب بعض الحاجيات من على المكتب بشكل سريع وأخذ

ينظر اليها بعينا نمت عن تساءل مبيت، لكنه وبعد أن سادت لحظات من الصمت أخذ يتطلع بها من فوق الى تحت ما لبث وأن أكد على معرفته بالنائب فراس بصوت رتيب وأنه شخصيا يستوفي عروض التقارير المهمة في كل يوم الى مكتبه، كانت مُحرجة جدا عندما تطلعت بوجهه مليا وسألته ان كانت تستطيع الذهاب عوضا عنه في المرة القادمة، كان أمرا صادما بالنسبة له ولكن عندما تطلع بوجهها الذي بدا عليه الاحمرار سألها بكل هدوء: (هل أستطيع أن أعرف السبب) مما زاد في ارتباك بوران وخوفها من أن تفضحها تغيرات ملامح وجهها حين تذكر اسم فراس أمامه مرة أخرى، بالرغم من انها توقعت هذا السؤال الا انها كانت قد هيأت الجواب مسبقا، اذ تداركت تغير لون وجهها وردت عليه بكل رصانة حاولت اخفاء الارتباك من خلفها وقالت انها تريد أن تعرض عليه امرا يتعلق بحالة ابيها الصحية، عندها عرض عليها فيما اذا كانت تود أن يقوم هو بهذه المهمة عوضا عنها بحكم علاقته القوية به، لكنها ردت عليه بإصرار مبالغ به حين قالت أن الأمر يحتاج الى شرح مطول، حينها فهم من خلال موقفها انها من الأفضل أن تقوم بذلك شخصيا، بعدها أخرج الهواء من فمه بشكل عفوي، مسح على ذقنه ثم هز رأسه وقال بطريقة مصطنعة: (قد يكون هذا صعبا ولكن سوف احاول ان اخدمك هذه الخدمة)، قد

يستطيع السيد انمار فعل ذلك وقد يخفق في مسعاه فتضيع فرصة اللقاء وقد يكون من الصعب بطريقة او بأخرى ان تصل اليه بسهولة، أخذت تنتظر الجواب على أحر من الجمر أيام عديدة وهي في كل مرة تذرع الممر جيئة وذهابا وتخطو أمام مكتب المسؤول الأستاذ انمار، ولكن لم يدم انتظارها كثيرا، في اليوم التالي من عطلة نهاية الأسبوع جاءها الخبر سريعا وعلى غير المتوقع، حين ولجت الى مكتبها الصغير لتجد أنمار أمامها، كان بانتظارها يحمل ملفات بيده ما لبث وأن أخذها جانبا وتكلم معها وهو يحاول ان يخفض صوته عن عمد: (الأسبوع القادم سوف تحلين محلي مع هذه الملفات)، لقد بادرها احساس ممزوج بالفرحة والخوف في آن واحد، مواقف قد تكمل لها مسيرة احلامها المؤجلة وقد تعود منه منتكسة، جلست على كرسيها وهي تفكر بما سوف يكون به الغد حين تلتقي بفراس بعد الغياب، أحلامها التي قد تكون هي ذاتها أوهامها التي بدت من خلف غبش من غير ملامح تذكر ما هي الا تداعيات تتوجس في ظلمة حالكة كان النور بها زائرا خاطفا قرب قلبها الذي أخذ يُخرج بين الحين والآخر ومضة تتعدى حدود المفاجأة، فعندما يحين التقاء الأرواح سوف تهيئ الشموع وتسدل ستار الماضي على الأوهام.

لقد أخذت تقيس الفساتين وتخرج من الدولاب اجملها في هذه الليلة، تلبس الواحد تلو الآخر وتتفرج على هيأتها في المرآة، بالرغم من جسدها الذي بدأ يترهل في أجزاء منه مع مرور السنين، فقد بدأت بعض التجاعيد تغزو أجزاء من قسمات وجهها الدائري الذي حاولت ان تغطيه ببعض من مساحيق التجميل وتضيف بعض الرتوش الملونة عليه ولكن احساسها بالكبر بدا عميقا بالرغم انها لم تتجاوز الأربعين من العمر، لازالت عيناها الواسعتان تصرحان عن عزمها الذي لا يخبو من خلال بياض ناصع التف حول بؤبؤ بدا وكأنه كوكب بلون العسل الأسود، يرتسم فوق عينيها حاجبان كأذيال الشهب، انفها المدبب الذي علته انحناءة بسيطة في الأعلى بدا على شاكلته لم يتغير، فقط تلك الشامة الواضحة التي تقع أسفل أنفها والتي بدت كالقمر فوق تلال شفتيها، أضافت على قسمات وجهها الطفولي جمالا اكتملت حوله كل معاني الرقة والاغراء، نثرت شعرها المتسربل في خصلات كأنها الزوابع على كتفيها، وقفت واجمة أمام المرآة تتطلع الى نفسها مدة طويلة، استدارت حول نفسها وهي تحمل بيديها أذيال الفستان الغجري الذي اختارته من بين عدة فساتين لم تستهويها، اخذت بروفة كاملة وبدت بأجمل الأحوال، وقفت طويلا متسمرة أمام المرآة وكأنها ترى نفسها لأول مره ولكن وفي لحظة وجوم ارتجفت شفتاها، تذكرت

سراب العمر وانحناءات الأيام التي لم تستطيع أن تخفيها بسهولة والتي اخذت من نصف عمرها الكثير واودت بها الى هذا الذبول، تغيرت ملامح بوادر الرضا على وجهها، وبلحظة حزينة أحست من خلالها انها أصبحت مبتذلة ومركونة على قارعة طريق الزمن، أخذت دمعة من عينها تنساب بروية فوق خدها، أحستها تسري كما الجمرة على صفيح بارد، حين اقترب منها الرجل الأرنب كثيرا أخذ يمسح على خدها بيده، اراد ان يبعد عنها كل الهموم والحزن الذي تلقفها فجأة وقال بكل حنان: (ما يهم في الأمر أنك الآن في المنتصف) لكنها انتفضت ورفعت رأسها نحوه، تطلعت به مليا ما لبثت ان اتجهت بخطوات سريعة نحو النافذة التي فتحتها على مصراعيها ووضعت يديها حول فمها بشكل مستقيم ثم أخذت تصرخ صرخة الذئب.

لقد أخذ القدر يدبر لها هذا اللقاء المرتقب بشكل متسارع وكأنه يقصد ذلك، فقد بدا ذلك جليا عندما اتجهت مبكرا نحو مكتب النائب فراس وهي تحمل الملفات التي سوف تكون ذريعة للدخول الى مكتب النائب الذي دخلته بارتباك، حاولت مداراته بالرغم من أن الكثير من الموظفين لم يكونوا متواجدين بعد، مما اضطرها بأن تنتظر في صالة واسعة تفوح منها رائحة مكتبية أشبه برائحة الخشب المبلول، يوجد فيها مكتب عريض لسكرتير عجوز لم يتحرك عن كرسيه طيلة

جلوس بوران أمامه على كرسي في زاوية من الصالة، أخذ ينظر لها بين حين وآخر من خلف نظارة سميكة، ماهي الا نصف ساعة شابها الملل حتى أخذ المكان يعج بالحركة والأصوات فجأة، دخل رجل تحفه جوقة من رجال كثيرين لم تتبين من ملامحه شيء، فقد كان مسرعا حين دخل ومعه سرب الموظفين الذين تسارعت حركتهم، لابد أنه هو، مضت ساعة واحدة قبل أن يسمحوا لها بالدخول ولكن برغم تثاقل خطواتها إلا ان قدميها اخذت تحثها على الإسراع إلى الداخل، كانت تريد أن تقطع الشك باليقين وأن تتجاوز مرحلة الارتباك الى مرحلة ما بعد الدهشة، حين ولجت عبر الباب، وقفت قرب مكتب عريض مصنوع من خشب الأبنوس، يجلس خلفه رجل على كرسي وثير لم تتبين من ملامحه شيئا، فقد كان يعطيها نصف ظهره، أخذ يتناقش بهدوء مع عدد من الرجال الذين بدا على محياهم الانتباه الشديد وهم يحفونه من كل صوب، انتظرت ان يستدير بكرسيه الدوار ويرفع رأسه اليها ليراها، فقد مر الوقت عليها كأنه السنين، ترى هل سوف يتمعن بملامحها كثيرا، هل سترتعش يداه، هل يتلعثم حين يحاول الحديث معها، وهل يجزم بوجودها ويقول بكل ارتباك: (حقا لا اصدق ما أرى) أو أنه يطلق شهقة عالية مسموعة تثير انتباه جميع الحضور نحوها أو أنه سوف يتسمر بوجهها طويلا ويستعيد ذكريات

الماضي بلحظات متأنية قبل ان يقف ويتجه اليها ثم يضمها الى صدره باكيا ويقول لها انه افتقدها كثيرا، لكن الذي حدث غير ذلك تماما، فحين وضعت الملفات على الطاولة أمامه، استدار بحركة مدروسة نحو المكتب، سحب الملفات نحوه وأخذ يقلب الاوراق سريعا بعدها مرر بقلم أحمر على بعض الملاحظات ووقع بعضها بقلم أزرق ثم أطبق على الملفات وأسلمها اياها من غير ان ينظر اليها حتى بنظرة فضول واحدة، بعد ذلك أكمل حديثه مع رجل كان يجلس قبالته في الطرف الاخر من المكتب في حين استلمت هي بدورها الملفات بحركة بطيئة، ولكن قبل أن تهم بالعودة قالت بوران بصوت رفيع وناعم بالكاد قد بدا مسموعا " شكرا استاذ فراس " بعدها استدارت وأرادت أن تتجه نحو الباب لتخرج وتنهي بذلك مسرحية قصيرة كانت بطلتها قد هوت على خشبة المسرح متقطعة الأنفاس ولكن قبل أن تسير ببضع خطوات سمعت صوت يستوقفها بنبرة بدت هادئة بعض الشيء: (لحظة من فضلك)، حين استدارت نحوه، وقفت أمامه بكل وضوح وكأنها تريد ان تشعل في ذاكرته صورتها التي تمنت انها لاتزال في وجدانه، أخذ يتطلع بها بشيء من الشك الممزوج بالزهو، وكأن عيناه قد أفاقت على ماض أخذ يسير على مهل نحو قلبه، " نعم أستاذ فراس "، كانت هنالك أصوات تتعاقب حوله قبل أن يصل صوتها المرتبك إليه مما

جعله يلتفت عنها برهة ثم يعيد النظر نحوها مرة أخرى بلمحة خاطفة، وكأنه يريد التصديق من عدمه فيما هي وقفت أمامه بكل حزم، أصرت من خلال ثباتها على ان يراها بشكل صريح وأن تتقابل الوجوه، وكأن رياح الأمس أخذت تدب في المكان الذي بدأ يفرغ من كل الوجوه الا من وجهيهما المتقابلين، كان فيما يبدو أنه اراد أن يهيج الفراسة لديه ويستحضر ملامح وجهها بجهد كبير قد صرفه في أن يتذكرها، قطب حاجبيه وركز ناظريه في ملامح وجهها مما جعله يتفحصها بتركيز مبالغ به من خلف عينين متفرستين مالبث أن قال بصوت ركز به على مخارج الحروف: (أظن أنني أعرفك؟)، لكنها لم تشأ ان تطيل بذلك الموقف فقد حسمت موقفها وحزمت أمرها وقالت بكل وضوح قبل أن تتجه مرة أخرى الى الباب وتسدل ستارا من المتناقضات على مسرحيتها الوحيدة "لا اظن اننا التقينا قبل هذه المرة. . استأذنك أستاذ فراس"، حينها أخذ يتمعن بها كثيرا وهي تغادره مسرعة، كاد أن ينطق بكلمات حبسها عن عمد، لكنه أخذ يتابعها بنظرات متفحصة وهو ينقر برأس قلمه الذهبي على الطاولة.

ارادت بوران في هذا اليوم أن تسير لوحدها في طريق متشعب عبر الحواري الضيقة بعد انتهاء الدوام بالرغم من الجو الحار، تريد أن تتذوق طعم الحميمية بالحواري القديمة

وتسرح في تفاصيلها البسيطة، لم تتجاوز البضع خطوات حتى توقفت وعدلت عن إكمال المسير واتجهت الى الطريق العام، فقد أحبت أن تسير فقط الى اي مكان وفي اي طريق تسترجع به موقف لقائها مع فراس، لكنها أحست بهاجس يتربص بها عن بعد، أحست بأن هناك عيون تتبعها وانفاس سريعة لاهثة خلفها تحصي خطواتها الرتيبة، لم تلتفت الى الخلف بل تركت اذنيها تستمع الى صوت الخطوات التي أخذت تقترب منها أكثر كلما حثت قدميها على المسير اكثر، مما زاد من ارتباكها وخوفها وتسارع في دقات قلبها بعد أن سمعت صوتا كالمبحوح ينادي باسمها بهمس الى أن أقترب منها، أخذ الشخص يسير بقربها ما لبث وأن رمي بكفه على كتفها، أخذت نفسا عميقا قبل أن تستدير وتلتفت نحو هذا الغريب الجريء الذي سمح لنفسه ان يمسها لتصطدم بوجه الرجل الارنب الذي أخذ يحرك حاجبيه الى الأعلى وهو يبتسم ابتسامة حانية، تطلعت بوجهه مليا وأخرجت الهواء المتبقي بداخلها دفعة واحدة ثم بادلته الابتسامة وأكملت سيرها في الطريق الذي ابتلعها وضمها داخل الزحام، فيما تبعها الرجل الأرنب ويداه خلف ظهره وهو ينظر الى الأسفل

.

الفصل الثالث

قال: لا تشتت ولا انبهار فقط التقطي أنفاسك واتبعي صدى النور الذي يخرج من أعماقك.

قالت: هل تراني أفعل ذلك بامتنان؟.

قال: سوف تفعلين أكثر من ذلك حين تشتعل في الأفق تراتيل الرياح.

قالت: ماجنة تلك الريح لا تبعث على الطمأنينة تراها عصفت بمحاصيل الشعور واحرقت سنابل الأحاسيس الجافه.

حيث تحاصربوران الظنون، تكتظ معاني التشتت في ذهنها المشوش رغما عنها، وحيث يتمادى ناقوس الشكوك في بعثرة الأحداث الرتيبة، تتكرس أشياؤها بالنواح الخافت بركن معزول من الغبطة، فقد تندمل توجساتها المؤجلة عندما تتبع خيط النور القادم من منطقة مريبة، وقد تكون الكلمات التي كانت تهدئها وأشياء أخرى تولد من رحم النزوح الي جرحها الغائر الذي يصرخ في ليل يحتويها بكل ما اوتي القدر من مخاض الأشواق التي بدأت تندلق على موروث الترقب، كانت الوعكة التي ألمت بها شديدة، لم تسعفها قدماها على الوقوف في بعض الأحيان، أصبحت خاملة يشدها السرير دائما للركود وقد بدا على جسدها النحول، تساورها الشكوك والاضطرابات التي أثرت على حركتها التي أصبحت بليدة، فقد غالبتها الحمى واشتد عليها المرض بالرغم من المسكنات التي واضبت على أخذها، لقد مضى على مرض بوران بالزكام أكثر من يومين وهي على نفس وضعها الصحي، لكنها حين أخذت تواظب على الخلطات التي عملتها العمة أصيله من أعشاب حتى شعرت بتحسن تدريجي، فقد بدأت حالتها تميل الى التحسن و التحول الى وضع أفضل مما كانت عليه بالرغم من بقايا الخدر الذي أحست به في الرأس وهي مستلقية على السرير ترمق ضوء

الشمس المحبوس خلف الستار عبر نافذتها التي تركتها شبه مفتوحة طوال اليوم من أجل تجديد الهواء، أحست أن باب الغرفة يفتح، لم ترفع رأسها وترى القادم، ولأول مرة دخلت عليها عمتها أصيله من دون استئذان، ازاحت الستار وفتحت النافذة على مصراعيها ثم اتجهت نحوها، قالت بنبرة حازمة دون أن تنتظر منها أية إجابة: (لا يجب ان تكوني على هذا النحو من الخمول)، أجبرتها على الوقوف، البستها معطفها الأسود الطويل، شدت على رقبتها شالا من الصوف، لكن بوران استدارت والتقطت كتاب ليل المنافي بيدها قبل أن تسحبها العمة أصيلة من يدها عنوة نحو الطابق السفلي حيث كان أبوها وسماح مجتمعين بصمت حول طاولة الطعام في المطبخ، بحثت عن أثير الذي كان غائبا منذ فترة طويلة ولم تجده، لابد انه معتكف كعادته في غرفته أو أنه مسافر، كانت نظرات ابيها ترمق وجهها ووجه سماح بين حين واخر، اراد ان يقول لها شيئا بدا مهما ولكنه لم ينطق بشيء ففضل السكوت حين رآها على هذا النحو من التعب، لكنه وبعد فترة وجيزة قال لها مستفسرا: (هل لا زلت تشعرين بالمرض ؟)، أومأت برأسها من دون أن تنظر اليه ولم تزد على ذلك شيئا، رأت الولد الصغير واقفا في الخارج يمسك بخيط طائرته الورقية، يلعب مع الرجل الأرنب، ادارت رأسها نحو

عمتها أصيلة، أخذت تتابع حركتها المثابرة وهي تخطف بين حين وآخر تجهز وجبة الفطور.

كان الصباح أكثر خمولا، رأت بوران الجميع على نفس ما توقعت، اختها سماح لازالت كما الغائب الحاضر، لا تتكلم، كانت في عالمها الذي أخذت تبنيه حولها والذي لم تحاول أن تخرج منه إلا لغرفتها فقط، توصد الباب عليها لعدة أيام لا تخرج إلا إلى تناول الطعام، أما الابن الصغير الذي لايزال يصنع طائرته الورقية من الورق وأعواد الخشب عكف على ترتيبها وزخرفتها بعيدا في باحة المنزل مع الرجل الأرنب الذي بان عليه الحماسة، كان يصنع عالمه الخاص أيضا، أما ابوها، عندما انتهى من طعامه، اعتكف في مكتبه ولم يخرج، لقد باء الجميع بالصمت والعزلة، كأنه مرض استشرى بينهم مما أثار في نفسها الضيق، قامت وأخذت كوبا من الشاي بعد أن انسحب عنها الجميع، خرجت الى حديقة المنزل الخلفية وهي تشد حول رقبتها شالا من الصوف، أخذت تسير بتثاقل على الأرض الطينية الى ان وصلت الى كرسي عريض قرب شجرة البيت الكبيرة وجلست بهدوء تحتها، بوادر تقلبات نهايات أيلول بدت واضحة عليها، شحوب وجهها أوضح انها تحتاج الى ايام إضافية حتى تتعافى تماما، لقد سرت بجسدها رعشة خفيفة اضطرتها على التكور قليلا برغم الجو الدافئ، أغمضت عينيها للحظات بعد

أن سحبت نفسا عميقا، استنشقت رائحة أشبه برائحة الأغصان المحترقة، حين فتحت عينيها وجدت الهواء يتموج أمامها وكأنه رداء ابيض شفاف يسبح في الفضاء ما لبثت وأن أخذت تفرك عينيها وفتحتهما من جديد حتى استقر كل شيء أمامها وعاد الى طبيعته، امتدت يدها نحو كتاب ليل المنافي، سحبته نحوها واخذت تقلب الأوراق بسرعة الى ان وصلت الى آخر ما انتهت عنده حين وصلت عائلة فراس بعد رحلة العناء عبر البحر الذي خلفوه وراءهم واتجهوا الى العاصمة أثينا، أحبت أن تكون لوحدها مع الكتاب الذي أخذ يلازمها دائما، أرادت أن تجهز على قراءته، احبت أن تعرف الى اين وصل فراس في رحلته والى اين اتجه بعد ذلك، لقد عانوا الكثير في هذه الرحلة وتجرعوا مرارة الغربة والشتات.

الكرباح السادس – أثينا

في هذا الليل مررنا بأطراف العاصمة أثينا التي بدت هادئة ونحن في طريقنا نحو بيت غير بعيد كان يعرفه المهرب جيورجيوس الملقب بالفلاح وزوجته ساندرا اللذان أخذا يلا زماننا منذ أن وطأنا الأراضي اليونانية، لقد كانا كمرفق سياحي يشرحان تاريخ هذه المدينة التي تجمع بين تاريخ عريق وحداثة ملموسة، مدينة تثير الفضول، مررنا على تل

أكروكـوليس الـذي رأينـا معبـد البـارثينون يقبـع فـي الأعلـى كشاهد على العمارة الإغريقية الجميلة ثـم عكفنا على منطقة جراميكـوس ورأينـا مـدخل أسـوار المدينـة الحجـري، كـان المهرب يشرح عن كل المعالم التي مررنا بها، ومن البعيد أشـار إلـى قمـة جبـل أوليمبـوس وقـال أن هنـاك يقبـع تمثـال زيـوس الإلـه فـوق جبـل الأوليمـب، بعـد ذلـك تحـدث عـن المدينـة بشـغف وفخـر شـديدين حيـن قـال ان أثينـا تعتبـر أول عاصمة ثقافية لأوروبا كونها أحد أقدم المستوطنات التاريخية التي أستمد منها الأسطورة والخيال.

لقد كان الجمال في كل مكان، تكشفه الأضـواء المسلطة على التماثيل والمعابد والبيوت التراثية في ليالي صـافية مما أثار البهجة بقلب إصرار وأبرار اللتين أخذتا تشـهقان وهما يريان عبر زجاج نافذة السيارة كل المعالم التاريخية في كل مكـان ممـا دفـع اختـي ابـرار بـأن تقـول بصـوت عـال (أريـد أن أسـير فـي الشـوارع) ولكـن الجميـع كـان مرهقـا مـن الرحلـة البحرية القاسية، لذلك كان الوصول الى الفراش هو أشد ما كنا نتمناه في هذه اللحظات ونحن في أشد حالات الإعياء.

كـان الجـو يزداد بـرودة كلمـا ابتعـدنا عـن العاصـمة ونحـن في اتجاهنا الى منطقة سالونيك التي قال المهرب أننا لابـد أن نصـلها قبـل الفجـر، لكننـا قـد نحتـاج الـى دفء مضـاعف مـن أجـل أن نقـاوم هـذا البـرد الـذي أخـذ يـؤثر علـى أقـدامنا التـي

كادت أن تتجمد بالرغم من وجود مدفأة السيارة التي لم تف بالغرض، كانت اختي إصرار التي أخذ المرض يشتد عليها هي أشد المتأثرين بهذا الجو، فقد أخذ الضيق والوهن يتابها كلما زاد المهرب من السرعة مما جعلها تسعل بشكل مستمر، كان موقفنا لا يحسد عليه ونحن نقطع المناطق المكشوفة في هذا الليل فقد وصلنا الى أشد حالات التعب والارهاق الذي بدا على وجوهنا بشكل جلي وقد نحتاج الى نوم عميق وراحة أكثر من يومين قبل أن ننطلق نحو الحدود المقدونية لاحقا، قال أبي موجها كلامه الى المهرب بلكنة انكليزية ركيكة (نحتاج إلى الراحة) ولكن المهرب أصر على اكمال المسير وكأنه لم يسمعه حين زاد من سرعة السيارة العريضة التي أخذت تلتهم الشارع الفارغ مبتعدة عن العاصمة أثينا.

فراس حسين القاسم – شباط ٢٠٠٣.

تأملت بوران قليلا الأحداث في سكون، اخذت تتطلع الى البعيد بعيون شارده وقلب مهزوز وهي تقرأ سطور حكاية فراس، كانت تريد أن تتابع القراءة لولا أنها سمعت طرقاً على الباب الرئيسي للمنزل، وصل الى مسامعها واضحا، اصوات اقدام تدخل على غير العادة المعهودة، لا

بد أنهم أصدقاء ابيها قد أتوا لاجتماع مهم على غير العادة، الاجتماعات دائما ما تكون في الليل، لابد أن هنالك شيئا طارئا لا يحتمل التأجيل بعد الأحداث الأخيرة المتسارعة، لكنها لم تشأ هذه المرة أن تعرف ما يدور حولها، فقد أصبح كل شيء لديها غير مهم، ولكن ماهي الا دقائق حتى سمعت صوت وقع اقدام لشخص يتجه نحوها، أخذ يقترب من خلفها أكثر فأكثر وكأنه يقصدها ما لبث أن وقف على مقربة منها واستكان خلفها، حين استدارت بعفوية لترى الواقف خلفها، وجدت أن أثير يقف ببدلة رسمية، يدس يديه في جيوبه وقد علت على وجهه ابتسامة صفراء خافتة، عندما تمعنت بوجهه رأته على غير هيئته المعتادة، لقد تغيرت سحنته التي بدت أكثر سمرة، أطلق لحية طويلة بدت مهملة بالرغم من محاولة تشذيبها، لم يتكلم معها بأية كلمة بل اقترب منها كثيرا وسحب الكتاب من يديها بكل هدوء، أخذ يتصفح الأوراق بنفس الهدوء المصطنع وقال: (أسم جميل، ليل المنافي)، كانت بوران صامتة حين أخذ أثير ينظر اليها والى الكتاب بنفس الوقت ما لبث وأن ارجعه اليها وهو يقول بصوت صريح: (هنالك من يود رؤيتك)، نظرت اليه مستفسرة، انتظرت منه ان يكمل جملته ويقطع كل حبال تصوراتها، لم تجد الجواب من وجهه الذي ظل ساكنا، لكنه لم يشأ ان يتركها تنظر اليه أكثر بشيء من الغموض، قال وهو

يحك بلحيته: (أنه موفود من العمل)، كان الخبر وحده كفيل بأن يوقفها صامته امام أثير الذي تمعن بعينيها كثيرا، لوى فمه عندما رأى ابتسامتها الطفيفة التي كانت أقرب الى الضحكة، أرادت بلهفة أن تستفسر أكثر عن القادم الذي يقصدها، لكنها توقفت عن ذلك حتى لا تفضحها لهفتها امام أثير الذي قبل ان يعود من حيث أتى ويدلف من الباب، استدار نحوها ووجه أصبعه نحوها كالمحذر وقال بصوت عالي:(لا تتأخري)، حينها شيعته بنظرات اثارت الكثير من التساؤلات التي بدت كأنها معلقة على الأغصان التي حطت عليها بعض من العصافير التي بدأت تزقزق، كانت تريد اجوبة شافية تزيح المتاهات العالقة بالظنون، تبدأ بنقطة مفهومة تعيد من خلالها قراءة حكاية زيارة رجل غامض في هذا الوقت المبكر، " هل يكون فراس حقا "، حين قامت بوران واتجهت الى الصالة وجدت أبوها وأثير يجلسان قرب بعضهما بالإضافة الى السيد أنمار مسؤولها المباشر، كان من العجب بمكان أن يكون هو من يتفقدها ويأتي الى موظفة لديه الى منزلها، لابد أن يكون في الأمر سرا أو شيء طارئ، ما ان رآها الأستاذ أنمار حتى قام وأستقبلها على نفس حركته المتأنية ووجهه اللطيف وابتسامته الطارئة التي لا تظن انها سوف تتغير أبدا، عندما أخذت مكانها بين أبيها الذي كان حاضرا وبين أثير الذي أخذ يتفحصها بنظرات لم تفهم منها شيئا، كان أنمار قد

بدأ الحديث حين قال: (لقد علمت من أبيك ان سبب غيابك عن العمل هو حالتك الصحية)، قال ذلك وانتظر لحظات بعد أن أومأت بوران برأسها علامة على تأكيد حديثه، أراد أن يتخلص من حديث بدا أنه أثقل كاهله، أنتظر لحظات أخرى أبتلع فيها ريقه قبل أن يقول جملته الثانية التي انتبه اليها الجميع بشيء من التعجب: (لقد بعثني اليك السيد النائب فراس حسين القاسم)، حينها أحست بوران أنها تبعث من الموت الى الحياة من جديد، لقد استطالت المواقف المتعاقبة في توترات الأقدار التي كانت تترصد أول اللقاءات، أخذت الهواجس تنزف متفردة عند مكر الذاكرة التي عملت على ازدياد الشجون التي تراكمت على رف مهمل، كانت سارحة الذهن تترقب خبرا ينقذها من توجساتها المتلاحقة لكن أنمار بدد كل هواجسها حين قال بشكل اقرب للهمس: (لقد تقرر نقلك الى مكتب السيد النائب فراس)، كان القرار مفاجئا بالنسبة لها، حمل مغازي عديدة اهمها ان فراس عرفها وتأكد من شخصيتها ويريد ان تكون قريبة منه، الأهم من ذلك انها تيقنت أن مكانتها لازالت عنده لم تتزعزع والا لما كان على هذا النحو من الاهتمام، بعد أن استفاقت من الصدمة وجدت أنمار يستعد للمغادرة، لم تحاول أن تسأله شيئا عن طبيعة عملها الجديد بل انتظرت منه ابتسامته الطارئة التي رسمها على وجهه قبل ان يودعهم ويتجه الى الخارج،

لم يعلق ابوها على الموقف بل تنبه الى اثير الذي سأل عن فراس حسين القاسم وعلاقته بالأسرة، حينها رد ابوها عليه وقال: (سوف أخبرك بكل شيء في غرفة المكتب).

لقد أصبحت قريبة منه بالفعل، مكتب صغير على بعد باب واحد فقط من مكتب النائب فراس، عمل جديد ليس له دخل بالتقارير الإخبارية أبدا، لقد تفاجأت عندما استلمت مكانها أنها اتت بصفتها الجديدة كسكرتيرة اعلامية مساعدة، بعيدة كل البعد عن مجال عملها الأساسي، لم تجد سوى سيدة بدا أنها في الأربعين من العمر، طويلة القامة، ضئيلة البنية، سمراء الوجه الى حد الدكانة، رحبت بها في حفاوة بالغة وعرفت نفسها بالسيدة أيمان سكرتيرة المكتب الإعلامي للنائب فراس، سيدة من شدة انشغالها تكاد لا تراها الا نادرا ومن شدة حركتها الدؤوبة تتفادى دائما بأن لا تتعثر بالسجاد الذي فرش على طول الممر المؤدي الى مكتب النائب، لا تكاد تأتي وتجلس على مكتب صغير كان في المقابل من مكتب بوران الجديد حتى تعود مرة أخرى في مهمة جديدة أوكلت اليها، لقد مضى اليوم منذ مباشرتها لعملها الجديد دون أية حركة تذكر، تأملت بوران أن يبعث فراس في أثرها في أي وقت، انتظرت كثيرا بتوجس بالغ، لكنه لم يفعل أي شيء فاستسلمت للظنون والملل، هل تراه نقلها بقربه حتى يتأكد من شخصها، أم تراه ينتظر اللحظة

المناسبة حتى يلتقي بها بعيدا عن أعين الرقباء، الذي خفف عنها هذا الجو المضطرب تلك السيدة التي بدا عليها الإرهاق من شدة المهمات، عندما عادت وجلست خلف مكتبها، اخذت تحدثها بتذمر عن كثرة متطلبات السياسيين وعملها المضني معهم، وكيف أصبحت تعمل كل شيء بالنيابة عنهم وهم لا يعملون شيئا سوي انهم يوقعون الأوراق التى تزداد يوما بعد يوم، أخذت تتكلم بلا رادع، حدثتها عن زوجها العاطل عن العمل، الذي دائما ما تهلكها متطلباته وعن مصاريف الأولاد ايضا وعن غلاء المعيشة و فواتير الكهرباء والماء وعن غلاء الايجارات، كادت أن تسهب في الحديث برغم صمت بوران التي أخذت تستمع لها بتركيز، لكنها ومن دون أية مقدمات فزت واقفة وكأنها تذكرت شيئا مهما اجبرها على قطع حديثها والخروج مسرعة من الغرفة التي سادها السكون، ولكن بعد مضي وقت ليس بالقصير انتبهت بوران الى ساعتها، لقد شارف الدوام على الانتهاء، أخذت تلملم أشياءها بحقيبتها الصغيرة استعدادا للرحيل، وما ان نهضت حتى دخلت عليها السيدة أيمان مسرعة تحمل بيدها ظرف مختوم بحجم ظرف الرسالة العادي وأسلمتها اياها، قالت أنه من مكتب النائب، عندما التقطته بوران وضعته في حقيبتها من دون ان ينتابها فضول فتحه او رؤية محتواه فقد خمنت في الحال أنها رسالة مهمة، ومن دون أن تودع السيدة

أيمان التي أخذت تتطلع بها في حيرة، سارت عبر الممر المؤدي الى البوابة الخارجية بسرعه.

في هذا المساء، رافقتها الثريا وأمطارها الجواب رعشات في البدن، غير مألوفة كانت احاسيسها بالنبض العميق الذي أخذ يسرح في الوجدان كأهزوجة ترمي على الشفاه هذيان قلق قرب أنفاسها التي بدأت تتعالى وهي تحمل الظرف بيدها، أخذت تتطلع في الأركان، قد يكون خطابا صريحا يحمل بداخله سر سعادتها او خذلانها ولكنها لم تشأ أن يطول ذلك كثيرا لذلك أخذت تنادي على الرجل الأرنب الذي لم يكن حاضرا في هذا الوقت، دارت تبحث عنه بين الأدراج وتحت السرير وخلف الستارة ولم تجده، تنهدت قبل ان تتجه الى الظرف وتحمله بيدها، اخذت ترفرف به على وجهها المحتقن وكأنها تريد أن تجلب شيئا من البرودة، نظرت اليه مليا قبل أن تفضه وتخرج منه ورقة صغيرة مطوية، عندما فتحتها على مهل قرأت: (بوران... اريد رؤيتك غدا في الساعة الخامسة بمطعم الساقي في بغداد الجديدة... فراس)، أصرت على أن تعيد القراءة مرة أخرى، تمنت أن تطير في السماء، استدارت على نفسها دورتين وكأنها تداعب هواء الغرفة الذي تلون واصبح باللون الوردي، لكنها توقفت لتجد الرجل الأرنب واقفا أمامها مبتسما يحمل بيده خريطة سلمها لها، وجدته قد وضع علامة على مكان المطعم الذي سوف

تلتقي به فراس، ندت منها ابتسامة خفيفة، بعدها تطلعت في وجهه الذي لم تفارقه الابتسامة العريضة مليا وقالت " لن أذهب ".

لقد مرت الصباحات المتتالية ثقيلة جدا على بوران، أصبح قلقها يتزايد كلما ذهبت الى العمل، اعتبرت ان الذي فعلته هو الحماقة بعينها، كيف تجاهلت موعده بهذه السهولة وهي التي كانت تنتظر هذا اللقاء على أحر من الجمر، مرت الأيام بليدة وعادية الا من حركة الموظفين المتوافدين الى المكتب في كل مرة بشكل مستمر الى أن جاءها الخبر الذي قلب كل توقعاتها، فقد كان أمر استدعائها الى مكتب النائب فراس بشكل رسمي قد وقع في صدرها وقعا رهيبا، كان الأمر مصدر غرابة السيدة أيمان التي اخذ تتطلع بها بشكل ملحوظ بين الحين والآخر وقد تعمدت أن تتحدث عن شخصية فراس وأهميته في هذا الوقت الحرج بشكل يخفي من خلفه تساؤلات كثيرة، فيما هي أخذت تستمع لها وقد علت وجهها بوادر الشرود، لكنها وبعد فترة وجيزة استأذنتها واتجهت الى مكتب النائب، قطعت الردهة المؤدية الى المكتب حتى وصلت الى الباب الذي كان الرجل العجوز ذو النظارات السميكة واقفا أمامه، استقبلها في رتابة وأجلسها على كرسي غير بعيد فيما هو دخل الى الداخل، لم يدم انتظارها طويلا فسرعان ما جاءها الرجل العجوز مرة أخرى

يخبرها بوجود الاستاذ فراس في مكتبه وأنه يود رؤيتها، لقد أقبلت هذه المرة من دون اي توقعات ومن دون اي ارتباك، لم يثنها الخجل عن السير قدما نحو الباب الرئيسي الذي ولجته وتركته خلفها مفتوحا، أرادت أن تجزم بصدق نواياه لذلك ألقت عليه التحية ووقفت لبرهة قبالته، كان فراس يستند بجسده على حافة النافذة العريضة التي جعلته في قلب نور الشمس الذي أخذ يشع من خلفه وهو يثني يديه فوق بعضهما، أستقبلها بنظرات باسمة ووجه حنون، لم تسعفها قدماها على الوقوف على أرضية المكتب الرخامية، فقد انتظرت استقرار الكواكب التي أخذت تدور حول رأسها دورة كاملة حتى تعيد ضبط جسدها على الأرض، اجتاحتها موجة من البرد عصفت بداخلها جعلت قلبها ينتفض بشده، قال لها بصوت اتى من مكان حرج، كأنه من الماضي: (لم أتصور بأني سوف التقيك في يوم من الأيام)، لقد حاولت أن تكذب على نفسها وتقول له أنها الصدفة ولكنها لم تقل، فتحت عناوينا من التساؤلات وبعض المسودات القديمة في حاشية أصل الحكاية، تسمرت أمامه وكأنها تمثال من ورق، أحبت أن تقول كل شيء ولم تقل، كادت أن تفصح عن سرب الحمام الذي أطلقته في الليالي ولم يعد، كانت خائفة من الوقوف على بعد لحظات من جسده لأنها تعودت على غيابه، أصبح وجوده شيئا أكثر غرابه مما كانت تتوقع، فقد

كانت صورته مشوشة في الذاكرة التي لا تحمل أية صورة جديدة من وجهه الصريح الذي بدا أكثر وسامة، ها هو يأتي بعد طول غياب، يتقدم نحوها، يحمل حقائبه التي تعلم أنها مثقلة بالكلمات المفقودة، وها هي كما تركها في السابق، خريطة من العذاب، عذاب فراقه كل هذه السنين التي أيقظت بداخلها حنين الأيام الدافئة لصدر يلفها ويغطيها، قد لا تصحو من دفء حديثه أبدا و تطرد شبهات الأمس على لوحة مليئة بالألوان والخطوط المتعرجة، وقد يمنحها الزمن لوحة جديدة صافية تخط عليها أجمل مشهد لرجل يرسم الشوق بداخلها امواجا هادرة وحنينا حان قطافه، يعوضها عن أيام الخراب ويرمم بقايا امرأة، قالت له " هل تتذكر "، حينها خرجت منه حسرة طويلة قبل أن يرد عليها بصوت حالم وهو يتقدم ويقف قبالتها: (وهل نسيتك حتى اتذكرك)، أخذت تنظر الى الرجل الأرنب الذي وقف خلف فراس وقد علت وجهه ابتسامة مكتومة، عينان كادتا أن تدمعا وهو يحنى رأسه انحناءة لطيفة كادت أن تسقط على كتفه، بادلته تلك الابتسامة المكتومة ولم تشأ أن تضع عينيها بعيني فراس المتقدتين، لكنها رغما عنها انتبهت على صوته حين قال: (لقد بحثت عنك في كل مكان ولم أجد من يرشدني اليك، لا أعلم كيف حدث هذا في ذلك الزمن) حينها توقف بضع ثواني عن الحديث ليرى تأثير كلماته على وجه بوران الذي

بدا اكثر خجلا يحفه الصمت من كل جانب، ولأول مرة رفعت ناظريها نحوه ثم أخفضتهما، كأنها تريد ان تستعيد شيئا من شجاعتها وتعود لتجابه نظراته من جديد، لكنها ما لبثت أن قالت له بصوت بدا متلعثما، كان أقرب الى الاختناق " استعجلت الرحيل " حينها تمعن في وجهها كثيرا وكأنه يريد أن يستعيد قراءة كتاب قديم امامه بداخله اسرار لا تنتهي لطالما شغف في قراءته، قال وهو يحاو أن ينزل على مسامعها برفق كلمات أشبه بالاعتذار: (ما كان هنالك خيار اخر غير الذي كان، أنت تعلمين ذلك جيدا)، عند ذلك برقت الأعين لأول مرة حين تقابلتا، اخذت النظرات الوقت الكافي في فحص ردة فعل بعضهما لبعض، ارادا أن يعيدا شيئا ما كان قد تكسر على سواحل الحواس، كان الصمت الذي حفهم يحمل لحظات قد كمنت خلفها احاديث كثيرة، لكن الأصوات التي أتت من الخارج أصرت على قطع اي حديث مرتقب، مما اضطر فراس بأن يقول وهو ينظر الى الباب المفتوح بنبرة اشبه بالجدية: (هذا ليس مكان آمن للحديث) بعدها أخذت نظراته تتنقل بينها وبين الباب الذي توقع أن يدخله أي شخص فجأة وبين بوران التي اصابها الحرج، لكنها قبل أن تستدير وتذهب الى الخارج أمسك فراس بيدها واستوقفها وهو يقول: (سوف أرسل لك رسالة تحدد مكان

اللقاء القادم) وافقته الرأي حين أومأت برأسها قبل أن تخرج فرحة وكأنها مراهقة تنتظر موعدا غراميا.

هكذا كان اللقاء الأول كما تمنته بوران، جلسا متقابلين على طاولة في المطعم الفخم الذي اختاره فراس في وسط مدينة بغداد، كان ركنا هادئا تحيط به بعض الأضواء الخافتة، لقد رأته على هيئته القديمة التي لم تغيرها السنين كثيرا، الوجه المستطيل الذي تتخلله لحية خفيفة طارئة على وجهه، شاربه الذي كان أكثر كثافة خف وأصبح كما أنه مساحة من سجادة رمادية، وأيضا شعره الكثيف الذي بدأت تخرج منه مساحات بيضاء قرب فوديه، أصبح أكثر سمنة، ولكن ابتسامته كانت حاضرة لم تتغير منذ ذلك الزمان، كان لقاء أشبه بالعتاب، لقد عادا معا الى الذكريات وكأن الزمان يعود بهما الى الوراء، الى ذلك المكان الذي جمعهما في أول لقاء في حديقة الزوراء، عند تلك النخلة التي وقفا تحتها طويلا، استرجاع ذكريات ضاربة في عمق الزمان الغابر، كان لها مكانتها ورونقها وكأنهم يرون انفسهم لأول مرة حين كان اللقاء الأول شرارة لبداية علاقتهما، كانا يسردان على بعضهم كل لحظة يتذكرانها بشغف ولهفة، سطروا مواقيت للفرح والسعادة وتنازعوا فيما بينهم على الضحكات، حلقوا مع أحاديث تسابقهم بعفوية، لم يتوقفوا عن الكلام وكأن القصص المتوالية لن ولم تشبع شوقهما الذي اخذ مكانه

على أفواههم الشبقة، لقد تكلمت بوران عن معاناتها في الغربة بعد هروبها من العراق إلى سوريا بعد التحرير بإسهاب ولم تأت على ذكر شيء يمس صفاء الحديث فيما هو تكلم عن وضعه الان ومسؤولياته الحكومية وعن المشاغل والمشاكل التي يمر بها وعن النازحين الذين اوكلت مهمة ايوائهم له، وكيف اخذت الاحداث الأخيرة الدامية منه الشيء الكبير من الراحة وانه لا يكاد ينام في بعض الليالي حتى يصحو مفزوعا على أخبار جديدة مروعه، كانت احاديثا لا تنتهي وذكريات عن الاصدقاء والجيران والمنطقة والحارة والشوارع والنهر والمقاهي، تكلموا عن الأصدقاء والوجوه التي غادرتهم وغادروها بعد الأحداث وعن الذين ماتوا والذين بقوا أحياء، كان كل منهما يبدو وكأنه لم يتكلم في حياته، أرادوا أن يستعيدا الشخوص أمامهم بسرعه لكن بوران قطعت الحديث عندما سألته سؤال مباغت " كيف دخلت البرلمان وأنت في الغربة ؟ "، كان السؤال مفاجئا لفراس عندما قالت بوران ذلك، قطعت كل الاحاديث عن كل ذكرياتهم وانتظرت من فراس اجابة قد تكون معقولة، تطلع بوجهها مليا وضحك، بعدها اخذ نفسا عميقا من سيجارته التي شارفت على الانتهاء ثم قال وهو يختبر ذكاءها: (ألم تلعبي لعبة الكراسي في حياتك، الأسرع هو الفائز)، لكنه كان يعلم أنها ليست اجابة شافيه تنهي بها تساؤل بوران التي

كادت أن تفصح عن حكاية كتابه الذي يتكلم عن رحلته في أوروبا، لكنها عدلت عن ذلك عندما أيقنت أنها لابد أن تكمل قراءة الكتاب للنهاية وتعرف مستقره الأخير، حينها أردف وهو يشعل سيجارة أخرى: (أحتاج وقتا طويلا للشرح)، ولكن بوران حين ألحت عليه في الإجابة اضطرته الى القول بانه من غير الممكن أن يكون على هذا القدر من المكانة ويكون بهذا المركز الحساس إلا إذا كان هناك تاريخ يكن له إسناد للمضي قدما بهذا المعترك، عندها تساءلت بوران عن هذا التاريخ الذي جعله على هذا القدر من المكانة وانتظرت منه الرد وهي في حالة إصغاء كامل، لكنه بعد أن سحب نفسا عميقا من سيجارته وبدد دخانها بالهواء قال لها بثقة بالغة بددت نوعا من التساؤلات الملحة: (كان أبي معارضا حقيقيا) بعدها ساد بينهم بعض الصمت غير المبرر دعا بوران الى استعادة وضع عائلة فراس في ذلك الزمن، لم تكن بوران تعلم في ذلك الزمن ان أبيه حسين القاسم كان أحد رموز المعارضة، ربما كان يعمل بسرية تامة سنينا طوال في الخفاء ولم يشك به احد، قد تكون الصدفة وحدها هي التي أوقعت به وجعلت من التقارير التي كان أبوها يكتبها عنه تدينه، لا من أجل اتجاهه ولكن من اجل عدم انتمائه لحزب البعث، لكنها أرادت أن تستوضح بنتيجة مباغته عن كل ما حدث حين قالت بشكل لا يخلو من مكر " هذا دليل على أن

أبي كان على صواب " حينها تفحصها فراس بعينين بدتا ناتئتين، اسقط سيجارته على الارض وأشاح برأسه نحو النافذة وقد بدا أنه لم يكن يريد ان يبد أي غضب في هذه الساعات التي حسبها مختلفة، فقد اراد ان يخفي تأثره من خلف وجهه الذي استعاد به شيء من الهدوء والرصانة، بعدها ادار رأسه نحوها وقال بنبرة أشبه بالبرود عرفت بوران من خلالها ما يصبو اليه: (لا تهتمي كثيرا، هي ذاتها لعبة القط والفأر).

عندما عادت الى المنزل لم تجد أحدا، كان البيت هادئا جدا في أول بداية العصر، أخذت تصعد أول الدرجات نحو الأعلى، ولكن قبل أن تخطو بضع خطوات اضافية رأت أثير يأتي من الداخل ويقف وسط الصالة وهو ينظر اليها ما لبث أن استوقفها وقال: (سماح في المستشفى) أخذت تنظر اليه باستغراب عندما عادت وأقبلت نحوه، وقفت قبالته واجمة، لكنه تركها وذهب ليجلس على الأريكة ويشعل سيجارة، تبعته ووقفت أمامه مرة أخرى وقالت " مالذي حدث لسماح ؟"، أخذ أثير نفسا عميقا بعد أن تمعن بوجه بوران طويلا ثم قال بشيء من الأسى: (لقد أخذت جرعة كبيرة من الدواء، أرادت أن تنتحر) حينها تركته واتجهت مسرعة الى الباب، أرادت أن تخرج، لكن أثير لحق بها وأستوقفها وقال لها: (انهم في الطريق الينا لقد قالوا سوف يأتون قريبا)، كانت

بوران مذهولة مما سمعت، لا تعلم كيف تتصرف وهي بهذا الموقف، اتجهت مرة أخرى نحو الصالة تمشي جيئة وذهابا تفرك يديها، ولكن قبل أن تجلس، دخلت عليهم العمة أصيلة وهي تسند سماح وقد أخذتا تمشيان ببطء نحوها، حينها ركضت نحوهم وأخذت تسند جسد سماح الذي بدا نحيلا خائرا، طوقت خصرها بيدها واتجهت بها الى غرفتها الأرضية، عندما مددتها على السرير، أخذت تمسح على رأسها وخديها، نظرت اليها بوران بعينين كادتا أن تدمعان وقالت بشيء من الحزن " لماذا سماح. . لماذا؟ "، ولم تشأ أن تسألها أكثر من ذلك بعد أن قطعت العمة أصيلة كل حديث وقالت أنها تحتاج الى الراحة التامة، لكن سماح أدارت رأسها نحو بوران وقالت لها وهي تنظر اليها بنظرات ذابلة: (لقد رأيت بقربك أرنب) ثم أغمضت عينيها وغابت في سبات عميق فيما أخذت بوران تتطلع الى وجهها باستغراب، سماح المسكينة، لقد اختارت أن تنهي حياتها بمحض أرادتها وتنهي وجودها الى الأبد، وكأنها تمشي الى حتفها بخطوات متسارعة، ربما وحدتها كانت هي الدافع لذلك، فقد نسوها كل من حولها أو تناسوا وجودها في الوقت الذي كانت في أشد الحاجة الى أن ينتبه اليها أحد أو يواسي أحزانها، فقد بدت كطير مكسور الجناح هبط بكل امتنان علي مسارات الترجي بين ثقوب الأيام المحترقة وعاد

يترنح على أغصان الذبول ولكنه سقط خائر القوى بالاتساع الرحب على أرض الإهمال الذي يسكن الأبدان ليموت على أرض الجحود، بعد أن تأكدت أنها نامت، انسحبت بوران بروية نحو الصالة لتجد أثير أمامها، تبادلا النظرات من دون أية كلمة قبل أن تصعد السلم بخطوات ثقيلة وهي تتجه الى غرفتها لتجد الرجل الأرنب واقفا قرب النافذة، حين رآها استدار نحوها وقال بتعجب: (كيف تسنى لسماح أن تراني... أكاد أجن)، اتجهت الى النافذة ووقفت أمام الرجل الأرنب الذي وقف برهة يتطلع الى السماء، أخذت بوران تتمعن بوجه الرجل الأرنب وكأنها تراه لأول مرة، قالت موجهة كلامها اليه " من غير المعقول أنك تصبح حقيقة " لكنه ادار رأسه نحوها وقال وهو يبتسم: (لقد أصبح الوهم حقيقه) بعدها أسند يديه على حافة النافذة، نهض كل جسمه ورمى بنفسه الى الأسفل.

لقد بدأ فراس حملته الانتخابية، يزور القرى النائية القريبة، كانت الطرقات شاقة بعض الشيء، مروا على اكثر القرى والمناطق البارزة، أطراف المدن والقرى التي لازالت على شاكلتها لم تتغير منذ أن رأتها آخر مرة، بيوت متناثرة ونخيل متباعد في وسط مجموعة من كثبان طينية مدببة وأكوام من رمال متيبسة تقطعها شروخ كأنها الشرايين الجافة ومساحات شاسعة من الرمال المتكورة وتكوينات طينية تميل

الى السواد الذي أضفى نوعا من الاكتئاب والضجرعلى نفس بوران، الفساد المستشري يحيل القرى الى أشلاء مبعثرة وشوارع جرداء لا يسكنها سوى الغبار الذي تهيجه أقدام الأطفال الصغار وهم يلعبون في الشوارع غير المعبدة، مناطق عشوائية تحتوي على بيوت بنيت بعضها من الطابوق الرخيص والبعض الآخر من صفائح الحديد والتنك، طالعتهم الروائح المزرية التي أخذت تنبعث من المكان، لقد رأت بوران عالما آخرا عما رأته سابقا، بيوت بائسة تقع على برك من أوحال، القادمون الجدد من القرى والمواطن النائية، يأتون من بقاع القرى، يتركون النخيل والنسائم والأراضي الواسعة ويأتون ليبنوا من الطابوق الرخيص بيوتا كالقبور الضيقة لا تتحملها أنفسهم المضغوطة ليحتلوا المساحات المحاذية للأطراف مدينة بغداد، رأتهم بوران يجلسون حلقات بجانب النهر، يوزعون النظرات والعتاب ويتجادلون، يضحكون، يتنافسون بالقاء أبيات الدارمي وأيضا يغنون، الوجوه العابسة، حزن في كل مكان، الكل كان يحمل الانتكاسات خزائن يدفنها تحت الارض لوعة وحرمان، كل منهم كان له انتكاسة تكاد أن تكون هي ذاتها التي يحملها الآخرون بنفس السمة والقيمة وتكاد تكون هي ذاتها نفس الأفكار التي يحملونها، يجمعهم الذل والمهانة والحقوق المسلوبة، يحيطهم البؤس من كل مكان حتى أن ضحكاتهم

البائسة سرعان ما تتحول الى حزن يرتسم على شفاه ذات خط مقوس للأسفل، لابد أن أحلامهم قد اختصرت على وجود المنقذ الذي سوف يصدر لهم صكوكا في احقية الاراضي المشاعة بقانون طارئ، لقد كان مخاضا من فتيل أشعله النزوح نحو مناطق من التشرد في وطن فرض عليهم بناء وطن من العشوائيات، أخذت بوران مكانها بين الجموع تستمع الى متطلباتهم وحكاياتهم وقصصهم التي تكاد أن تكون متشابهة، لقد استمعت الى الأهالي وهي تنظر اليهم بعيون من الأسى والحزن، حاولت أن تخفف عنهم المعاناة بالوعود التي لم يثقوا الاهالي بها، احست بأنها سوف تكذب عليهم، لأن فراس حين سألته عن ما سوف تبذله الحكومة من أجل النازحين رد عليها ببرود: (سوف ننتظر المساعدات الخارجية).

مضى اسبوعا كاملا بدا حافلا بالأعمال، لم تتوقع بوران انها سوف تكون على هذه الحالة من النشاط بالرغم من المسؤوليات الجديدة المكثفة التي أوكلت إليها بترتيب جميع الأنشطة الاعلامية والثقافية للمكتب وتنسيق الرحلات التي تكاد تكون متتالية، كان ثقلا غير معتاد، لكنها كانت سعيدة في بداية الأمر بوظيفتها الجديدة وموقعها قرب فراس الذي وفر لها كامل مستلزمات الراحة والأمان الأمر الذي جعلها ترتب لحياتها الجديدة الكثير من التغيرات التي كانت فرحة

بها، لم تعتد على كل تلك الأعمال ولكنها اصرت ان تبذل قصارى جهدها من اجل ان تثبت لنفسها أن لها مواهبا جديدة سوف تبرزها المواقف القادمة، فقد كانت الانتخابات على الأبواب، الحركة المتسارعة للتحضير لها أصبحت كحركة القطعات العسكرية والجنود الذين تأهبوا واستعدوا للذهاب الى أرض معركة التحرير على الجهة الغربية التي كان بها نداء الوطن يطغى على كل النداءات، كان فراس يجلس في مقدمة السيارة التي أعدت خصيصا لهم، أما باقي الحراس الشخصيين الذين يستقلون سيارات أخرى، فكانوا يجلسون متجهمين يترصدون أية حركة غريبة قد تجلب المشاكل، بينما جلست بوران مع السيدة أيمان التي كانت تثرثر في المقعد الخلفي بسيارة كان يقودها شخص لم يتكلم طيلة الرحلة، جسد السيدة ايمان الضئيل لا يوحي بأن تكون لديها كل هذه القدرة على الأحاديث التي لم تنقطع، تعيد وتكرر نفس المواقف من غير اي رادع الأمر الذي جعل بوران تهز رأسها بين حين وآخر وكأنها مستمعة جيده، لم تحاول بوران ان تكون على قدر من الصلافة لتحد من سطوة حديثها المتسارع الذي لم يهدأ منذ أن خرجوا من القرى والمناطق العشوائية، لم تستطع ايقافها عن الحديث ما لم يكن هنالك طريقة سلسة في ايقاف هذا السيل الجارف، ولكن لم يدم ذلك كثيرا، أخرجت بوران كتاب ليل المنافي وفتحته على

آخر ما وصلت به عن رحلة فراس ثم أخذت تقرأ فيه غير مبالية بكلام السيدة ايمان التي كفت عن ثرثرتها وأدارت رأسها تنظر الى الخارج بصمت.

الكرباح السابع - مقدونيا

لم تكن ابرار على دراية بأننا سوف نبقى اكثر من اسبوعين في مكاننا الذي اختاره المهرب اليوناني لنا بعد أن قطعنا الحدود المقدونية، سوف نستقر بهذا المكان ريثما تكون الاوضاع سانحة من أجل السير الى عمق دولة مقدونيا، كانت تريد ان تمشي على حسب ما هو مخطط له، لكنها تفاجأت بعد ثلاثة ايام من وصولها الى قرية في وسط الغابات ان الخطة قد تغيرت وأن النوايا تصر على البقاء اسبوعين اضافيين كاملين في بيت ريفي بعيدا عن العاصمة سكوبيه التي تبعد بضع كيلو مترات عنا، لكنها عندما ألحت بالسؤال عن سبب التأخير فاجأها ابي بأنه قد اشترى أغطية اضافية للأيام القادمة، لكنها قالت بحزم أننا لا بد ان نجتاز مقدونيا قريبا وخلال فترة قياسية قبل ان تتساقط الثلوج ويصعب علينا ساعتها قطع الغابات بسهولة.

كانت أبرار على حق فيما تقول وهي لاتزال تمارس عمليات فلكيه علي الورق بالإمكان أن تتنبأ من خلالها عن

أوضاع الجو، لكن الثلوج سقطت بالفعل وأصبح من العسير ان نتخطى الغابات بهذا الوقت، لذلك اضطرتنا الأجواء التي أخذت تزداد سوءا يوما بعد يوم الى البقاء فترة طويلة حاولنا من خلالها اشغال انفسنا بأي شيء، لعبنا الورق والشطرنج والسلم والحيه من أجل كسر الوقت وأخذنا نأكل بشراهة ونتجادل طويلا في الليالي التي أصبح بها السهر من المسلمات، كانت أصرار تنام كثيرا وحين تفيق تبدأ بالسعال من جديد فقد اشتد عليها المرض بالرغم من المسكنات التي أخذت تبتلعها بين فترة وأخرى لكن ابرار لم تستسغ كل ذلك وهي البنت المرحة التي تحب الانطلاق والحركة ففضلت ان تقرأ كثيرا بعيدا عنا في غرفة أعدت لها والإصرار، لكنها بعد فترة وجيزة أصيبت بالاكتئاب الشديد ولم تبرح الفراش لأيام طويلة، أصرت على أن تكون وحيدة في الأسبوع التالي، تركن الى زاوية في الغرفة، أخذت تصنع من الورق أشكال فراشات تلصقها على الجدار الذي اصبح يعج بالفراشات الورقية البيضاء، كان الهوس بذلك شديدا لدرجة أنها أصبحت لا تنام الا القليل في معظم الأيام مما ولد عندها فكرة احراقها جميعا بعود الثقاب، وفعلا في ليلة من الليالي حين كنا نتسامر في الصالة مع المهرب شممنا رائحة الدخان التي أخذت تأتي من عقب باب غرفة أبرار، ركضنا جميعا وفتحنا باب الغرفة لنجد ابرار في وسط الغرفة رافعة يديها

وهي تدور على نفسها فرحة تهش النيران التي اخذت تتصاعد من اشكال الفراشات الورقية التي اخذت تتطاير منها اوراقا سوداء صغيره.

بعد اسبوعين عقدنا العزم بأن نواصل المسير بالرغم من وجود الثلوج التي لم تهدأ، فلم يكن هنالك سبب للمكوث أكثر من اسبوعين، ربما سوف تكشفنا السلطات المقدونية في أية لحظة إن نحن بقينا أكثر من الوقت المقرر، لذلك لبسنا الملابس الثقيلة وسرنا جميعا واجمين بلا أية كلمة، كانت ارجلنا تنغمس في الثلوج ونحن نتبع إشارات المهرب الذي تقدمنا، أخذ يشد من أزرنا ويشعل بنا الهمة وقتا طويلا كلما رآنا نبطء في السير الى أن عبرنا جبال رودوب الشاسعة وأصبحنا بالقرب من أطراف العاصمة سكوبيا التي حين اقتربنا منها وجدنا أمامنا سيارة كانت تنتظرنا اقلتنا الى منزل دافئ، أشد ما كان يؤلمنا برودة الليل الذي أصبح طويلا جدا حتى اننا حسبنا أن النهار لن يطلع ابدا مرة أخرى.

فراس حسين القاسم – شباط ٢٠٠٣.

لقد أصبحت الأيام التي قضوها في الزيارات المتكررة على القرى مضغوطة جدا بجدول أعمال مكثف تخللتها الاجتماعات والجلسات التي شددت على ضرورة العمل في

استقطاب الكثير من الأصوات المرحلة القادمة من الانتخابات النيابية التي أصبحت الشغل الشاغل لعموم الشعب الذي يترقب الآمال التي تخرج حماسية من أفواه السياسيين الذين تصيبهم حمى التنافس على شكليات الانتخابات المبدئية، الشعب الذي سوف يدلي بصوته في صندوق الانتخابات الذي سوف تطير منه الأوراق لاحقا لتحط بدلا عنها اوراق جديدة بأسماء جديدة، يتربصون بالوعود من أفواه السياسيين الجدد اللاهثة للسلطة والذين أخذوا يوزعون كلمات الآمال والوعود من دون اي رادع، سوف تلهبهم هذه الكلمات المخدرة التي لا تثير بداخلهم غير التصديق والرضا بالفتات، فقد اخذوا يكذبون على انفسهم و يصدقون اي شيء يخدرهم بالكلمات من خلال دعايات الانتخابات التي حملت كل الآمال والأحلام لغد افضل، سوف يوزع السياسيين على الشعب الآمال والوعود، يشترون الأصوات بثمن بخس و يحسبون عليهم ذرات المسافات ويبنون لهم أصناما من الخوف يعبدونها في كل الأوقات وينثرون في دروبهم الشوك ويأمرونهم بالمسير عليه واذا ما تقاعس أحدهم يضرب بسوط الكفر والرجعية، ليبقوا الشعب الناقم المتعب يعاني الفقر والحرمان فلا يجد شيئا يملكه سوى روحه التي أخذ يزج بها الى أرض المعركة مبررا ذلك بالقداسة من دون أن يشعر، فقد أصبح بعد الآن من

هـول المعانـاة لا يحتـاج مـن يحثه الـى الـذهاب الـى الجبهـة وانهـاء حياتـه بكـل راحـة، فقـد تشـكلت مـن النـاس مجـاميع مندفعة من جميع شرائح المجتمع نحو الحروب التي تمرسوا عليهـا منـذ نعومـة أظـافرهم حتـى أصـبحوا لا يعرفـون غيرهـا، فقـد أصـبحت ثقافـة الحـروب السـائدة نـداء خفيـا وهاجسـا يلازمهـم كلمـا اقتضـت الحاجـة الـى الإبقـاء علـى الـرؤوس الكبـار فـي السـلطة، يرسـلون الأبنـاء الـى الحـروب فيمـا هـم يجلسـون علـى كراسـيهم الـوثيرة وفـي مـواقعهم المقدسـة، تسـتفزهم الكلمـات الدينيـة التـي تخـرج مـن افـواه رجـالات الـدين الـذين خـافوا فقـدان سـلطانهم علـى الأمـاكن المقدسـة التي يجنون منها الأموال التي تعزز مكانتهم.

(كان أسبوعا شاقا)، تنبهت الى صوت فراس الذي فيما يبـدو قـد أنهـى عملـه وأشـعل سيجارة نفـث دخانهـا فـي جـو السـيارة المغلقـة التـي أخـذت تنطلـق بسـرعة نحـو المنطقـة الخضـراء حيـث المكتـب، حـين ادارت رأسـها نحـوه أخـذت تسـرد عليـه مـا كـان مـن أمرهـا عنـدما تجولـت فـي القـرى، تكلمت عن النهر والشوارع والبيوت وتحدثت بإسهاب عـن وقتهـا الـذي قضـته بـين الفقـراء ولكـن عنـدما أتـت علـى ذكـر منـاطق العشـوائيات، لـم يسـع فـراس الا انـه قاطعهـا وتطلـع بوجهها بشكل غريب ما لبث وأن أنفجر من الضحك وقال بصـوت متقطـع: (يـا عزيزتـي هـؤلاء لـديهم أمـوال أكثـر ممـا

عندي) وأردف حين وجدها تنظر اليه مستفسرة: (هم يجنون الأموال في كل شهر رواتب ثابتة من أرواح الشهداء يخبئونها لأجل القادم الذي يخافون منه فما عادوا يثقون بالأيام)، لكن بوران ردت عليه بحزم وقالت حين رأته جادا بحديثه "هذا حق لأرواح شهدائهم"، حينها أخذ نفسا عميقا من سيجارته وبدده في جو السيارة المغلق، تطلع بوجهها وقال: (لو أن شهداءهم الآن موجودين لما استلموا هذه المبالغ)، أخذت تنظر اليه بغرابة وقالت بصوت جدي "تريد ان تقول ان للأرواح ثمن" لكن فراس لم يعر لكلماتها اي اهتمام، قال وهو يبتسم ابتسامته الصفراء: (حتى الأرواح أصبحت وهمية لا وجود لها سوى على الورق) حينها أدرات بوران رأسها نحو النافذة وأخذت تنظر الى الأعمدة الكهربائية وهي تخطف بشكل سريع حين أخذت السيارة تسير بهم الى مواقع كثيرة تكاد تتشابه في بنائها وشكلها المتهالك مما جعل بوران تشير الى السيدة أيمان بشكل هامس وهي تقول لها " سوف يبقون كذلك ما بقيت أفكارهم " لكن السيدة ايمان التي أرادت أن تريها حقيقة حياتهم الجديدة بعد التحرير قالت حين رأت بوران منزعجة: (سوف يبقون كذلك ما بقيت الأحزاب المتنافرة) لكنها لم تحب أن تتعمق بالحديث الذي تعرف أنه لا يصل الى نتيجة، لذلك استسلمت للهواء البارد الذي جاءها من فتحات تكييف السيارة، ليس هنالك ما يدعو

للانشراح سوى الرجل الأرنب الذي كان يجلس فوق السيارة التي تنطلقت بسرعة نحو بغداد، أخذ يضرب بمقبض يده على قمرة السيارة بين حين واخر وهو يترنم بغناء ألحان ريفية، احب ان يقول لبوران انه معها أينما تكون.

لقد تفاجأت بوران وهي في طريق العودة حين رأت مدينة بغداد من النافذة وهم يقطعون جسر الجمهورية الى الضفة الأخرى ويتجهون نحو مقر الحزب الذي سوف يكون باستقبالهم، رأت النهر الذي يفصل جهتي المدينة الرئيسية قد انحسرت مياهه حتى كادت تختفي ملامحه كنهر حقيقي بعد أن كان يرتفع منسوب مياهه بعد النزيز ويفيض ليدمر المحاصيل الزراعية، لقد طاله الجفاف الآن وامتد الى المباني القريبة واصبح كل ما حوله كأنه طين متكسر، رأت وجوه ما قبل التحرير هي ذاتها الوجوه ما بعده، لم يتغير شيء، العبثية والاهمال، السحنة الجافه، الأفكار والتصرفات اصبحت بليدة ومهمله أيضا، اصبح الخنوع وصفة يومية يتجرعها الأهالي كل يوم، ينتابهم اليأس الذي أخذ يستشري في النفوس، اخذت بوران تتمعن في الشوارع والمناطق التي لازالت على حالها بلهفة المستكشف وهم يتجهون الى وسط المدينة، لم تسقط ناظريها عن كل شيء حولها، لم يتغير شيء، هي ذاتها الأسواق المكتظة بالباعة المتناثرين على طول الأرصفة المتكسرة، لم تتغير أصواتها المزعجة، بنايات قديمة وأخرى

حديثة تقحم نفسها في أماكن مختلفة، زحام متوارث، أطفال يبيعون المحارم الورقية عند إشارات المرور ونساء تتسول في الطرقات، وكأن الزمن يعيد نفسه، أخذ يسير على وتيرة واحدة منذ أن جاء السياسيون الجدد بعد التحرير وأكملوا السياسات القديمة في تدمير المدينة الى الآن، لم يتغير أي شيء سوى السيارات الحديثة والبضائع الصينية المستوردة وواجهات المحلات التي أصبحت زجاجية، لا شيء يستحق ان تأسف لأجله او حتى تفكر او تفرح لأجله فكل اللحظات الحاسمة وقفت في آخر النهايات غير المعلنة من التسليم باليأس، قد نحتاج الى معجزة حتى نكمل به خط الفرضيات المفقودة لبلد لم يفصح عن هويته الحقيقية، لنبدأ بعد ذلك رحلة البحث نحو خط آخر يبدأ من مرحلة الصفر وينتهي برقم نكترث لوجوده في أنفسنا، ولكننا الآن قد أصبح اسعاد ذاتنا ليس من أولوياتنا، شيء ما قد سرق من خزائن الضمير وأصبح الأفق فارغا الا من علامات الفساد.

(هذا ما نسعى اليه) انتبه الجميع الى كلمات رجل كبير كان يجلس في صدر المجلس الذي احتوى شيوخ عشائر وشخصيات بدت مهمة، أخذوا يستمعون إليه بعد أن أمال عمامته السوداء قليلا الى الخلف وأردف: (راحة المواطن وعيشه الكريم أصبحت من الأولويات) بعدها أخذ يتكلم عن الآمال القادمة والتنمية التي عملت على تأخيرها القوى

العظمى التي تعمل على تحطيم المسيرة الاجتماعية والاقتصادية وأشار في نهاية حديثه وهو يحكم قبضة يده التي زينتها الخواتم الفضية ويرفعها الى الأعلى: (الدين هو الذي سوف ينتصر في الآخر بفضل المرجعية الرشيدة)، كانت هذه أول الاجتماعات التي حضرتها بوران مع فراس بعد وصولهم الى مقر الحزب، كانت جالسة في آخر المجلس على مقربة من فراس حين أخذ الرجل المعمم ينظر اليها بنظرات فاحصة، حينها أمال فراس رأسه نحو بوران وقال بهمس: (أنه السيد أبو الكاظم.. قائد حزبنا) بعدها توالت المآدب الكبيرة التي تحتوي على الكثير من الطعام الذي كان يصرف في بذخ شديد والكثير من الهدايا التي كانت تهدى الى شيوخ العشائر التي أخذت تتلقفها فرحة، شيوخ عشائر همهم الوحيد هو إرضاء أيا كان من يحكمهم، يسيرون على حسب الموجة ويهتفون لمن يدفع لهم أكثر، فهم منتفعون على أكتاف حاشيتهم المتملقين، لقد أصبح واهم من ظن ان الضوء حليفه في عتمة من جهالة البعض فلربما تكون المعرفة بالشيء هي النقمة بحد ذاتها، ولكن بلحظة قد يتضح مفهوم جديد يولد انعكاسات متشابكة بداخل تداعيات عصية على الفهم تخلف وراءها التضاد والتشابك في آن واحد لتعيد الكرة مرة أخرى وتحاول فهم ما يدور حولك، ولكن ستعود هذه المرة على نفس خط الجهالة، فقد يكذب الإنسان على

نفسه من أجل أن يعيش، هكذا كانت تفكر بوران التي لم تتوقع أن يكون العمل شاقا الى هذه الدرجة وهم يقضون الأيام بين المكاتب والاجتماعات المتعاقبة، أشد ما كان يستهويها الآن هو العودة الى البيت بعد أن شارفت على انهاء أغلب الالتزامات، لكن فراس فاجئها برحلة جديدة لابد أن ينجزها، أخذ الضيق ينتابها ولكن عندما سألته بوران عن وجهته الجديدة قال لها: (سوف تكون إلى تركيا).

بعد الزيارات المتعاقبة، أراد فراس أن يبتعد عن جو العمل الذي كانت تكسوه الرحلات السياسية وكثرة التقارير ويبعد بوران عن التقارير التي أخذت تدونها على جهاز الحاسوب وترسلها الى المكتب الرئيسي، كان يوما غير كل الأيام، ذهبا سويا الى معرض فني للرسومات قد كان فراس مدعوا له، كان معرضا بسيطا للوحات فنية حديثة في قاعة في وسط بغداد، بالرغم من بساطته الا انه كان مميزا يستحق أن تشاهد من خلاله اللوحات التي علقت على جدران ردهات الصالة الكبيرة التي امتلأت بحضور كبير، كانت بوران سعيدة جدا وهي تسترجع شعورا بدا مفقودا بداخلها، كاد أن يندثر مع الأيام وفي غفلة من الزمن، اذ انها كانت مولعة بالفن في الزمان الغابر، أخذت بوران تتذكر ذلك الزمن عندما كانت طفلة في المدرسة الابتدائية، كانت دائما ما تجدها ترسم وتلون على الورق الذي تملأ كل جزء من أجزائه، ترسم بنهم

بالغ على الورق الذي سرعان ما يمتلئ ثم تجلب غيره وتخط الخطوط المقوسة والدائرية بسرعة وتملأ الأشكال الهندسية التي تتضح فيما بعد بألوان مختلفة الى ان تنفذ جميع الأوراق وبعدها تذهب تبحث عن مجال للرسم في مكان آخر، أخذت ترسم على الحيطان وجذوع الشجر والأرض وعلى الدجاجات البيضاء وعلى وجه اثير عندما يكون نائما، لقد أشاد بها الجميع بموهبتها الفذة ونشاطها الدؤوب في رسم جميع أشكال الحيوانات والنبات حتى اصبح الجميع ينادونها بالفنانة الصغيرة، لقد أحست بأنها تولد من جديد وهي تسترجع الجمال مرة أخرى لنفسها التي كانت تتوق لمثل هذه الأجواء، لكن فراس حين كان يجول بقربها أخذ ينتقد اللوحات بشكل ساخر وفاضح وهو يضحك مما اضطرها الى سد فمه بيدها، حينها أتاهم صوت صادر من خلفهما يقول: (يبدو أنك غير راض عن المعرض أستاذ فراس)، عندما التفت فراس الى مصدر الصوت، كان هنالك رجلا يقف خلفه وهو يلف يديه خلف ظهره، بدت عليه علامات السعادة وهو يرى فراس وقد انفرجت أساريره بالضحك، ما لبث وأن أقبل علية واحتضنه بحميمية واضحة، دار حديث سريع بينهما قبل ان يتنبه فراس الى وجود بوران التي وقفت بقربهم واجمة وهي تنظر اليهم بحبور، ما لبث وان سحب الرجل من يده وقال: (دعني أعرفك على بوران)

حينها توجه الرجل نحوها وأخذ يحييها على طريقة غير معتادة، فقد عقف يده على صدره واحنى جذعه الى الأسفل حتى أصبح جسده مقوسا وكأنه في مكان للتشريفات، بعد ذلك انتصب وصافحها بحرارة بالغة أحستها من خلال دفء يده، لم يكن جذابا الى الحد الذي يشدك اليه من اول وهلة، لكن صوته الهادئ وتصرفاته الراكزة كان لها طابعا مميزا في النفس، حتى أن كلماته التي أخذ يخرجها، كانت مخلوطة باللهجة العراقية ولهجات اخرى متعددة أضافت على طغيان حضوره الهادئ انطباعا فريدا يشد الى الاستماع اليه، سحنته السمراء ووجه الدائري وشعره الطويل أوحت بأنه فنان تشكيلي مميز، قسمات وجهه الحزينة جزمت بأن هنالك العديد من الأسرار خلف شخصيته الخفية التي من الصعب التنبؤ بها، قد لا تستطيع ان ترتاح معه من أول وهلة الا عندما تتعمق بداخله الذي لا يمكن ان تتفهمه بسهولة، ولكن فراس بادر بفضح بعض من شخصيته حين قال: (أعرفك على الفنان أديب راضي صاحب هذا المعرض المضحك)، كان أديب يدعي اللامبالاة وهو يرسم على وجهه ابتسامة يعنيها، قال موجها كلامه الى فراس بعد أن التقط نظرة خاطفة من بوران: (رجال السياسة دائما لا يهتمون بالفن بقدر اهتمامهم بفن الصفقات)، ما لبثوا أن ضحكوا جميعا وأخذوا يتحدثون عن اللوحات التي كانت تنتمي الى الفن الحديث الممزوج

بالواقعية، بعدها أمسك فراس بيد أديب وسحبه بعيدا عن بوران التي ما ان رأتهما يبتعدان عنها حتى أخذت تجوب أروقة المعرض تشاهد اللوحات التي عرضت بشكل متناسق.

لقد أخذت الوقت الكافي وهي تقف أمام لوحة أحست بأنها مميزة جدا، لم تكن سوى فتاة صغيرة بعيون دامعة تضع يدها على خدها تتطلع الى البعيد وكأنها كانت تنتظر شيئا لا يأتي، لم تعلم لما شدتها هذه اللوحة من دون كل المعروضات التي كان القسم الأكبر منها يميل الى رسومات من الفن الحديثة فقد أخذت تنظر الى عينيها التي رسمت بإتقان وأوضحت الكثير من المعاني، لم تكن حزينة ولا فرحة ولم تكن تحمل الندم أو الرضا انما كانت لديها نظرة محيرة، أحبت أن تتمعن بها حتى تعرف ما كانت تعني هذه اللوحة، فقد أحست بأن وجه الفتاة يشبهها الى حد كبير، وكأنها الآن أمام لوحة زيتية معروضة برواق الضمير، رسمت عليها أعجوبة من تعابير خفية لا توصف، تتقاسم معها وجها من وجوه حقيقتها بخطوط عريضة ومساحات ملونة ونقاط منثورة، عكست الارتباك بنفسها للحظات، أخذت بوران تستعيد منها شيئا من الطمأنينة الفجائية التي أخذت تبعث بداخلها أسرار كانت غافية تحت أرض قلبها الطينية، فقد وجدت أخيرا من يشبهها، شيء واحد كان يسري في ذلك الانعكاس الذي زرع بها على حين غرة وهي تتمعن في

التفاصيل بشكل صادق، تلك الراحة التي بدت كأنها تختبىء خلف الانسجام الذي وجدته في اللوحة، لكنها جفلت عندما سمعت صوتا أتاها من الخلف وهو يقول: (لابد أن اللوحة أعجبتك)، لم يكن الا صوت أديب الذي وقف خلفها وهو يرسم على وجهه ابتسامة لم تكن متصنعة، لحظتها تقابلت العيون مرة اخرى، أخذت بوران تستعيد هدوءها، لم تشأ ان تعطيه وقتا اطول من اللازم وهو يتعمق ببريق عينيها، لذلك اشاحت بوجهها نحو اللوحة وقالت له بصوت بدا حزينا " ماذا تعني هنا " حينها تطلع أديب بوجه فتاة اللوحة على نحو من الجرأة وقال بصوت حالم: (هذه اللوحة بالذات لم أرسمها بيدي... إنما رسمتها بروحي) كانت أجابه ضمنية لم تفسرها النظرات الخاطفة التي أخذت تخطف شيئا من التوازن الذي كاد أن يفتقد لولا أنها بادرت بقولها " هناك خلل بسيط " حينها رفعت يدها وأشارت الى مجال من الظل لم يكن محسوما على رداء الفتاة، كانت ملاحظة غير دقيقة ولكن أديب اراد ان يعطيها الكثير من الأهمية حين انتبه الى ملاحظتها، قال بصوت واضح: (قد تكون كثافة اللون حالت دون رؤية الظل المتبقي) ولكن بعد لحظات من الصمت قال لها بشيء من الاعجاب: (لابد أنك مهتمة بالفن كثيرا) ردت عليه بثبات وقالت بعد أن تحاشت النظر في وجهه " بداخل كل منا نوع من الفن "، لكن فراس قطع حديثهما بعد أن جاء

وانضم إليهم ثم أخذ ينظر إلى اللوحة باستخفاف ثم قال بصوت مسموع موجها كلامه الى أديب: (أنت حزين في كل شيء) حينها أخذت بوران ترمقه بنظرات حادة خبأت الضيق من خلفها ما لبثت أن قالت له بشكل متحدي " لقد أعجبتني كثيرا هذه اللوحة الرائعة وأود أن تكون لدي مثلها " حينها تطلع أديب الى وجه بوران الذي بدا سعيدا وقال: (سوف تكون هديتي لك ولكن بعد أن ننهي المعرض)، لم تكن بوران تتصور أن تقتني هذه اللوحة بالذات، فقد كانت سعادتها لا توصف حين سمعت ذلك، ولكن قبل أن يتوجهوا إلى الخارج، أسند فراس يده على كتف ألفنان أديب، قال وهو ينظر الى بوران: (سوف نكون سويا في تركيا الأسبوع القادم هل تود ان أجلب لك شيئا من هناك أيها الفنان) فما كان من اديب الا أنه شكره على ذلك بكل رحابة وهو يسير مع فراس الى الخارج بينما اتجهت بوران الى دفتر الملاحظات وكتبت على صفحة خاوية قبل ان تلحق بهم " ما أجمل أن ترى من يشبهك في الكون المثير... شكرا لك على هذا المعرض الجميل أيها الفنان أديب... بوران "، بعدها كتبت بأسفل الصفحة رقم تلفونها ثم خرجت مسرعة تتبع فراس.

جاءنا الخبر ونحن في ردهة المستشفى بعد أن خرج الدكتور من غرفة الكشف، كان وقع الخبر علينا كالصاعقة، هرعنا جميعا الى الغرفة، عندما اقتربنا من إصرار حسبناها نائمة بهدوئها المعتاد، حاولنا أن نوقظها ولكننا وجدناها بلا حراك، مسجاة على السرير، جسمها مازال دافئا، لم نصدق ان اصرار غادرتنا على عجلة قبل أن نصل سويا الى اوروبا، انتابتنا نوبة من البكاء هستيرية يصاحبها الذهول الذي ارتسم على الوجوه غير المصدقة، مؤلمة كانت الأيام اللاحقة، لم نر أصعب من هذه الليالي، كيف غادرتنا بهذه السهولة تلك الفتاة الحيوية، فقدنا ضحكاتها وأحاديثها عن الغد وعن النجاة والسلام، تطلعاتها بالوصول أوروبا التي كانت تحلم بها وأيضا اصرارها على بداية حياة آمنة بعيدة عن الاعتقالات والموت، كانت كالشعلة حين تعمل على راحتنا جميعا ومسايرتنا ولكن الآن انطفأ كل شيء حولنا بعد رحيلها وأصبحت ليالي الترحال أكثر ظلمة مما كانت عليه، اضطرنا للتفكير مليا بالعودة من حيث أتينا أو تسليم انفسنا للسلطات الصربية ولا نعلم أن كانو سيرجعون بنا إلى العراق أم لا.

مضى اسبوع كامل مر كالكابوس منذ ان فقدناها ألحقنا أسبوعا آخر من الحزن المضنى ونحن بين جنبات البيت

الريفي الذي وجده لنا المهرب على بعد كيلو مترات من العاصمة الصربية بلغراد، كنت أذهب اقطف الزهور من البراري البعيدة وانثره في كل ليلة على قبر اصرار من دون علم احد ثم اعود بسرعة من دون ان يراني احد، أما اختي ابرار فقد أخذت موقعها في زاوية من البيت مظلمة وانطوت على نفسها، كانت الليالي قاسية وباردة وحزينة لم يطب لنا بها النوم أو الطعام أو الحديث عن أي شيء، لم تتمالك امي نفسها حين اخذت تجهش بالبكاء المرير وتنوح طيلة فترة مكوثنا التي كان بها الصمت يشغل كل حيز من البيت الريفي الصغير الذي أصبح لا يطاق، ولكن أمي كانت تصر على البقاء أكبر قدر ممكن من الأيام بالقرب من القبر، بينما أخذ أبي يكابر ويحبس الدموع بكل شجاعة في غرفة منزوية، لم يخرج منها طيلة ثلاثة أيام لا يكلم أحدا ولكنه بعد فترة وجدناه يقف في الصالة ويقول بصوت مسموع.

ــ لقد فقدنا عزيزا علينا، لا اريد أن افقد البقية لذلك سوف نواصل المسير.

في صباح اليوم التالي كنا جميعا عند قبر اصرار نتحدث معها وكأنها موجودة حتى منتصف الليل في الوقت الذي الذي كان المهرب يستعجلنا بالرحيل وهو يكمل جاهزية السيارة التي سوف تقلنا الى مدينة سوبوتيكا التي تقع على الحدود الهنغارية الصربية التي سوف يودعنا بها المهرب

كآخر نقطة له، بعدها ودعنا القبر وركبنا السيارة التي انطلقت بنا على عجل ونحن في أشد حالات الحزن، لقد كان الوداع بعيون دامعة وقلوب تحمل اللوعة والأسى، ما لهذا الضباب الذي امتد من عصر الانفاس الأولى حتى عصر دعاء اخر انفاس الترجي وأخفى زوالي معه وذلك الضجيج الذي كاد أن يسرق صوتي بين احتدام الصرخات المدوية بوجه الزمن، من أنت أيها القدر الأفاق، لقد أصبحنا معك على قارعة طريق الموت بكل جداره.

فراس حسين القاسم ـ شباط ٢٠٠٣

في المطار، هناك بوابات تؤدي بك الى مدارج نحو طائرات تنتظر انتقالات الأجساد برحلات أعد لها بحجز مسبق، لن ينتظرك أحد ان لم تكن في الموعد المحدد، الطائرات تلو الطائرات تتوافد جيئة وذهابا على أرضية صلدة واسعة وكأنها سوف تذهب بك الى حتفك في متعة مدفوعة الثمن، أخذت بوران تنتظر الدقائق وهي جالسة قرب البوابة التي سوف يلجأون بها، تتابع حركة الأجساد المتخاطفة التي تبحث عن أرقام البوابات، مسافرون يحملون بأيديهم الحقائب والبطاقات، تحثهم أصوات مكبرات الصوت الداخلية التي تعلن عن موعد الرحلات، لقد كان شعور

بوران مغايرا لواقع المطار المزدحم، أخذت ترتب ببالها احتمالات للموت غير مبررة، للمرة الأولى سوف تسافر على متن طائرة، سوف ترضخ لمشيئة خفية من الخوف بداخلها، كان غياب الرجل الأرنب أشد غرابة، أخذت بوران تتلفت، تبحث عن الرجل الأرنب في كل مكان، احتاجته في هذه اللحظة كثيرا ليخفف عنها هذا الاضطراب، لكنه ظهر لها عند باب المطار واقفا وقد اخذت صورته امامها ترتعش كما الضوء المعطوب، بعدها سرعان ما اختفى و لم يعد يخرج لها بين حين واخر مما زرع بداخلها تداعيات مضطربة أخذت ترتسم على وجهها، كان فراس يحمل كوبين من القهوة عندما أقبل نحوها، جلس غير بعيد عنها، أخذ يتكلم عن برنامج الرحلة التي ستكون في دولة تركيا وكيف ستكون في بداية الايام هناك، حيث تبدأ المشاغل التي لابد ان ينهونها سريعا ويتفرغوا بعد ذلك للسياحة والراحة، أخذ فراس يقلب ناظريه بين المسافرين الذين ضاقت بهم أرضية المطار وبشاشة عرض الرحلات، ثم استدار الى بوران بوجه بشوش وقال بكل حماسة: (سوف نزور كل المعالم السياحية حين نفرغ من العمل) فيما هي أومأت برأسها علامة الموافقة ولم تضف شيئا.

حين أقلعت الطائرة بهم ظلت بوران صامته، انشغل فراس بالكمبيوتر المحمول الذي يرافقه دوما فيما هي أخذت تنظر

عبر النافذة الصغيرة الى الأرض التي أخذت تتباعد عن ناظريها شيئا فشيئا، أحست بيد تمتد نحو يدها المطروحة وتعصرها بحنان، عندما التفتت نحو فراس وجدته ينظر اليها وعيناه تتطلع بها بشكل حنون، ابتسمت ابتسامة خفيفة وسحبت يدها، أدارت وجهها نحو النافذة التي بدأت تعكس بداخلها شعورا أشد غرابة من الطيران على هذا المرتفع، كيف سيكون السقوط عبر السماء والوصول الى حتفها، ادارت رأسها نحو فراس الذي بدا مشغولا بكمبيوتره المحمول، تساءلت بصوت عال فيما إذا سقطت الطائرة وتحطمت مالذي سوف يحدث، حينها توقف فراس عن الكتابة وأدار رأسه نحوها وهو يحمل نصف ضحكة ثم قال: (سوف نكون خبرا في جريدة أو مادة تتناقلها القنوات الفضائية)، كانت هنالك سيارة دبلوماسية تنتظرهم في الخارج عندما وصلوا أرض المطار، استقلوها وانطلقوا الى مكان اقامتهم، عندما ابتعدوا عن المطار بعدة كيلو مترات، رأت بوران الاخضرار الذي يطغى على الأشجار البعيدة عبر الطريق، لقد امتد العشب على مساحات شبه ناعمة طوال الطريق المؤدي الى مركز العاصمة اسطنبول ما لبثت ان انتهى عند حدود اول العمران والمباني الكبيرة التي اطلت عليهم وكأنها تريد أن تريهم قفزة المدينة الجديدة والتحضر المواكب للعصر الحديث، أرض تركيا الحديثة، سحر شرقي

من نوع خاص يتجسد بشكل حداثي على سحنة من الماضي الـذي كانـت تكمـن خلفـه مبـاني تراثيـة اتسـمت بالزخـارف الاسـلامية، العاصـمة إسـطنبول تريـد أن تثبـت بـأن المدينـة لا تقل شأنا عن المدن الاوروبية العريقة بعد أن تراجعت مدينة بغداد مئات السنين وبقيت كما المدينة التراثية، عندما وصلا الى الفندق الفخم، كان بانتظارهم مسؤول تشريفات بدا من هيئته الجدية أنه مبعوث رفيع المستوى، حدد لهم المكان الذي يقيمون به بكل تهذيب، كان عبارة عن سويت يتكون من غرفتين للنوم وصالة فخمة عريضة تضم مكانا للجلوس بكراس أرستقراطية مزخرفة كأنها من عهد الباروك وطاولة للطعام عريضة، قبل أن يذهب كل واحد منهما الى غرفته اتفقا على تناول طعام العشاء في مطعم الفندق بعد أن يأخذا غفوة بسيطة قد تعيد لهما الصفاء بعد الدوار الذي أحست به بوران بشكل غريب جعلها كالناعسة، لذلك اتجه كل واحد منهما الى غرفته.

عند المساء جمعتهما طاولة عريضة تضم طعاما خفيفا، لم يأكلا منه سوى القليل تحت أضواء الشموع وجو من الهدوء كان قد رتب له مسبقا بإتقان، عندما اتجها بعد ذلك إلى صالة كانت معدة للشخصيات المهمة، انبهرت بوران بمدى دقة الزخارف شبه المرصوفة المركبة على الحيطان، الاضاءة الساطعة من الثريات المتدلية من السقف زادت من روعة

المكان الذي بدا كالحلم القصير، زاد من بهاء الجلسة رائحة الورود التي عطرت المكان و اضفت شيئا من الاختلاف وثمة موسيقى على آلة الكلارينت أشبه بالحزينة تنبعث من مكان ما غير بعيد، حين جلست بوران على أريكة بالقرب من فراس، أخذ ينظر اليها نظرات فاحصة وهو يتمعن بعينيها اللتين قطبتهما باستغراب وقال: (لابد أن تكون ليلة ساخنة)، بعد ذلك مد يده على فنجان قهوته، رفعه نحو فمه ليرتشف منه رشفة سريعة دلت على توتر مبالغ به ثم أعاده الى الطاولة بحركة سريعة، وهي بدورها لم تشأ أن تفعل أية ردة فعل غير مناسبة ضد تصرفه الغريب هذا، لذلك أخذت تجيل ناظريها مرة أخرى في المكان غير مبالية بحديثه عبر جهاز التلفون الذي أخرجه وبدأ يتكلم من خلاله بصوت خفيف، بعدها تعالت ضحكاته في المكان، اخذت بوران ترمقه بعين استغراب وهي تراه يتطلع الى مدخل الصالة بين حين وآخر وكأنه ينتظر احد ما لم يفصح عنه في حينه، ولكن سرعان ما بدد الهدوء أصوات وقع أقدام بدأت تقترب نحوهما، ما هي الا لحظات وقد أقبل عليهم عدد من الرجال تباعا عبر البوابة العريضة، يحملون معهم حقائب دبلوماسية، وقفوا أمام فراس الذي أخذ يصافحهم بحرارة ودعاهم الى تناول القهوة معه بداخل صالة اخرى كانت منزوية بعض الشيء يبدو انها اعدت مسبقا للقاءات المهمة، لم تتعرف على اي احد منهم

سوى أن بعضهم كان يتكلم بلغة ايرانية، تركها وحدها من دون أية كلمة واتجه خلفهم مما جعل حالة من الضيق تنتابها وخوف غامض، لقد حمل الموقف رائحة مثقلة بالتساؤلات بعد أن أحست بالتهميش والاهانة، فقد استشعرت من خلال هذه الزيارة المباغتة أن حدثا كبيرا ومهما لم يطلعها فراس عليه بالرغم من محاولاتها معرفة ما يحدث، صراع من نوع اخر اخذ يجول بنفسها، أيقنت من بعده أن السياسيين لا يفصحون عن نواياهم التي يفعلون عكسها بواقعهم العادي فهم يدبرون الاحداث على حسب معطيات سابقه تكون على درجة عالية من السرية تدعم تصرفاتهم اللاحقة، وحدهم هم المراوغون الذين تتلون تصرفاتهم على كل جانب وتنحاز الى الشيء ونقيضه، ولكن لم يدم الاجتماع طويلا، لقد عادوا وأخذوا يتصافحون بحرارة مرة أخرى بعدها ودعهم فراس بابتسامة عريضة وعينين بدا عليهما الظفر، عندما رآهم يخرجون، استدار نحو بوران التي بدا عليها الانزعاج، اقترب منها وجلس قربها ما لبث وان امسك بيدها وقال بشيء من الزهو: (كانت صفقة عابره مع دبلوماسيين ايرانيين) حينها نظرت بوران نحوه بكل غضب وقالت وكأنها تؤنبه على موقفه " لقد كنت كالبلهاء ".

في هذه الليلة التي احست بوران بها باردة، ودت بأن يرجع لها فراس الحسرات التي أطلقتها ولم ترتد اليها سوى

ظنون، أحبت بأن تتغلغل أصابعه في متاهات شعرها وأن يقبلها على شفاه خدره، ارادت أكثر من ذلك بكل أمنيات ليالي الامس الخاوي، أحبت أن تخط الدروب الحمراء بأظافرها على ظهره و تلتف بقدميها على قدمي حقيقة وجوده، لكنها الآن، تركت الجسد جامدا ولم تبادره بأي شيء ينم على القبول بنواياه، أحبت بكل شغف أن تعاقبه في تلك الليلة، فقط أرادت ان تعاقبه وتبتعد عن هذا الحنين المؤجل بكل شجاعة غربتها ولم تنبس بكلمة واحدة، فقد اخرستها تجربة الصحوة بعد الموت وحصاد الارض البور بعد الجفاف، لا يجب ان تنصاع له بسهولة هذه المرة وترتكب أخطاء الأمس فأن كل ما يحدث قد يكون ضرب من الجنون، كانت ليلة هادئة، ضمتهم صالة السويت الواسعة، لازالت بوران صامته وهي تشاهد الأخبار عبر جهاز التلفاز، ملأ فراس كأس من الويسكي واقترب نحوها، جلس على نفس الأريكة العريضة التي ضمتهما في الصالة الواسعة فما كان منها إلا أنها أصلحت من جلستها، وركنت في زاوية الاريكة وكأنها تريد ان تبتعد عنه عمدا، بادرها بنفس الابتسامة الرتيبة التي لم تتغير منذ أن دخلا سويا فيما هي ردت عليه بالصمت، انتظر منها مبادرة تكسر الصمت الذي كانت تعنيه ولكن نظرات من الذنب المفاجئ هربت بها الى سطح الصالة الذي كان قد ملأ بالزخارف، كانت تفعل ذلك

عن قصد منها في هذه الليلة التي أحست بها لوهلة أن السحب أخذت تذوب بالسماء القاتمة التي لم تلهمها أية نظرة عابره نحو فراس الذي أخذ يقترب منها كثيرا حتى كاد أن يلتصق بها وقال هامسا في أذنها: (لم أكن أتوقع بأنك على هذه الدرجة من الجمال وأنت غاضبة) لكنها ردت عليه بتثاقل وقالت بشيء من الحدة " لقد أحسست أنني بلا قيمة أيها السياسي " حينها تجرع كأسه دفعة واحده بعد أن أحسها تعني ما تقول، أشعل سيجارته وأخذ نفسا عميقا ثم بدد الدخان الذي بدأ يتطاير بجو الصالة الخامل، أطلق مع الدخان حسرات من غير ملامح ثم أدار رأسه نحوها وتمعن بوجهها كثيرا ما لبث وأن هز رأسه ثم التف على نفسه وقام وهو يضحك متجها نحو البار وهو يقول: (لابد انك متعبة هذه الليلة آن لك أن تأخذي قسطا من الراحة)، بعدها ملأ كأسا من الويسكي الى النصف وارتشف منه رشفة ثم اتجه نحو النافذة وأخذ ينظر الى العمارات المقابلة فيما هي أخذت ترتشف بقايا البرود، لكنها وقفت فجأة وقالت قبل ان تتجه الى غرفتها" تصبح على خير فراس".

الكرباح التاسع – هنغاريا

أول قرية واجهتنا عند الحدود الصربية الهنغارية كانت صغيرة، لم نستطع المكوث بها الا ساعات قليلة لاستعادة الأنفاس ومن بعدها نبحث عن سيارة تقلنا الى ابعد منطقة في العمق الهنغاري، جلسنا في مطعم قريب قرب محطة للوقود اتصل من خلالها أبي بعمي الذي قال أنه سوف ينتظرنا في النمسا، لقد خلت السيارات من المكان الا من بعضها التي أخذت تتزود بالوقود ثم ترحل، كانت هنالك سيارة أجرة وحيدة تقف قرب رصيف المحطة، حين توجهت نحوها كان السائق واقفا بقربها وكأنه ينتظرني، كان أشبه بالمتشرد، حين أقبلت نحوه أخرج من جيبه علبة سجائره وقدم لي واحدة، لم يستفسر عن وجهتي في بادئ الأمر لكنه أخذ ينظر إلى هيئتي باحتقار شديد ما لبث أن قال (كنجازا).

لم افهم حينها ماذا قال ولكن قلت له أننا نريد أن نعبر الحدود نحو بلغراد، اقترب مني كثيرا وقال بلكنة انجليزية ركيكة أنه سوف يقلهم الى هناك ولكن بسعر هو يحدده، كان سعرا مرتفعا بالفعل لم أشأ أن أعطيه له في بداية الأمر ولكن حين وجدته قد أخرج جهاز التلفون وطوحه بوجهي علمت أن الأمر سوف يسوء و أننا سوف نكون في مأزق ان هو أقدم على الاتصال في السلطات الصربية فما كان مني الا أن

أوافق، عندما اتفقنا مع صاحب التكسي بأن يأخذنا الى اقرب منطقة بين الحدود الهنغارية الصربية، اقترح علينا منطقة سوباتيكا التي تبعد عن العاصمة بودابست أربعين كيلو متر ولم نعلم بأنه كان يخبئ مخطط في باله.

لقد عبرنا الحدود بشكل سريع، بعدها سرنا في شوارع ما تكاد تنتهي حتى تبدأ شوارع اخرى ضيقة ليس لها علامات التوقف أو علامات تحديد السرعة او حتى علامات لمنحنى او مستقيم الى ان بانت البرية والظلام الذي بدأ يلفنا من كل ناحية، حينها أحسسنا أننا في فخ لا بد أن نخرج منه بعد أن أوقف السائق السيارة وأمرنا بالنزول، كان لابد لنا أن نقطع هذه المسافة عبر الغابة حتى نصل الى منطقة ميرا توفاك القريبة من العاصمة الهنغارية بلغراد وبعدها نستقل الحافلة نحو الحدود النمساوية.

لقد عزمنا المسير في هذا الليل فلم يكن لدينا خيارا آخر، حين حزمنا أمتعتنا وأخذنا نسير داخل الغابة، كان هناك بعض الطرقات الترابية المعزولة تنبئ بوجود حياة بالانحاء ولكننا أخذنا نسير بمحاذاة السكة الحديدية لضمان عدم الضياع، هذا ما قاله لنا المهرب الصربي قبل أن يتركنا بالعاصمة الصربية ويعود وقد قال أيضا أننا لابد لنا من عبور أبراج المراقبة التي هي عبارة عن ثكنات عسكرية وبعدها الجبال التي يجب أن نقطعها ونصل الى الحدود النمساوية، كان

يجب علينا الاسراع حتى نصل قبل بزوغ الشمس، كانت أضواء الشوارع الرئيسية بعيدة بعض الشيء عنا، التففنا نحو طريق آخر بدا صحيحا ونحن نتبع الخارطة، كان لابد لنا أن نقطعه عبر الأشجار، عندما أسرعنا، تنبهنا بأن هناك صوتا يقترب أكثر وأكثر خلفنا، فضحه حفيف الشجر، توقفنا ولذنا خلف شجرة كبيرة كانت بالقرب، رأينا الأضواء اليدوية تقترب نحونا، حينها تراصفنا وضم بعضنا بعضا بخوف ولكن الأضواء أخذت تقترب منا أكثر وتركز على مكان وجودنا حتى كادت تفضحنا، ما هي إلا لحظات مرعبة تجرعنا بها الخوف والريبة حتى أحسسنا بجسدين يقفان فوق رؤوسنا وهم يسلطون أضواءها علينا فما كان منا إلا أن خرجنا جميعا ووقفنا قبالتهم، رأينا بأن أحدهم كان يحمل سكينا بينما حمل الآخر عصاة غليظة، أخذوا يتكلمون معنا بلغة لم نفهمها ولكننا عرفنا ساعتها أنهم قطاعي طرق يسرقون المهاجرين عبر هذا الطريق الذي بدا معروفا لديهم، بعد ذلك أشاروا لنا بحركات من أصابعهم وأيديهم أنهم يقصدون المال فما كان من أبي الا أنه أخرج من جيبه حزمة من المال هي كل ما تبقى لدينا وأسلمها لهم من دون أية مقاومة ولكنهم لم يرتضوا بذلك فقد أخذوا يفتشون حقائبنا بسرعة ونهم، لكن أبرار أخذت تصرخ في وجوههم بصوت عال وهي تبكي مما جعلهم يتركوننا ويهموا بالهرب بالاتجاه الذي أتو منه بينما

نحن حملنا الحقائب وجرينا بالاتجاه المعاكس الى أن وصلنا بالقرب من ثكنة عسكرية كادت أضواء أبراجها تفضحنا ونحن نسير بمحاذاة حقول الذرة التي أخفت أجسادنا لذ كنا لابد لنا أن ننبطح كلما رأينا الأضواء تقترب ونركض مبتعدين كلما رأيناها تبتعد، لم نعلم الى متى سوف يدوم بنا الحال ونحن نحاول أن نعبر هذه المنطقة بأمان، لقد كانت هذه المرحلة هي أصعب المراحل التي مرت بنا على الاطلاق، فقد كنا معرضين في أية لحظة للإخفاق ان نحن تهاونا بالمسير، لقد كدنا نقع بالوادي الصخري ونحن نحاول أن نرتقي التقاطيع الصخرية الى قمة الجبل الذي سوف يكون آخر المعوقات وبعدها حين ننحدر نكون بالمنطقة التي سوف نستقل منها القطار الذي سوف يذهب بنا نحو الحدود النمساوية.

فراس حسين القاسم ـ شباط ٢٠٠٣

لم تكن بوران على دراية بما يحدث الا عندما استفاقت على اللغط الذي اتى مبكرا عبر الصالة في صباح اليوم التالي، فقد تهاوى على سمعها وهي بين الصحوه والنوم أصوات كثيرة أخذت تترصدها وهي تتعالى بالضحكات والأحاديث التي نشرت في المكان حيوية من نوع آخر

تختلط معها أصوات نسوية، تنبهت الى قرع على الباب وصوت فراس يحثها على الصحوة والاسراع بالمجيء، عندما فزت من سريرها، لم يأخذ منها الأمر سوى بضع دقائق حتى بدت جاهزة للخروج الى الصالة التي ما ان وقعت عينيها عليها حتى انتابها الحرج من الموجودين الذين انتبهوا لقدومها وأخذوا ينظرون اليها بإمعان، لكن فراس تدارك ذلك وقدمها لهم على أنها سكرتيرته الخاصة مما زاد من حالة الحرج لديها، أصلح الجميع من هيئته وكأن المرأة التي وقفت قبالهم لها شأن كبير غير باقي الفتاتين الحاضرتين، لقد اتسمت بوران بجمال لم تأكل الأيام منه إلا القليل، قسمات البراءة والوجه الطفولي والابتسامة التي تخرج على استحياء، كل ذلك قد هيأ بأن تتطلع بها العيون على درجة عالية من الإعجاب، كان يجلس أربعة من الرجال بحلقة دائرية وكأنهم يجلسون جلسة سمر، يتكلمون فيما بينهم بلغة كردية، يلبسون البدل الأنيقة، استشعرت بوران الأهمية من خلف أناقتهم، رأت فتاتين صغيرتين لم تتجاوز احداهن على العشرين سنة يجلسان على حافة الأريكة، حين تقدمت نحوهم، كانت أول المفاجآت لديها حين رأت السيد أصلان من ضمن الموجودين، أستقبلها بحفاوة بالغه فيما أشار لها فراس بيده الى مكان بقربه وأسلمها أوراقا بدت كالعقود الرسمية التي دائما ما يحملها معه في حقيبته، عندما

اتجهت وجلست في مكانها قرب فراس، أصبحت بذلك في مواجهة رجل كبير وقور يلبس بدلة أنيقة ذات لون سماوي، كان يجلس على اريكة عريضة لوحده، بدت على ملامحه الوقار والرزانة الطبيعية، ذا لحية سوداء خفيفة منسقة وشارب لم يتبق من سواده الا القليل، وجهه متكافئ القسمات، تعتلى جبهته رقعة بنية تكاد لا تذكر وشعر رأسه يكسوه بعض الشيب الخفيف الذي لم يحاول اخفاءه، كان يلبس خواتم ذات فصوص من الأحجار المتنوعة ملأت بعض اصابعه ومسبحة طويله ذات حبات سوداء، لم تسعفها الذاكرة بتذكر شكله الذي أصرت أنها رأته قبل هذه المرة، بدا أنه من أشد المهتمين بها، لم يسقط ناظريه عنها طوال جلستها بينهم فقد أخذ ينظر اليها بنظرات لا تخلو من الاعجاب، يحملق بها بفضاضة وهو يعصر المسبحة بيدين معروقتان مما أثار بداخلها نوع من الضيق وزاد في ارتباكها، حينها اقتربت بوران من أذن فراس وسألته بصوت غير مسموع عن مكانة هذا الرجل الذي يجلس أمامها مما جعل فراس يبتسم ويقول لها بصوت خافت: (ألم تعرفيه... أنه السيد أبو الكاظم قائد حزبنا).

أخذت بوران تتساءل في قرارة نفسها، كيف يجتمع فراس مع بالسيد أصلان في مكان واحد، كيف يكونا على هذه الدرجة من الانسجام، ربما تكون مجاراة التناقض تجبرهم

على أن يأخذا الأمور بشكل طبيعي، ولكنها رأت الآن أن الباطل ونقيضه أصبح لهما وجها واحدا، فقد بدا من خلال وجودهم إنهم يحضرون الى اجتماع مهم ويجلسون حول طاولة تضمهم من دون أية شوائب، لقد بدد كل تساؤلات بوران الرجل الكبيرالذي أخذ يتنحنح، انتبه له الجميع وأخرج كل منهم حقيبة دبلوماسية سوداء مقفلة ووضعها أمامه على الطاولة المستديرة، بدا بعد ذلك أن الأمر يأخذ منحى الجدية البالغة حين أوقفتا الفتاتان الصغيرتان الضحك والتزمتا كل في مكانها من دون أية كلمة، لم تفهم بوران أهمية الاجتماع في البداية إلا عندما بدأ فراس بالحديث عن الكميات النفطية الهائلة التي لا يجدون لها طريق مناسب من أجل الخروج بها عبر طريق معين بشمال العراق، بالرغم من ذلك الكلام أرادت بوران ان تركز كثيرا بفحوى ما يدور بينهم عندما أخذت تنظر الى فراس بتركيز وهو يشرح الموقف الذي زاد من انتباه الموجودين الذين ارتسمت على ملامحهم علامات الحيرة، تكلم أحدهم بلكنة كردية وبلهجة عربية مكسرة عن أسعار برميل النفط الذي اتفقوا عليه بلحظتها وانتقلوا إلى أمر بدا أكثر تعقيدا وجدلية اجبر كل المتواجدين على ابداء الآراء المتضاربة مما زاد في حدة النقاش الذي بدأ يحتدم وبدأت ترتفع به الأصوات عاليا تخلله جدل واسع لم يستطع احد منهم انهائه وكأنهم في صراع مصيري قد يأخذ طويلا حتى

يصلوا الى نهايته، لكن الحديث الذي أخذ يزداد حدة وصرامة شيئا فشيئا عندما تطرقوا الى عدد الصهاريج التي سوف تنقل كل هذه الكميات الكبيرة خارج العراق مما اجبر البعض على التلكؤ وأجبر آخرون على الاسهاب بالشرح الذي طال حتى البنتين اللتين تدخلتا بشكل سافر في النقاش الذي اصبح لغطا لم تفهم بوران من فحواه شيئا، لقد بدت على وجوههم الجدية عندما توقفوا عن الحديث قليلا، ما لبثوا وأن تجادلوا مرة أخرى و استمروا بالحديث عن موعد التسليم والاستلام الذي على ما يبدو كان هو العائق الأكبر بالنسبة لهم، كان الاختلاف حول نقطة مصيرية غير مفهومة اتضح من خلالها أن الوضع تأزم وبشدة، مما أودى الى توتر اخذ يسري بالمكان الذي ساده الهدوء قليلا، كان الموقف أشبه بمسرحية هزلية لم تحدد نهايتها بعد، لقد بدت الامور تتضح اكثر واكثر حين صرح أحدهم عن حجم النفط الذي لابد ان يأتي الى تركيا، ندت منها التفاته بعينين جاحظتين نحو فراس الذي اخرج سيجارته على مهل كما اشعلها على مهل وأخذ يسحب الدخان داخل صدره بعمق ويبدده بالهواء، كانت قنبلة كبرى دوت في صدرها الذي بدأ يخفق بسرعة قبل أن يصرح السيد أصلان على مسامعهم الاسم الحركي لأكبر قائد بالمنظمة الارهابية التي تسيطر على ثلث الاراضي العراقية، (أبو بكر البغدادي)، أخذ خفقان قلب

بوران يزداد عندما سمعت الأسم، لكن صوت السيد أبو الكاظم قائد الحزب قطع كل ذلك الهرج حين قال بصوت جهوري عال: (هذا يكفي. . سوف يخصم الموضوع) عندها اخرج تلفونه النقال وأخذ يكبس على شاشته الارقام، بدا على وجهه الضيق وهو يقف ثم يتجه الى النافذة الواسعة المطلة على حديقة الفندق بخطوات رتيبة، أخذ وقتا ليس بالكثير وهو يتكلم مع طرف آخر مجهول بكل هدوء، كانت ردوده عبارة عن همهمات وعبارات قليلة مختصرة، بعدها اتجه بسرعة نحوهم وهو يصفق بيديه وقال كلمة الفصل التي بددت كل الاستفسارات من على الوجوه المترقبة: (لقد اكتمل كل شيء)، حينها انتاب بوران نوع من الانقباض الذي أخذ يتفشى كالوباء وهو يسري عبر مسامات خارجية بكامل قلبها الذي احست انه توقف عن الحركة بعد أن عم الهدوء بالمكان، لقد اكتمل الصفقة وأصبح كل شيء على ما يرام بعد ان تبادلوا الاوراق فيما بينهم وأخذوا يوقعون عليها بكل راحة.

في اليوم التالي، كان حفلا بهيجا في صالة الفندق الكبيرة، امتد إلى وقت ما بعد منتصف الليل، كان الحفل من دون أي مناسبة تذكر، تجمع به بعض الدبلوماسيين والشخصيات المهمة من كلا الجنسين، شخوص من الدرجة الرفيعة بهندام على درجة عالية من الحركات المحسوبة، وزعت

الابتسامات والضحكات فيما بينهم ببذخ شديد واخذت الحوارات والنقاشات تأخذ حدتها كلما اقترب الوقت نحو ساعات الصباح الأولى، كان البذخ على أشده وحرارة اللقاءات مبالغ بها بين الشخصيات التي كان بها السيد أبو الكاظم يقف بالمنتصف تحفه حفاوة كبيرة من الحضور، حاولت بوران ان تجاري الوضع وتكون اكثر هدوء واتزان، كانت على درجة عالية من الإغراء والجاذبية بالرغم من لباسها المحتشم، لكنها أخذت تستقطب بعض الحضور من خلال ضحكاتها ومجادلتها الهادئة التي تنتهي دائما بالموافقة على وجهة النظر الأخرى على سبيل الدبلوماسية، لذلك لم تهتم بوجود فراس الذي أخذ يتخاطف من شخصية الى اخرى، يصافح الموجودين بحركات سريعة، لكنها أحست بجو الصالة الخانق الذي امتلأ بالدخان، لذلك أرادت أن تخرج من الصالة الى حديقة خلفية لمبنى الفندق وتستنشق بعضا من الهواء النقي، كانت النجوم واضحة في جو السماء الصافية، حين جلست على كرسي من الخشب مسطح رأت فراس عبر زجاج البوابة الكبيرة يتكلم مع السيد أبو الكاظم الذي أخذ يتطلع بها بين حين وآخر، لكنها لم تهتم لذلك عندما رأتهما يفترقان، ولكن ما هي الا دقائق حتى لحق بها فراس وجلس بقربها، سألته ان كانوا سيمكثون هنا كثيرا لكنه لم يرد عليها في بداية الأمر، اراد ان يكون اكثر غموضا حين

قال لها من دون أن يلتفت نحوها وهو يشعل سيجارته: (هل افضيت سرك للبحر قبل ان تتركيه) لم تفهم ساعتها ماذا يقصد فراس لذا أخذت تنظر اليه مستفسرة، لكنه لم يشأ أن يطيل من حيرتها، التفت نحوها وقال بكل حماسة: (سوف نقوم في رحلة بحرية غدا على قارب الأحلام)، لكن فراس بدا حزينا، تغيرت ملامح وجهه بلحظات، كأنه كان يحمل هما لا يطاق، كان سارحا شارد الذهن على غير ما رأته قبل قليل من حيوية، حين سألته بوران عن سبب هذا التغيير المفاجئ، لم يقل لها شيئا في بادئ الأمر، قام واتجه الى شجيرة صغيرة كانت قريبة منه وأخذ يضرب بأوراقها وكأنه ينفض عنها الغبار، ولكن قبل أن تقف بوران وتتبعه قال لها بصوت بدا متلبكا: (بوران هل تستطيعين أن تجلبي أوراق العقود من حقيبتي)، كان طلبا غريبا في هذا الوقت أودى بأن تسأله عن سبب اهتمامه بالأوراق في هذا الوقت، لكنه رد عليها بلهجة أشبه بالعصبية وهو يتجرع بقايا كأس كان يحمله بيده: (أنني أحتاج الأوراق حالا ومن دون أي نقاش)، لم تشأ بوران أن تجادله، بل أخذت تنظر اليه بتفحص وهو يغادرها عائدا الى الصالة التي اتجهت نحوها واخترقت الحضور بسرعة ثم استقلت المصعد نحو الطابق الذي يسكنون به، حين دخلت الى السويت الذي تفاجأت أنه كان مفتوحا، اتجهت الى غرفة فراس عبر الصالة، وجدت الأوراق في

الحقيبة التي كانت مرمية على السرير، التقطتها وعادت متجهة في طريقها الى الصالة الواسعة، وما ان خرجت من باب الغرفة حتى رأت السيد أبو الكاظم يقف أمامها يحمل كأسا من الويسكي، كانت صدمتها شديدة، اخذت بوران تنظر إليه عدة لحظات بذهول وريبة، لكنه قال لها وهو يبتسم: (كنت أريدك في أمر مهم)، لم تفهم ما القصد من وراء وجوده في هذه الساعة وفي هذا المكان، لكنها لم تمانع عندما اشار لها بالجلوس معه على أريكة واحدة في الصالة، كان الأمر مربكا بعض الشيء، لذا أرادت أن تنهي ذلك بأسرع ما يمكن وتعود إلى الحفل، بادرته بالقول " هل أقدر أن أخدمك في شيء سيد " حينها نظر اليها السيد أبو الكاظم بجدية بالغة، قال وهو يتصنع الرزانة: (منذ أن رأيتك أول مرة وشيء ما يجبرني على عدم تجاوزك)، أحست بعد ذلك أن بالأمر شيء مريب، لكنها أرادت أن تستفسر أكثر من خلال اصغائها له حين اكمل حديثه بكل ثقة: (فراس لن يأتي هذه الليلة، لقد أمرته بالذهاب الى أمر هام) حينها انتابت بوران شكوك غريبة أدت بأن تسأله بحدة "حسنا.. ما المطلوب مني الآن" حينها أخذ يفرك الكأس الذي كان مملوء بين راحتيه، نكس رأسه لحظة ثم عاد ليقول لها بكل برود: (فلننهي كل شيء بهدوء، لا داعي للعناد) .

كانت صدمة كبرى لها، لم تستوعب أن يكون هذا السيد على هذا القدر من الدناءة والانحطاط، لكنها قامت من دون أن ترد عليه بأي كلمة واتجهت الى الباب الذي وجدته موصدا، حين أمرته بلهجة غاضبة أن يفتح لها الباب، قام واتجه نحوها، قال بهدوء وهو يلوح بالمفتاح عاليا: (أسمعيني.. انني أملك هذا الفندق وأملك كل شيء به وأيضا أملك فراس، فأنا صانعه) وأردف بعد أن رأى وقع كلماته على وجه بوران التي أخذت تنظر الى جسده الضخم: (لا تبدي أية مقاومة فهذا ليس بصالحك)، كان السيد أبو الكاظم كفيل بأن يرديها أرضا أو يكمم فمها أو يضربها ان لزم الأمر ان هي قاومته، فلن تسلم من العواقب أن هي أبدت رفضها، لذلك قالت له كنوع من المراوغة "فليكن ذلك في وقت آخر" لكنه هز رأسه وكأنه عرف مغزاها ثم رد عليها وكأنه يريد أقناعها بصوت حنون: (سوف أفعل لك كل ما تطلبين وأنا قادر على ذلك في أي وقت)، حينها ردت عليه بحزم وهي تكاد أن تبكي "لم أكن أتصور بأنك على كل هذه الدرجة من السفالة والانحطاط" حينها بدا على وجهه الغضب الشديد، لكنه انتظر برهة ريثما استجمع بعض من هدوءه وقال لها محذرا وهو يرفع أصبعه نحوها: (صدقيني لن يهتم أحد لصراخك) عندها عرفت أنه لن يتراجع عن ما قصده بعد أن شمت رائحة المشروب يتطاير من فمه، فقد بدا

مصرا على الأمر وان كلفه ذلك اجبارها بالقوة، لذلك حين عادت بخطواتها الهادئة وجلست على الأريكة، قالت له بشيء من العصبية "ماذا تريد الآن"، اتجه نحوها وجلس بقربها، قال وهو يضع يده على يدها التي كانت ترتعش: (فقط استلقي بهدوئك، سوف يكون كل شيء على ما يرام) حينها ردت عليه بشيء من اليأس"الحق معك انما هي أيضا صفقة من ضمن صفقات فراس"

عند مساء هادئ، لم ترَ بوران في حياتها ما لهذه السطوة من الثراء الذي بدا به فراس، المال والشهرة وقناني الويسكي المتراصة على الرف كالنساء العاريات، اليخت الذي كان يأخذهما بعيدا داخل البحر حجب عنها عالم كانت تظنه عالمها الذي لن تخرج منه، تمنت في هذه اللحظة أن الدنيا تقف عند هذا الحد ولا تعود الى موانئ الألم السابق، فهي تعرف ما يخبئ لها القدر حين تضع قدمها على حافة خشب ميناء الفرح، كان المركب المتجه الى رحلة احلامها يجوب البحر على أكف الموج الهادئ، انسيابية المركب الذي بدأ أكثر هدوء في المساء، انعكس على نفسها بشيء من الطمأنينة والرضا، أرادت أن تبوح لفراس عن الكثير من الأشياء التي كانت تضمرها بداخلها طوال هذه السنين وهي تقف في مقدمة اليخت فاتحة ذراعيها على اتساع ومغمضة العينين، مستسلمة للرياح والرذاذ الذي أخذ يضرب بشعرها المتطاير،

لازال فراس خلف المقود يحاول ان يبتعد الى اعماق البحر بسرعة كبيرة، يبتعد بها الى خلوته المائية، ضلت على هيأتها واقفة حتى عندما اوقف فراس الماتور، عندما فتحت عينيها، رأت أضواء البيوت من بعيد وكأنها سوارة مذهبة مطروحة على الساحل، نسيم المساء الذي ينبئ من خلال نسماته التي أخذت بوران تستنشقها بطمأنينة لا توصف، عكس بداخلها اشياء من الفرحة غير مفهومة، حاولت ان تمسح اي شيء عالق بالهفوات وتبدد كل الرماد الذي بداخلها وتذروه الى أجل غير مسمى، وكأن المنظر يصر على اغوائها، كانت تريد ان تستنشق الفرح اكثر مما ينبغي، لقد أحست بخطوات فراس حين اقترب نحوها بجسد نصف عاري، التفتت نحوه بابتسامة مرسومه يشوبها الخجل بعد احست لأول مرة انه رجل غريب عنها، صدر عريض بشعر ابيض، عضلات في طريقها الى الترهل وقوام طويل يقف في عمق الرجولة، لولا الكرش الذي اخذ مكانه من النشاز في جسمه، أخذ فراس يتفرس بجسدها اللدن الذي بان من خلف ثوب طويل وناعم، فيما ارادت هي ان تكمل هذه البهجة في صدرها وتصارحه بمرحلة ما بعد هذه العلاقة، فهي تعلم انها لابد ان تنهي كل هذا بسرعه قبل ان يقع المحظور مرة أخرى وتكون بعالم اخر من الندم، كانت بوران تتابع حركة السمك الذي أخذ يتطافر في عرض البحر، يتقافز على بعد مسافات الى

الأعلى ثم يغطس بالماء مرة أخرى، اتجهت الى حافة اليخت وهي تقول "سوف اسألهم عن اسمائهم، هي انت... ما أسمك، وأنت وأنت" بينما أخذ فراس يهدد السمك بحزم وبلكنة مضحكة بعد أن مط شفتيه وتجرع من كأس الويسكي رشفة طويلة وقال: (هي انت.. ان لم تردي سوف اطلق عليك اسما لا يليق بك)، حينها التفتت بوران نحوه وهي ترفع اصبعها عاليا ثم قالت "لالا.. سوف اطلق عليها اسم سمكونه "عندها ضحكا سويا، انتابتهم لحظات من الانفعالات التلقائية، حتى أنهما صرخا سويا في الفضاء، اخذ فراس يزأر كالأسد وهو يقف على حافة المركب فيما هي اصدرت صوت الذئب بتواصل مستمر ما لبثا إلا أن وقفا قبالة بعضهما البعض واخذت يديهما ترفرفان كالطيور، يهزان رأسيهما كما المجانين، يضربان ارجلهما احتجاجا كالأطفال ما لبثا وأن تشابكت الأيادي وأخذا يدوران بحلقة دائرية حتى تعبا فارتميا على مصطبة كانت بالقرب، كانا يلهثان، رمت برأسها على صدره، قالت بصوت اشبه بالمتعب "هنا سوف نحسم الأمر" لكن فراس ظل يلهث وهو يرفع كأسه نحو فمه ويفرغ كل مافي الكأس في جوفه وهو يحملق في السماء بعينين حمراوين مدة طويلة، بعدها انتفض فجأة وفز واقفا، اتجه بعيدا عنها وفرج ذراعيه واخذ يقول بصوت عالي: (لقد حسم الأمر من زمن بعيد) حينها قامت بوران واتجهت نحوه،

أرادت أن تطوقه بذراعيها، لكنه بحركة مباغته امسك ذراعها بشدة وقال بعصبية بالغة: (لماذا استسلمت له بكل هذه السهولة)، ما بين الصحوة والخدر، لم تستوعب بوران ما حدث، كادت الكلمات ان توقظها فجأة من فرحتها لولا انها تراجعت الى الوراء بذهول، ارتطم جسدها بالمصطبة مما جعلها تجلس بشكل عفوي، تبعها فراس بنظرات تقدح شررا ووجه محتقن، وكأنه تحول الى انسان اخر غير الذي كان يلهو معها كالصبية الصغار قبل قليل، قال لها وهو يضع وجهه بوجهها غاضبا: (كان يجب عليك أن تقاوميه) حينها وضعت يدها على فمها وحبست أنفاسها ولم تتكلم، لم تزد، بل ظلت على جلستها مصدومة تتطلع بوجه المحتقن بغرابة وذهول، كيف تحول فراس الى شخص اخر بلمحة عين، انوار عند الساحل بدأت تنطفئ، تحول البحر الى قطعة جليد، اخذ الجليد يمتد ويمتد على الماء الى ان ارتفع وعاد يكسو السماء جليدا أيضا، شعرت بوران وكأنها بمكعب بارد، كل شيء انطفأ بداخلها، حرارتها، شوقها، حبها، بدا كل شيء مغوشا أمامها، ارادت ان تزيح ستارا اسودا كان بينها وبينه، طوحت بيدها اكثر من مره وكأنها تريد أن تقشع السحاب، ارادت ان تتيقن ان كان فراس الذي يقف قبالتها هو من دبر كل شيء مع السيد أبو الكاظم ام لا او انه تحول الى شخص اخر واصبح على هذا النحو من التجني، لقد كان يعلم بكل

شيء ولكنه خبأ رأسه بالرمال، انتابتها غصات حاولت ان تكتمها بيديها، ولكنها بدت انها لا تحتمل ذلك، أخذت تبكي بكل حرقة وقد اختلطت أناتها المتقطعة مع شهقات تعلو وتنحبس على فم بدا يخرج سوائل لزجة تنساب على ملابسها، لم تسعفها قدماها على الوقوف لكنها تحاملت على نفسها ووقفت ثم استدارت بشكل مباغت نحو الطرف الآخر من المركب متجهة الى الحافة التي وقفت عليها واستعدت للنط، حينها خمن فراس ما تفكر به بوران لذلك اسرع اليها وطوقها بيديه القويتين وانزلها، لم تقو بوران على الإفلات من ذراعيه التي سحبت جسدها المتهالك الى داخل القمرة ورمى بها على كرسي عريض بالداخل بينما أخذت هي بالصراخ في وجهه ودفعته بعيدا عنها، لكنه انقض عليها وأخذ يكيل لها الصفعات حتى بدا انها فقدت الوعي.

لم يتغير شيء في صباح اليوم التالي، أخذت بوران تحضر حقيبتها ايذانا بالعودة الى بغداد فيما جلس فراس يشرب القهوة ويدير بجهاز التلفاز عن بعد، ارادت ان تتركه وتعود الى بغداد محملة بخذلان آخر، ارادت ان تعود الى نفسها مرة اخرى، كانت في عجلة للمغادرة حين اتضح الصبح بعينيها، لن تلتفت الى بقايا حكاية سوف تنساها الى الأبد، سوف تبعثر سلال الورد في الدروب الخاوية، فلم يعد الاحتفاظ بها يحمل اي معنى بعد الآن، ها هي الريح والرذاذ

يضربان بزجاج النافذة، شعرت برعب يتبجح بالأعماق اخذ يقاسمها نشوة الخوف على جولتين، غبش الليل الغاشم الذي انصاعت له بسهولة وتقاسيم النور المغلوط الذي انسحبت من داخلها بهدنة مؤقته، لم يعد عطره يأسرها، لم تعد عيناه بحرها الذي غرقت به ولا انفاسه التي تحلق بها نحو بوابات الفؤاد، كانت بحاجة له وبنفس الوقت لم تكن بحاجة له، انتظرت كلمات الاعتذار، انتظرت عناقه المفاجئ، لمسات يده، ما يفعله الرجال حين يثيرون غبار الاكتشاف من على تمثال الخشب لكنها عدلت عن هذا الاحساس واشاحت بوجهها نحو النافذة التي لازالت تصنع شروخا مائية تنسحب برويـة على الزجاج، سوف ترمي بالقفص الذهبي قبل ان تموت طيور الحب بداخله، وكأنها أرادت أن تفك أبواب سجنه الذي وضعها به منذ زمن بعيد بملء ارادتها وتعود الى ممارسة وحدتها، معظم الأشياء لا تأتي في الوقت المناسب، أجملها يأتي متأخرا والأخرى تبقى أمنيات، فمن الصعب ان تكون شخصين بنفس واحدة ولا يعرف احدهما الآخر فلربما احدهم بدأ يخدعك، هذا ما يحدث حين تسكننا النهايات السريعة، وننسي او نتناسى اننا لازلنا على شجيرات الحزن الوارف، نبقى احجيات من المفارقات مقابل مروحة لا تهيج روح التلاقي عند منحنى خطر، لن تواجه أي أحد بنظرات اللوم بعد اليوم، فقد فتحت عليها جبهة معروفة بخساراتها

سلفا، دموعها اعلنت الهزيمة عند وكر للصوص الغرام، سرقوا منها عفتها الجميلة وتركوها تموء بليل عاصف تحت الضياع، قد يتبلل الظمآن بماء لا يستطيع أن يشربه من شدة العطش، وقد تتمزق أوراقا لم تكتب بها سوى أسماء معطلة وتقذف بها في الوادي العميق، قصاصات تتلقفها جهات الريح وترمي بها بين حزوز الشجون، لقد آن الأوان بأن تعترف قبل أن تطلق الصرخة الأخيرة الباقية على الوهم ومنها التعاسة المؤجلة في آخر معركة للذات " لست جديرة بالحب وليس الحب جديرا بي ".

الفصل الرابع

قالت: كيف تجرفنا الظروف الى هذا الحد الذي يجعلنا مختلفين.

قال: أتظنين أن المصير يختاره غيرنا لنا.

قالت: لا أظن أنك غافل عن أختيارك رحلة في الشتات.

قال: لم أختر شيئا.

قالت: اذا نحن ضحية الأقدار.

كان الاتجاه صحيحا هذه المرة وهي في طريق عودتها الى البيت، تاركة المطار خلفها يجثم بعيدا في صمته، عادت وحيدة، لقد ارادت ان تبدأ بداية حقيقية وتهدئ روحها التي كانت هائمة في مجرات ليس لها عناوين وأسماء، لقد سارت خلف الارتباك والصمت بالرغم من انها بذلت الجهد الكبير بأن تعيش على طبيعتها، لكن كل المتغيرات والمواقف أتت بغير المتوقع، ارادت ان تبدأ دائما رحلة البحث عن خط موازي لآخر الامنيات المسروقة وتنشئ لحياتها مرحلة تبدأ من صفر صريح ولا تنتهي بانكسار، لكنها وجدت أنها تلهث خلف سراب مخيف لا ينتهي بخط التقاء واضح يحدد المسار للقادم، أخذت تنظر عبر نافذة التكسي الى شوارع بغداد المزدحمة، تمنت أن لا تزدحم عليها المواقف وهي في طريقها الى البيت.

في الليل تسلقت الشكوك بالانحاء، أحداث الأمس أخذت تنعتها بالتفاضل ما بين الرضوخ للإحساس المنهك الذي تعودت عليه وما بين سحنة من اندفاع كان مبرر، الرياح الحرة التي أتت عبر النافذة المفتوحة لم تخفف شيئا من أشباه حمى بدأت تسري بجسد بوران المسجى على السرير، كان صوت الرياح هذه المرة يعصرها و يشعرها بالضيق وهو يبعث عبر حزوز النافذة صوت أشبه بالصفير الذي يأتي من

جرم سماوي مجهول يكاد يسقط فوقها، كان صوت الرياح قادرا على أن يوقظ كل شذوذ الذاكرة التي دائما ما تفضحها أصوات صرير الأبواب الصدئة، كانت لا تزال على نفس حالتها بين الصحوة والنوم عندما امتدت يدها نحو شريطا من حبوب من تحت الوساده، أخرجت قرصين وبلعتها سويا ثم استكانت، حسبت أنها غابت يوما أو بضع يوم، لكنه كان اسبوعا كاملا قد مر عليها ولم تحس أنها كانت أشبه بالغيبوبة بعد أن أخذت تبلع الأقراص المنومه من دون أي رادع، لقد غلفتها الوحدة برداء من احباط وأصبحت الأيام لديها غير معدودة، فقد مرت الأيام اللاحقة سريعا وهي على رقدتها، كلما تذكرت موقفها مع فراس ازدادت حزن وأسى، أرادت أن يغيبها النوم لبضع أيام أخر ينسيها ما حدث، كانت تدرك انها تجاوزت مرحلة الثقة بنفسها أو قد انعدمت وانها لابد ان تسجن نفسها ليال طوال ريثما تجد أجوبة على كل التساؤلات المستعصية التي تدور بخلدها قبل أن تعود الى طبيعتها، ولكن لم يكن طرق باب الغرفة هو الذي جعلها تحملق به مليا قبل ان تصدر صوتا أشبه بالبارحة، باردا وبطئ " من الطارق " على الرغم أنها كانت تعرف أن عمتها تقف بالخارج الا ان صوت صرير الباب أجهض الخيال عندما فتحته وكأنها تفتح جرحا قديما بداخلها، لقد اختلقت العمة أصيلة وجبة العشاء من أجل أن تطمئن عليها وتراها، بعدها

عن مشاركتهم حياتهم المعتادة هو الذي شجعها على الاتيان، تقدمت نحوها ووضعت صينية كانت مغطاه بقماشة بقربها ثم أزاحت بعض ملابسها المتناثرة، وكأنها تزيح جزءا من اهمالها لنفسها الأيام السابقة، أخذت العمة تمسح على رأسها بكل حنان وهي تتفحص عينيها المؤرقتين، قالت: (بوران مالذي حدث)، حب وحنان العمه أصيلة كان على غير كل المسميات وغير كل الكلمات، فهي تعلم أن حنانها كان يخرج من روحها باكيا متوسلا ذليلا لا تتكلف به أبدا طوال زمن عنوستها، كلماتها تأتي على سجيتها تضرب بالقلب وتفتح الشرايين المتأهبة للارتماء بأحضانها، لقد فضح بوران تلعثمها حين ردت وقالت: "لا شيء عمتي أنا بخير مجرد وعكة"، لكن العمة أصيلة تجاهلت جواب بوران عن قصد منها، تعمدت أن تؤجل فضح حزنها الى وقت آخر، خرجت وتركتها وحيدة مع جرحها، أغلقت الباب من خلفها من دون أن تنطق ولو بكلمة واحدة، أعادت بوران النظر الى كتاب ليل المنافي المطروح على سريرها، حملقت به مليا وكأنها تخاطبه علها تجد جوابا لكل التساؤلات التي كانت تتضور بداخلها، الكتاب الذي أصبح لا يفارقها، يحمل نفس التساؤلات ذاتها التي لم تجد لها أجوبة شافية، كيف رمت به الصدفة الى خطواتها الرتيبة وأشعلت بها فوضوية محَدّثة من التقاء الشعور الذي اشعل بداخلها حس مغامرة

الاكتشاف، كيف كانت شرارة وجوده أجبرتها على فهم آخر لتطاير البهجة في فضاء فارغ، لِم كانت تركن الى قراءته كلما هاج الاحساس بفراس الذي كان باستطاعته أن يحضر قلما من وفاء، يخط علي حاشية صفحاته رحلة الأجوبة النهائية معها، لقد كانت تتأمله أن يسكنها فرحا ولكنه أضطر الى تمزيق الكلمات حرفا حرفا وبدده بالهواء، سحبته نحوها واخذت تقلب بالأوراق بكل برود.

الكرباح التاسع ـ النمسا

كانت القمة أجمل من القاع، جبال مطلية بالثلوج تكاد السحب تلامس قممها التي أحاطت بالوديان الخضراء، عندما انحدرنا نحو السهول عبر شوارع مدينة سالزبورغ، كانت هنالك مساحات خضراء واسعة تقطعها شوارع مبللة تراها كالفضة، نصاعة في كل مكان حتى في الهواء البارد الذي أخذ يدخل علينا من نافذة السيارة التي أقلتنا الى محطة القطار التي سوف ننتظر بها عمي الذي قال أنه سوف ينتظرنا هناك عندها، أخذت ابرار تفتح النافذة من فترة وأخرى لترى المناظر الخلابة وهي مبهورة بالطبيعة التي تسحرك بمناظرها الناصعة وأنت ترى بياض الثلج الذي يمتزج مع لون الخضرة ولون الصخور المتدرجة ليشكل لوحة قل نظيرها في أي

مكان آخر من العالم، بالرغم من ساعات الصباح الأولى إلا أن السماء لا تزال معتمة وماطرة ونحن نسير عبر الطريق الملتوي الذي امتد على طول حافات الجبال، كانت وجهتنا الى محطة قطار المدينة التي اقتربنا منها كثيرا، سوف تكون المحطات التي تتوقف عندها أيام الترحال والتي سوف تنهي كل عذاباتنا وتعبنا وستتوقف عندها مأساتنا، عندما وصلنا كان المكان يعج بالمسافرين الذين أخذوا يتخاطفون بشكل متسارع بينما نحن أخذنا ننتظر في ركن غير بعيد عن مطعم صغير خرجت منه رائحة القهوة التي أثارت بنفس أبي شيئا من الطمأنينة حين أخذ يشم الرائحة وهو مغمض العينين ثم قال بشيء من الراحة (لا بد لنا من قدح ينعش ما تبقى بالنفس) ما لبث وان اتجه نحو باب المطعم، ولكن قبل ان يدخله رأينا رجلا يستوقفه وهو يمسك يده بقوة، ماهي الا لحظات حتى رأيناهم يتعانقون ثم يتجهون نحونا بيدين متشابكتين حتى أصبحا قريبين جدا منا، لقد رأينا وجه عمي يتهلل بالفرحة وهو يضمنا اليه بمشهد من البكاء لم يدم كثيرا فقد ابتعد عنا قليلا وقال باستغراب (أين أصرار) ولكن ما من أحد أجابه، حينها تغير لون وجهه وهو يرى الصمت الذي حفنا من كل جهة وعلامات الحزن التي بدت جلية على وجوهنا لا تنذر بخير، ولكنه فتح ذراعيه مرة أخرى مستفسرا،

أعاد علينا ذات السؤال الذي ربما يكون قد عرف من خلال سكوتنا الجواب ثم قال مستغربا (ما لذي حدث).

كان وقع الخبر كبيرا عليه حين قال أبي (أصرار ماتت في الطريق) حينها أدار ظهره وابتعد عنا مسافة ثم توقف، أخذ وقتا ليس بالطويل وهو يضع كلتا يديه على وجهه، بعدها استدار وعاد نحونا وهو يمسح بيده على كامل وجهه الذي بدا الحزن ظاهرا عليه ثم قال بشيء من الأسى (هيا بنا قبل أن يحدث شيء ليس بالحسبان) لكن أبي أمسك بيده وقال له (لن نذهب من دون القهوة).

لقد التقيناه وكأننا نلتقي المخلص الذي سوف يخلصنا من كل الارهاق والتعب الذي كان باديا علينا من جراء أيام التهريب والترحال، كان حريصا لأن يأخذنا في سيارته الدافئة بسرعة ويذهب بنا عبر الحدود الى مدينة ميونخ الألمانية، لقد كان صامتا طوال الطريق وهو يرانا نغط بالنوم ولم يشأ أن يوقظنا وهو يرانا على هذه الصورة من التعب، ما هي الا ساعات لم نحس بها حتى قام بإيقاظنا بعد أن أوقف محرك السيارة وهو يقول (نحن الآن في مدينة ميونخ) مما دعا أبي الى أن يسأله باستغراب وهو يفرك عينيه عن الحدود التي لم يمروا بها ولكن عمي ابتسم له وقال (الحدود هنا تصرح عنها علامات الشارع فقط، أنظر الى اللافتة هناك نحن الآن بألمانيا).

فراس حسين القاسم -آذار ٢٠٠٣

الصباح البارد، ينبئ بمجيئ الشتاء، وقفت بوران بالقرب من نافذة غرفتها الواسعة تنظر الى الشارع والبيوت الساكنة، بعض من النسمات اللطيفة تعمدت الولوج عبر النافذة لتدخل بأعماقها، سحبتها الى صدرها وهي مغمضة العينين ثم أطلقتها على مهل تنهيدة عميقة، أخذت تنظر عبر النافذة الى المطر الذي بدأ يهطل بروية، أحست أن حبات المطر تتكسر على صفيح ساخن تتصاعد منه الابخرة بتواتر شديد تطال حتى سقف السماء وترسم بالأعلى اشباح غامضة على هيئة سحب دخانية سرعان ما تصعد مع الغيوم نحو أفق شارف على الامتلاء، كان الرجل الأرنب في أشد حالات الحزن، وقف بالقرب من بوران وقال بصوت متحشرج: (يجب ان تبدأي من جديد، اليوم عيد ميلادك)، حينها انحدرت دمعة من عينها رغما عنها بكل هدوء، برغم السكينة التي أخذت تتضور بداخلها، لكنها كفكفت كل شيء وأرادت الخروج إلى العالم مرة أخرى بعد ان مضى شهراً كاملا لا تنزل الا نادرا و تلتقي بعائلتها إلا قليلا، أذ تنبهت إلى تاريخ هذا اليوم بالذات الذي أحست أنه سوف يعطيها راحة اضافية تعرف مدى حضورها، لذلك أرادت أن يشاركها الجميع فرحتها، أسرعت بالنزول عبر الدرجات الى الأسفل بعجلة

يتبعها الرجل الأرنب بفرح مبرر حتى وصلت الى الصالة الواسعة، وجدت الكل يجلس حلقة نصف دائرية حول المدفأة النفطية، تفحصت الوجوه بعمق حين ألقت عليهم التحية وهي تأخذ مكانها بينهم، جلست بالقرب من أبيها والعمة أصيلة وسماح الذين ألتفوا حولها كحلقة دائرية عندما رأوها على هذه الحالة من النشاط، أدارت ناظريها في المكان وكأنها تبحث عن أثير الذي كان غائبا لكنها لم تجده، تنبهت الى صوت أبيها الذي بادرها بالسؤال: (ما الذي حدث؟)، ردت عليه وقالت " لا تقلق أبي، كل شيء سيكون على ما يرام، أضن أنني شفيت "، بعدها أشاحت بوجهها عنهم نحو باب الباحة المطل على الحديقة الخلفية، رأت أبن أختها الصغير يركض في الحديقة، يحمل بيده طائرته الورقية وهو يحاول ان أن يحلق بها الى الأعلى بكل حماسة وسرعة يتبعه الرجل الأرنب بخطوات سريعة، قامت واتجهت نحوهم مسرعة، حاولت اللحاق بهما ولكنهما كانا اسرع منها، حينها توقفت وأخذت تتفكر، كان نثيث المطر يشعرها بالانتعاش وهي تشم رائحة الارض الطينية، أخذت تخطو خطوات نحو الشجرة الوحيدة التي حين جلست تحتها أخذت تتساءل قبل أن تستنشق الهواء الذي كان يمر عليها كالحلم الشفاف، هل فعلا سوف يمر هذا اليوم كباقي ايام السنة وهي لاتزال تحسب نفسها تلك البنت الصغيرة التي تعدو وراء طائرة

ورقية عريضة يتلاعب بها الهواء أشبه بالتي بين يد ابن اختها الصغير الآن أم أنها شاخت قبل الأوان، وهل خطت الأيام على سطور كراستها أوهام مبكرة من دون أن تستأذنها أم أنها صرحت بذلك من دون أن تنتبه، وهل ساقت الرياح رمال الصحراء الى نتوءات صخرية حتى شكلت من حلمها تمثالا من تراب سرعان ما يزول مع أول هبة رياح عاتية، وهل أحصى بحار غامض خطواتها على شطآن المرارة وأبحر بعيدا عنها نحو جزيرة مجهولة ليحكي عنها للطير والماء والشجر، لقد كانت تبحث عن نفسها في بستان وارف يسكنها ولكن حرارة السنين أخذت تلتهم الأخضر منها بلا رحمة، فقد كانت في وقت من الأوقات امرأة نضرة تزلزل كيان الرجال الذين يصرون على اكتشاف أسرار ما خلف ورقة التوت، كانت كالطفلة التي تنام على ألعابها المثيرة، لكنها حين استفاقت مؤخرا، علمت أنها مجرد جسد أيقظوه من رحم الحقيقة وزجوا به في لجة من وهم.

حين عادت الى الصالة، وقفت قبالة العائلة كالصليب، فتحت يديها على اتساع بالغ وهي تمسك بإحداهما غصن شجر يابس أراد ابن اختها الصغير التقاطه وهو ينط حولها، قالت وهي تتطلع بكل الوجوه التي كانت حاضرة في الصالة " اليوم هو عيد ميلادي أيها السيدات والسادة "، لم تكن الابتسامة التي رسمتها على شفتيها سوى رسالة سخرية

للحضور الذين تناسوا أهمية هذا اليوم لديها، الرجل الأرنب بدا على غير عادته، أخذ يتنطط هو الآخر بفرح وزهو في الصالة بعفويته المفرطة، لكن يده امتدت من دون قصد على مزهرية من الفخار كانت فوق الرف وأوقعها أرضا مما جعل كل الموجودين يتنبهون الى المزهرية التي سقطت وتناثرت أجزاؤها على الأرض من دون أن يحركها أحد وقد علت الدهشة وجوههم، لكن الرجل الأرنب أستدرك موقفه حين عاد واقترب من بوران، قال لها بصوت رومانسي: (كل عام ومسافات الحواس تنساب كقطرات ماسية على شهيق أمنياتك عزيزتي)، لقد واساها بهذه الكلمات الجميلة وابتعد عنها قليلا، ما لبث وأن التف على نفسه وعاد ليقف قبالتها، أمسك أنامل يدها ورفعها عاليا وأخذ يستدرجها الى رقصة حالمة كراقصات الباليه، فيما هي امسكت بيده الأخرى وأخذت تجاريه بحركات فنية حالمة، بعدها رمت بذراعها على كتفه وطوقت بالأخرى خصره وأخذت تدور معه دورة كاملة أمام دهشة الموجودين الى أن وصلت الى أول السلم ما لبثت وأن انفكت عنه وعادت لتقف على قدم واحدة وتقفز الى الأعلى وهي تدور على نفسها، أرادت بوران أن تستمتع بهوس الأحلام المؤجلة قسرا على شكل فاضح أمام العلن بعفويتها، يدفعها بذلك انعكاسات دواخلها المتجددة، يتضح من خلال تصرفاتها غير الطبيعية أنها أرادت أن تبدو

كمجنونة ينظرون اليها بأعينهم الرتيبة بدهشة مبالغ بها، يبتسمون لتصرفاتها كأنه عرض طارئ ويزول، يتناسون معها ملامحها الأولى من الانعزال والرتابة، أحبت أن تسرح مع نفسها بعيدا عن عالمهم، تحاول أن تقف مع نفسها وقفة صلح وتجمع شتات الأعماق بوجه بات يحمل اتجاهات متعددة من نشوة السعادة، احبت أن تتحرر وتنتصر وتكون انسانة اخرى قبل أن تتجه وتمسك بسور السلم وهي تواصل رقصتها الحالمة الى أن أخذت تصعد الدرجات وهي تتمتم مع نفسها وتقول "لازلت بخير... لازلت بخير "، ولكن عندما ولجت الى غرفتها، أخرجت تلفونها المحمول وفتحته، كانت هناك رسائل عديدة ومكالمات غير مستلمة، أخذت تتفحصها سريعا ما لبثت أن بدأت بمسحها جميعا من دون أن تراجعهم، لقد أرادت فعلا أن تمسح كل الماضي، سوف يتغير الشعور وتعود مثل أول غريبة كما أتت، لم تلتفت الى الخلف من جديد، ولكن حين ارتمت على السرير بثقل جسدها، سمعت رنين جرس تلفونها المحمول، أخذت تتطلع إلى الرقم الغريب الذي لم تتعرف عليه ما لبثت أن أعادته وطرحته بقربها لحين ان انقطع الرنين الذي ما إن سكت حتى عاود الرنين من جديد، وكأنه يحث في طلبها لأمر هام، وجدته نفس الرقم الغريب، انتظرت طويلا قبل أن تنتهي نغمة الاتصال بعدها فتحت الجهاز، كان هناك صوت

رجل يأتها على الطرف الآخر بدا مرتبكا في البداية: (مساء الخير آنسه بوران... أنا أديب الرسام) تفكرت لحظات ارادت بها أن تستذكر ذلك الصوت الذي كان على الجهة الأخرى يقول من جديد: (أتمنى أن تكوني قد عرفتيني آنسه بوران) حينها ردت عليه بانتباه وقالت بنبرة مستفسرة " أهلا أستاذ أديب، عذرا لم أعرفك " لكنه قال لها وكأنه يحزم أمتعته لرحيل طويل: (يبدو أنك قد نسيت لوحتك)، ساد بعض الصمت الذي أخذ منها الوقت غير الكافي وهي تحاول أن تتذكر من خلاله أمر اللوحة التي يتحدث الطرف الآخر عنها قبل ان ترد عليه بشيء من فتور: (نعم. . نعم تذكرت تلك اللوحة)، لقد تذكرت بوران لوحة الفتاة الصغيرة اليائسة التي كانت تنظر الى شيء بعيد لن يأتي وهي تضع يدها على خدها، تذكرت أيضا ذلك الفنان أديب الذي التقته آخر مرة في المعرض الفني، جاوبته بشيء من النشاط وقالت " يبدو أنك تريد التخلص منها " حينها اتتها ضحكة قصيرة على الطرف الآخر قبل أن يقول لها بصوت لم يخلو من استفسار انه حاول ان يتصل بها اكثر من مرة ولكن جهاز التلفون كان مغلقا وهي بدورها اكدت ذلك وعزته الى سفرها الى تركيا حينها رد عليها وقال بجدية أن اللوحة موجودة أن كان يهمها أمرها، أخذت تفكر في أمر اللوحة ولكن قبل أن ترد عليه قطع صوت الفنان أديب كل تفكيرها وقال لها بشيء من

العجلة: (سوف أنتظرك اليوم بعد الظهرعند النهر. . الى اللقاء) وأردف قبل أن يغلق جهاز التلفون: (كوفي شوب السومرية).

كانت سعيدة وفرحة، أرادت أن تقتني تلك اللوحة بالرغم من حزنها، سماؤه الجديدة التي رأتها عبر نافذتها أصبحت ملبدة بالأمل و رغبة عفوية للاكتشاف، أرادت إزاحة بواطن نفسها المطعمة بالانكسار وزجها بالأدراج المنسية، لذلك سارعت وأخذت ابن اختها الصغير وذهبت حيث كان موعدها مع الفنان أديب، كان اللقاء الأول في كوفي شوب مطل على النهر، جلسا تحت مظلة عريضة مدت فوق طاولة مستديرة، تبادلا أطراف الحديث عن الفن والحياة وصولا الى الوضع السياسي الذي جرهم الى التذمر والشكوى، احاديث لم تحمل معنى سوى أنها كانت هي الهم العام المتداول الذي لا مناص من التحدث به حين لا تجد شيئا مهما تتكلم عنه، كان يريد أن يطيل الحديث بالرغم من هدوئه الملحوظ بين فترة واخرى لذلك تكلم عن وضع الفن والفنانين وكيف تدهور وأصبح على هذه الشاكلة المهملة، وايضا تكلم عن رحلاته الى دول عديدة تهتم بالفن كجزء من ثقافتها، قال أنه كان يرسم الصور الشخصية للمارة والسياح في الساحات العامة في ألمانيا، وكيف كان يعاني من اجل ان يضع له اسما مميزا هناك، ولكنه اخفق عدة مرات بسبب الفترة القصيرة

التي قضاها وصعوبة اختراق الأوساط الفنية الغربية التي تحتاج الى جهد كبير ومواظبة على الوصول الى مستواها الفكري ولكن بعد أن توقف أديب عن الكلام، ساد بعض الفتور بعد أن رأى بوران تتابع ابن اختها الذي اخذ يمرح في الممر جيئة وذهابا مع الرجل الأرنب الذي أخذ يضع يديه في جيوبه وهو يتلفت يمينا ويسارا وقد بدا أنه غير مبال، لقد فهم أديب على الفور بأنه لابد ان يسلمها لوحتها التي كان يضعها في حافظة كرتونية ويذهب، انتظرت بشغف الى حين اخرجها ووضعها أمامها، لقد رأت بوران اللوحة للمرة الثانية وهي على نفس النظرات الحالمة والعيون التي حبست الدمع بداخلها والوجه الحزين، قالت بصوت لم يخلو من النقد " لازالت حزينة " تطلع أديب في اللوحة مليا وكأنه يراها لأول مرة، ثم ادار ناظريه نحو بوران وقال: (هذا يتوقف على انعكاس الشكل في داخلك)، اراد ان يضيف شيئا الى كلامه ولكن بدا عليه الاحراج والتردد عندما اخذت بوران اللوحة وهمت بالوقوف والمسير وهي تقول " سوف تمطر مجددا " لكنه على ما يبدو كان لديه أحاديث كثيرة لم يقلها ولم يستطع تأجيلها بنفس الوقت، استجمع بعضا من شجاعته وقال لها بصوت لا يخلو من رقة: (أود أن تكوني لوحة من لوحاتي)، حينها التفتت بوران باستغراب نحو وجهه أديب الذي بدا عليه الجدية التامة التي لم تخلو من حرج وأردف

بنوع من التوضيح: (أقصد أود أن أرسمك)، لكن بوران لم تجد الرد الشافي لموقفه الذي كان مفاجأ، فما كان منها الا ان قالت " هل ابدو مميزة الى هذا الحد " عندها تهلل وجه أديب وقال بشيء من الفرح جوابه الذي لم يتأخر كثيرا (أنت لوحة في حد ذاتك تسير على الأرض)، لكنها وقفت قبالته وقالت بشيء من عدم الاقتناع " أود ذلك أيضا ان سمح الوقت " بعدها ابتسم ابتسامة عريضة، قال وهو يشدد على احرف كلماته: (سوف أتفرغ لذلك)، لقد أصابها الحرج وهي تنظر الى قسمات وجهه التي أوحت بالإصرار، لكنها ودعته بلطف واستدارت نحو ابن أختها الذي كان في القرب، اذ امسكت يده وسارت عبر الممر مبتعدة يتبعهما الرجل الأرنب في حين شيعها هو بنظرات لم تخل من الاعجاب، وقبل أن تختفي عبر الباب قال لها بصوت مسموع: (سوف تكون لوحة جميلة)، حينها اومأت له برأسها مع ابتسامه كانت حاضرة على فمها.

لقد جاء المساء سريعا، لم يحمل أملا ولا ذكرى، فقط حمل معه شعورا من غير ملامح وهي تتمعن باللوحة، وجدت فعلا أن الانعكاس المبطن تفضحه الأشياء الصريحة الواضحة، كانت وحدها تبحث عن تلك الفتاة الصغيرة التي تشاهدها تقف على ناصية حنينها، احتاجتها الليلة نصف يكمل أحلامها أو يكمل لوحة من لوحاتها الناقصة التي كانت

ترسمها ببراءة الطفولة، تلك الطفولة التي لم تغادرها إلا حينما تعرفت على فراس الذي بدل عنوان حياتها وجعلها ناضجة بأسرع مما كانت تتصور، لتجد نفسها تمسك قلما وتكتب عنوان جديد أسفل اللوحة الجديدة أسمتها "السيدة الصغيرة العذراء "، كانت تريد أن تلغي كل شيء وتعود الى وحدتها، فلم يعد يعنيها شيء حولها بعد أن طردت من فكرها مرحلة اليأس، لكنها تذكرت وعدها بالتغيير، ارادت أن تغير أي شيء من الرتابة وتخرج الى العالم مرة أخرى، لذلك أرادت بوران أن ترسم لوحة لم تتبين من ملامحها شيئا، أحضرت لوازم الرسم و أوراقا بيضاء واستحضرت إلهامها في هذا الليل وبدأت تخط خطوطا متباعدة لا تنتمي لبعضها البعض وخطوطا متعاكسة، ثم أخذت تملأ الأشكال الهندسية الناجمة عن هذه الخطوط المتشابكة التي كان اللون الداكن فيها يطغى على كل الأشكال المنحرفة، أعادت الرسم بنفس الطريقة السابقة بسرعة وعصبية أكثر مرات ومرات عديدة حتى تبين أنها ترسم نفس الأشكال العشوائية في كل مرة الى أن امتلأت كل الأوراق التي طوتهم بيدها بعصبية بالغة وأخذت ترمي بها بعيدا جميعا ثم استكانت قليلا قبل أن يأتي الرجل الأرنب ويقف بقربها وهو يميل برأسه نحو كتفه قليلا بطيبة وحنان، لم يأت وحيدا هذه المرة، دخل خلفه قطيع كبير من الأرانب الصغيرة التي ملأت الغرفة بكاملها حتى أنه

لم يعد هنالك مكان فارغ للوقوف، تطلعت بهم جميعا لتجد أنهم على شاكلة واحدة ينظرون اليها بنفس النظرات الحانية الوديعة ونفس الابتسامة الحنونة، أخذوا يقتربون منها كثيرا ويحاوطونها من جميع الاتجاهات، لكنها قامت فجأة، كأنها تنفض شيئا عن جسدها، أدارت ناظريها في المكان لترى الحيرة بادية على كل وجوه الأرانب فلم تلبث الا انها أخذت تصرخ بهم جميعا " أخرجوا جميعا لا أريد أن أرى أي أحد منكم بعد الآن"، لقد تنبهت الى أن الحزن حين يأتي تباعا، قد يتراكم مع الأيام حولها ويصبح من الصعب ازالته بسهولة أو ازاحة هذا الضجيج من الساعات التي تمر سريعا على متاهات الجسد في هذا الكون الفسيح، لا أحد يعنيه أمر النهاية المرتقبة عاجلا أم أجلا، لقد أخذ أمر قوقعة الذكريات لدى بوران حيزا مهما من التفكير لديها عند النداءات التي تصرخ في الداخل وتتوسل سبيل الخلاص من الندم الذي حبسته مدة طويلة ولم تراوغ في وضع بصمتها على التقلبات وتغيرات المواقف بين الحين والآخر، لقد سمحت للخذلان بالتطاول على الروح التي باتت على بعد شعرة من التخبط من دون أن تنتبه الى أن تعسف الذاكرة لا تنهيها الحسرات والتنهدات التي تحولت فيما بعد اعتقاد، لذلك قررت ومنذ هذه اللحظة أن تلغي كل أفكارها وتبدأ من جديد، هكذا سوف تولد للمرة الألف بقرار جرئ، فلن يجرؤ أحد بعد

الآن على المساس بها دون رضاها، حين سمعت رنين التلفون الذي كان كفيلا بأن يحرك بها الاندفاع فتحت الجهاز بسرعة، كان أديب على الطرف الآخر يدعوها الى معرض فني مشترك من خيرة الفنانين العراقيين، حاولت أن تعتذر، صمتت كثيرا، قالت أنها سوف تفكر في الموضوع وتأخذه على محمل الجد ثم أنهت المكالمة، لكنها وبعد ان تفكرت قليلا بقرارها الحاسم الذي سوف تسير به الى التغيير، التقطت التلفون مرة أخرى وطلبت أديب الذي يبدو أنه كان متفاجئا عندما سمعها تقول "هل من الممكن أن تعطيني عنوان مكان المعرض".

لقد أصبحا على تواصل دائم مع أديب حينما تكون هنالك فعاليات فنية بمعارض عديدة أو من غير سبب معقول الى أن تطورت اللقاءات بين الحين والآخر بأماكن مختلفة وبدأت تكثر اهتمامات بوران بالفن يوما بعد يوم، فقد أصبح هنالك شيء مشترك بينهما، أرادت أن تبدأ رحلتها الفنية معه، وجدت أنه وحده يستطيع مساعدتها في نمو موهبتها، تكلموا عن التفاصيل الصغيرة والكبيرة وتحدثوا عن الأمنيات وعن الغد المشرق الذي دائما ما يتكلم عنه أديب بإسهاب، حتى انهم اخذوا يجوبون شوارع بغداد سيرا على الأقدام لساعات طوال، ركبوا القارب الذي أخذ يبحر بهم في النهر سويا في أوقات الغروب، دخلوا حواري بغداد القديمة والأسواق

الشعبية وأصبحا لا يفارقان بعضهما البعض، لقد أهداها لوحة فارغة وألوان وقال لها أنها سوف تجد نفسها عندما ترسم لوحة جديدة، وجدت نفسها ترسم لوحات عديدة، تعكس ما بداخلها فعلا، رسمت بألوان شتى، بعثرتها فوق سطح القماش بنشوة دافئة، أحبت أن ترسم وجهها آلاف المرات، لكنها عدلت عن ذلك واكتفت بلوحة واحدة كانت هي الأجمل، رسمت وجها أقرب الى الحداثة، عيون تتلصص من خلف الأمنيات، أنف دقيق القسمات وشفاه صامته، أسدلت الشعر الغجري كبحر هائج ينحدر على وجه سرحت على طياته البراءة، حين رأى أديب اللوحة قال مدهوشا: (يا لك من فنانة ماهرة)، حينها انتابها شعور بالفرح والاندفاع عندما سمعت كلمات الاشادة من فنان كأديب، أرادت ان تتغلغل ببطيء نحو الشمس مع طيور تحلق باسمها، تسلك طريق القادم وتتبرأ من بقايا الوحدة وتترك انحرافها نحو المجهول وتقتص من أيام قد هدرت وأشواق قد بعثرت، أرادت أن تقاسم فنها الجديد بنوبات من فرح تخبئه في ركن معقول من حياتها وتتوارى عن الأنظار، تنفض خيباتها العالقة على صدرها و تفتح أشرعة على بحر حقيقي، أحبت أن تسير بعدد سنين عمرها على تضاريس شعورها المرتبك وتدفن نفسها بالألوان، ولكن كيف اقترفت الأعجاب بأديب على هذا النحو من السرعة، ارتضت

بالفرحة أن تأتيها قطعة قطعة مع ألوانها ولوحاتها الجديدة التي أخذت ترسمها بنهم، لقد ركنت الماضي البعيد وسارت مع أديب بدروب الأوردة تحمل متاعا من الأشواق، أرادت أن تنادي على الصباحات مرة أخرى وتبدد الليل الطويل الذي كانت به نجمة يتيمة، أرادت أن تذهب معه في نزهة الى آخر الأرض وتسابق الريح قبل احتضارها بالأفق وتفتح قلبها للنوارس كي تفضي لها بأسرار الشجون، لم تغادرها رائحة الندى وبهجة تستقبل صحوتها عبر رحلة تدغدغ شعورها في مغامرة جديدة مع أديب الذي لم يكن أقل اندفاعا منها، فبين صحرائها والنعاس أيقظت شعورها من جديد، وأسرجت للأطياف قصة ناضجة في وقت السحر، لقد اكتشفت سر اللهفة في مسامات العمر وموطن الأسماك في بحيرة بقلبها، كان حبا حاضرا غائبا يصرخ من تحت أنقاض انتكاستها، أنه قرارها، لقد غادر الجميع وبقي أديب وحده تهرب اليه من الماضي، كان هو راضيا على جزء يسير من حياته، قال في أحد الأيام أن العالم غير مفهوم بالنسبة له، بدا انه كان فارغا بعض الشيء من الجدية، أشد ما كان يزعجه تلك الفكرة التي في رأسه المتعلقة بالوجود، تأخذ حيزا من تفكيره بالوقت الذي لا يحتاج أن يكون على هذه القدر من الحساسية منها ومن رفضها أو اثباتها، كان يحمل بريق في عينيه دائما ما تراه حين يتكلم عن الانسانية التي يقول عنها أنها ولدت قبل أي

شيء في هذه الدنيا، يتأثر لأبسط المواقف، يعتقد أن الإنسان يأتي الى هذه الحياة ناصع البياض الا انه يتلوث مع مرور الزمن من عوامل عدة أهمها الأهل والمجتمع المخادع حتى يكسو روحه السواد الذي لن يمحوه الغفران، لكنه دائما ما يتراجع عن افكاره ويقول بأنه سوف يكون على ما يرام ان هو اتبع الحياة التقليدية وعاش كما يعيش البقية ولا يبحث عن الاختلاف، بيد انه يخالف رأيه بعد ذلك حين يقول أنه جزء من هذا الكون، لابد له أن يقدم به رسالته الانسانية قبل أن يموت ويذهب الى المجهول، وبأنه يجب عليه أن يدافع عن اعتقاده قبل أن يشعر بأنه زائد عن الحاجه، فقد أخذ يتفكر بالكون ويتخطى الخطوط الحمراء التي زرعت بداخله منذ الطفولة، كان على وشك السقوط بأفكار الالحاد على سبيل الاختلاف والاعتقاد بشي جديد من اجل فرض الذات المزعومة وفك شفرة الوجود، لكنه يتراجع دائما عن أفكاره مستسلما حين يدرك أن العقل هو الذي لابد له أن يحدد مصير المخلوقات ويجزم بوجود إله من عدم وجوده، قالت له بوران ذات يوم " لماذا تفكر بمثل هذه الأفكار، سر مع الناس حيث هم قانعون " حينها تطلع بوجهها بعيون غير راضية وقال بشيء من الانزعاج: (ليس الأمر بيدي، هنالك تلك الأسئلة الملحة التي لا يمكن تجاوزها، كم تمنيت أن أكون انسانا عاديا ولكن قد يشاء القدر أن ارتحل الى النار

بقناعاتي) بعدها قال بشيء من اليأس (حسنا سوف أغادر افكاري وأتمنى أن لا أموت على ذلك)، لقد اكتشفت بوران أن هنالك شيئا مشتركا ما بينهما، هي ذاتها الأفكار الجدلية التي دائما ما تراودها وتبهرها، الأفكار الغامضة التي تطرح التساؤلات عن من يكون الأول الإنسان أم الله، هل خلق الانسان من ظواهر الطبيعة اله يعبده ويبرر وجوده ويلوذ به من خلال تفسيرات تلك الظواهر الطبيعية التي دائما ما تكون بعيدة عن استيعاب عقله أم أن الله خلق الانسان من أجل يثبت للإنسان نفسه انه الاله، كانت تريد أن تثبت على مر الأيام أن هنالك شيئا مختلفا وغير عقلاني يسير به هذا الكون، لكنها أزاحت كل تلك الأفكار التي لن تؤدي بها الى نتيجة مقنعة وارتضت بأن تكون على ما هي عليه، فقد يحتاج عقلها الكثير من الاثباتات المقنعة حتى تستطيع أن تكمل فكرتها عن الإله الخفي الذي لازال يترقبها من كل مكان، كان أديب على علم بكل ما يدور بخلدها، ولكنه دائما ما كان يتراجع عن مجادلتها بأفكاره المربكة وقناعاته الثابتة حتى أنه أصبح يخاف أن يخوض في عمق هذا الحديث، لقد صرح عن تراجعه حين قال: (فلنذهب الى الله بأقل الخسائر)، ذات يوم توجها سويا بعد الظهر الى مرسمه الصغير، كان لابد لبوران أن تعبر دهليزا طويلا خلف أديب ومن ثمة باب اخر يؤدي بها الى درج يصعد بهما الى الطابق الثاني حيث

المرسم الصغير خاصته الذي يتكون من صالة جعلها مرسمه وفي ذات الوقت للراحة والأكل، كانت هناك لوحات عديدة صفت على الأرضية بانتظام وطاولتان من الخشب تحمل كل منهما على العديد من عصارات الألوان وفرش مستعملة في أوان فخارية ومواد زيتية في زجاجات وضعت بعناية، كان عملا شاقا وممتعا في نفس الوقت، سوف تجلس بوران على الكرسي وقتا طويلا حتى ينهل اديب من وجهها لوحة اسماها سلفا السيدة الناصعة، حين جلست بوران على الكرسي بكل استسلام، اخذت تنظر عبر النافذة المفتوحة الى الغيوم المتسربلة ببطء عبر السماء، استسلمت الى هبوب النسمات الفجائية التي ادخلت بعضا من الاطمئنان في نفسها، بينما بدأ أديب بخط الخطوط الخارجية على القماشة التي طليت باللون الأبيض بشكل متقن، أخذ يرسم تفاصيل وجهها المبدئية ويضيف اليها هالة من الظل، أراد أن يأخذ الوقت الكافي من التركيز لكي يتقن الاختلاف في وجهها الذي أعتقد أنه حزين منذ الطفولة، رسم عينيها اللتين واجههما لأول مرة وأحسهما دامعتين منذ أن بدأ يتعمق في سوادهما، بعد ذلك انساب بالفرشاة الى الأسفل وأخذ يظهر ملامح أنفها البارز ثم اخذ ينتقل الى خط شفتيها العريضة بفرشاة ناعمة ولم ينس أن يضع تلك الشامة التي كانت أشد ما يميز ملامح وجهها الدائري الذي احاطه شعر أسود طويل نثر على

كتفيها، احب أديب ان يقنع نفسه بأنها غير عن كل النساء وملامحها عصية على التخيل، لذلك اصر على مغازلة وجهها بالألوان الصريحة التي أثبت من خلالها أن التعبير عن وجودها ما هو إلا رحلة الإدراك في عالم حركة الصور، أكملتها الإحساسات والتأثيرات الانفعالية التي ينطوي عليها صفاء ذهن أديب، لقد عزز مشهد الظل والضوء الذي لم يكن عابرا بكثير من الألوان الممزوجة، فقد كانت نظرته للأشياء تتخطى حدود الإعجاب إلى ما بعد حدود الإحساس بها، لقد أخذ الوقت الكافي حتى اتضح أنه لابد ان ينتهي من اضافة بعض الرتوش الاضافية على الوجه قبل ان يحل الظلام الذي بدأ يسري من خلاله سطوع أضواء الشارع المتبقية.

كان الليل على وشك الحلول، لابد من عودة بوران الى البيت في هذا الوقت، قامت واتجهت نحو أديب، اقتربت منه وأخذت تتأمل اللوحة من البعيد، تفحصت اللون والشكل، ابتسمت له في بادئ الامر وانبهرت عندما رأت نفسها على هذه الشاكلة من الجمال، اخذت تتمعن في الصورة والابتسامة لا تفارق وجهها، كان الرجل الأرنب يقف خلفهما وهو يمط شفتيه ويقول: (يوجد هنالك خلل في العيون وحجم الوجه)، تطلعت به بنفس الابتسامة ثم اعادت النظر الى اديب الذي قال: (نحتاج الى جلسة أخرى حتى

تكتمل اللوحة)، لكنها ردت عليه وقالت " أظن أنها مكتملة " حينها تقابلت الوجوه والأجساد، اخذ ينظر أحدهما إلى الآخر بصمت، ارتبكت بوران حين أحست بيده وهي تمسك بيدها، لم تحاول ان تسحبها بل تركته يمسك يدها بحميمية ويقول بصوته الحالم: (أصبحت أنت لوحتي الخالدة، لابد أن نكملها سويا)، لكنها سحبت يدها ببطء وقالت له بشيء من الارتباك " لابد أن أذهب لقد تأخر الوقت "، لكن أديب لم يتحرك بل بقي متسمرا في مكانه وكأنه ينتظر منها شيئا ما قد نسيته، أمسك يدها مرة اخرى و اقترب نحوها كثيرا، ما لبث أن طبع قبلة على خدها، حينها هاجت كما الريح عندما رأته يقدم على تقبيلها بكل جرأة، ظلت ساكنة للحظات وكأنها تنتظر منه اكمال المشهد وهي مغمضة العينين، اتجهت شفتاه نحو اطراف شفتيها وأخذ يقبلها بحرارة، بعدها التحمت الشفاه بقبلة طويلة كانت كالماء الذي يسري بجذوع النخيل، دافئة وانسيابية، لكنها بعد أن تنبهت بأن الخدر بدأ يسري بجسدها، ازاحت وجهها عنه دفعته واحدة بلطف، أخذت تتمعن بوجهه قبل تتركه وتتجه الى الباب، كانت تريد ان تهرب من شيء ما، لكن أديب صاح وراءها قائلا: (انتظريني سوف اوصلك الى البيت)، لم تكن بوران تريد ان تدخل في قصة حب جديدة، هذا كان قرارها، كانت تريد أن تضع السر في صندوق الغد الموعود وتسير متبسمة برغم

الجروح التي لا تزول، لكنها وجدت أديب يقترب من قلبها كثيرا حتى كاد أن يتملكه، ترى هل ستثير مروحته رماد قلبها الذي بدأ ينبض بنغم آخر، أم أنها سوف تعقد استسلاما فاضحا في قلب الأماني من جديد، لقد قال لها أديب ذات يوم وهو يدعوها الى منزله للتعرف على أسرته الصغيرة (تأمليني قبل أن يضيق الفجر بعينيك)، لقد قال أيضا أن بيته على بعد حارتين من مرسمه الصغير، بعد محطة الباص ببضع خطوات، بعدها تدخل الدهليز المؤدي الى بيته القديم، الثالث على اليمين ذو الباب المطلي باللون البني، هو ذات الباب الذي رسم عليه سرب من البجع والذي لم تتكلف بوران العناء في طرقة فقد كان أديب ينتظرها خلفه، عندما ولجت عبر ممر ضيق يفصل الغرف الثلاثة المتراصفة عن بعضهم، دخلت صالة واسعة معتمة بعض الشيء، تحمل رائحة قديمة أشبه برائحة الياسمين الذابل، ادارت رأسها في المكان الذي وجدته بالرغم من بساطته الا انه يحمل نوعا من الحميمية والانشراح، جلست بالقرب من تمثال كان بالقرب منها يرمز الى اله الحب الروماني كيوبيد، أدارت ناظريها وأخذت تتطلع في الصور التي كانت موضوعة بإطارات فخمة على الجدران، كانت تنظر الى لوحة فتاة جميلة مرسومة بشكل متقن، أخذت تتأمل اللوحة قبل أن يدخل عليها رجل كبير اشيب، عرفت أنه ابو اديب تتبعه

سيدة في منتصف العمر عرفت أنها أمه، رحبوا بها كثيرا ودعوها الى ان لا تتحرج وتأخذ راحتها، أخذ الأب بملاطفة بوران التي استجابت لكلماته الهادئة الرزينة وهي تستمع له حين أخذ يتكلم عن حياتهم السابقة ووضعهم الآن والفرق ما بين الحاضر والماضي بأسلوب لم يخلوا من الهدوء والمرح في نفس الوقت، فيما أخذت السيدة اللطيفة تعزز كلامه بين حين وآخر من خلال كلماتها البسيطة، بعدها دار الحديث عن بنات الامس وبنات اليوم اللاتي واكبنا الموضات والصرخات الحديثة بالملابس والإكسسوار المختلفة، كانت الأحاديث عادية تخللتها بعض من الدعابات والضحكات التي كانت تخرج على سجيتها بعد أن يبدأ الأبوان بالتذمر والتندر على ما كان بينهما بالماضي، بدا أنها عائلة متصالحة مع نفسها، لا تشوبها شائبة الوضع الحالي، بسيطة ودافئة في نفس الوقت، أراد أديب أن يعرفها بعائلته أكثر حينما توجه نحو الجدار الذي علقت عليه صورة جماعية للعائلة، كان والداه يجلسان على كرسي في قلب الصورة فيما هو يقف خلفهم في المنتصف بين فتاتين عن يمينه وعن يساره، عرف الأولى باسم أبرار وأشار الى الثانية وقال بصوت بدا حزينا وقال (هذه أختي أصرار رحمها الله) تطلعت بوران بوجهي الفتاتين وأعادت النظر الى العائلة فوجدت أن الحزن قد انتابهم، لم تشأ أن تسأل كثيرا حتى لا تثير نوعا من الحزن

المضاعف، لكنها قالت وبصوت بدا مسموعا "رحمها الله" لكن الأب قال بشيء من الأسى (كان ذلك قبل أربعة عشر سنة، تخلد الآن بسلام في الملكوت).

كان على أديب أن يترك كل هذا ويذهب مع أمه التي قامت واتجهت الى المطبخ ليعد الطعام، لذلك استأذنها ولحق بأمه، كانت بوران محرجة بعض الشيء وهي تجلس بقرب أبيه الذي تغير كل شيء به وبدا ساكنا شاردا بحزن طفيف، قد بدا ذلك جليا عندما رأته لم يسقط ناظريه عن الصورة، انتابها فضول غريب، لم تستطع أن تكتم تساؤلات عن هذه الفتاة الجميلة التي تبدو على درجة عالية من السماحة والطيبة التي بدت على وجهها، سألته بتردد مبالغ به عن سبب موتها، حينها أطلق الأب حسرة طويلة قبل ان يسترسل بالكلام ويتحدث عن هروب العائلة التي بدأت من مدينة بغداد الى مدينة برلين، قال انها كانت مصابة بالربو ولم تتحمل البرد القارص الذي كان يلازمهم طوال رحلتهم الى هناك، لذلك ماتت في منتصف الطريق ودفنوها هناك في دولة صربيا، أخذت بوران تتمعن بالأحداث التي كان أبو أديب يسردها بتفاصيل بدت انها سمعتها قبل هذه المرة، فقد كانت أحداث قصة العائلة أشبه برحلة قد قرأت عنها وعاشت أحداثها بالوجدان، كان يتحدث عن خروجهم من العراق إلى أربيل ومن ثم الى تركيا التي عبروا من خلالها البحر باتجاه

الى اليونان بشكل دقيق وأيضا عبورهم الدول الشرقية المتبقية المؤدية إلى ألمانيا، اسهب بالحديث عن حياتهم بألمانيا كيف عاشوها خلال فترة مكوثهم هناك الى ان عادوا الى الوطن بعد التحرير بمحض إرادتهم، الوطن الذي لم يغادرهم طوال سنيهم الأربعة عشر التي قضوها في برلين الى أن قرروا العودة الى بغداد، قال انهم ارادوا ان يعيدوا حياتهم من جديد بعد التحرير ويستقروا في وطنهم ولكنهم صدموا عندما رأوه على هذه الحالة من التردي، لم يكن أبو أديب نادما ابدا لعودته، لأن رأيه لم يكن أقل من البقية الذين يوقنون أن الوطن لا تصنعه الشخوص بل تصنعه ارادة الشعوب واصرارهم على التغيير، كان حديثه الأب مفعم بالثورية، لم يخلو من الأمل بالرغم من لحظات اليأس التي بدت على وجهه ونبرة صوته التي تتغير دائما كلما ذكر الوطن الذي اصبح مرتعا للصوص وقطاع الطرق، لكن بوران كانت شاردة الذهن، بلحظات خاطفة استرجعت أحداث رحلتهم في بالها مرة أخرى وربطتها مع كتاب ليل المنافي، وجدت أن هنالك مفارقة غريبه وتطابق في الأحداث أغرب، هي ذاتها نفس الاحداث التي مر بها فراس وكتبها في كتابه بالرغم من عدم قراءتها كاملة، ولكن تكاد تحمل نفس المسيرة التي سار بها فراس في رحلته مما اضطرها الى ان تقطع حديث الأب وتسأله عن فراس حسين القاسم إن كان

معهم بالرحلة ام لا، كان سؤالا مباغتا جعل من أبو أديب يتطلع بوجه بوران التي بدا عليه الحماسة، وضع اصبعه على صدغه وكأنه قد بدأ يحرك شيئا في رأسه الذي كساه الشيب في مواطن كثيرة من شعره، مضت لحظات عصيبة على بوران التي كانت متلهفة لجوابه بينما أخذ هو وقتا طويلا حاول ان يتذكر هذا الاسم، لكنه تطلع بوجهها وقال جازما (لا أعرف هذا الاسم)، حينها أخذت بوران تتفكر وعيناها مسلطة الى اللا شيء، فلم تكن هذه الكلمة إلا حجرا قد ألقي من فوق جبل عال وأخذ يتدحرج في الوادي، انتظرت قليلا قبل أن تسأله السؤال الآخر الذي كان بمثابة الفيصل في حكاية لم تنته بدأت تتضور بداخلها، اصبح جواب سؤالها الآتي لا يحتمل التأجيل، قالت بلهفة "هل كان معكم عائلة عراقية اخرى وأنتم في طريقكم إلى ألمانيا"، كان الاب ينظر الى لهفة بوران بحيرة ولكنه قال جازما (لم تكن هنالك عائلة عراقية سوانا)، لقد أتاها الجواب على شكل جرعات من ظنون، تستوقف العقل آلاف المرات قبل ان تفهم ان هناك شيء خفي ملح لا يستوجب التأخير في فهمه، شيء ما بدأ يلج بالظنون يتعقبه الشك المنصف، أرادت أن تتأكد اكثر عندما اعادت عليه نفس السؤال ولكن بصيغة اخرى تريد به أن تقطع الشك باليقين، " ألم يكن معكم أحد أسمه فراس في رحلتكم تلك " كان ذلك الالحاح صادما على الأب الذي

أخذ نفسا عميقا وكأنه أحس بالضيق من سؤالها وهو ينفى ذلك قطعيا وقال مرة أخرى (لقد كنا وحدنا)، قطع كل تلك التساؤلات دخول أديب الذي عندما عاد يحمل الأطباق تتبعه امه التي كانت اكثر بشاشه وهي تحمل صينية كبيرة تتجه بها الى طاولة الطعام، قامت بوران من مكانها وأرادت ان تساعدهم، فما كان من الأم الا ان أصرت على جلوسها قرب أديب الذي أعاد عليها نفس حركة الترحيب الأرستقراطية، حيث أنه عقف ساعده على بطنه وانحنى انحناءة الى الأمام نمت على الاحترام المبالغ به وأشار بيده الى كرسي كان بالقرب منه، مما أدى الى أن يضحك الجميع وهم يتجهون الى المأدبة التي اكتملت بأكلة الدولمة الشعبية التي اشاد بها الأب حين قال (لم أذق في حياتي مثل طبخات أم أديب) بعدها قالت الأم موجهة كلامها الى بوران (أرجو أن يعجب الأكل بوران) حينها تنبهت اليها بوران التي كانت محرجة وقالت بشيء من المرح " كم أنا سعيدة بوجودي بينكم " بعدها بدأت تتعالى أصوات الأطباق والشوك والملاعق وصوت الأب الذي الح على أن يوزع الطعام على الجميع بشكل منصف وهو يضحك، لكن بوران بالرغم من ذلك أخذت تتطلع الى صورة العائلة بين حين وآخر، فقد كان هنالك أمرا أخذ يشغل حيزا من تفكيرها حتى بدت شاردة الذهن وهي تشاركهم الضحك.

كيف ستبحث عن الحقيقة في الطرف البعيد من الأحداث التي بدأت تتشابك، تحتاج بوران اليوم الى فانوس يضئ لها رحلة رجل كان هو ذاته ولم يكن هو في نفس الوقت، تريد من يشاركها في فك عقدة بدت غير واضحة المعالم أو أحد يحدثها عن رحلة ليست عادلة لا تظلم أحدا، لقد وقفت على النافذة طويلا تفكر في هذا الليل، أرادت أن تربط الأحداث ببعضها البعض، ما علاقة عائلة أديب برحلة فراس الذي كتب سيرة رحلته التي عبر بها شرق أوروبا وصولا الى ألمانيا، تكاد تكون هي ذاتها الرحلة التي تحدث عنها ابو أديب، تلقفت جهاز التلفون واتصلت بأديب الذي يبدو أنه كان نائما اذ أن صوته جاء متحشرجا وهو يسألها: (هل حدث مكروه؟)، لكنها انتظرت طويلا وهي تستمع لأنفاسه الثقيلة، بعدها ردت عليه وقالت أنها أحبت أن تقول له تصبح على خير ثم أغلقت الجهاز، كانت تود أن تسأله عن أسئلة ملحة ولكنها أجلت ذلك لحين اكتمال الصورة والأحداث لديها، لذلك أسرعت بفتح كتاب ليل المنافي وتتبعت طريق الرحلة.

الكرباح العاشر - ألمانيا

هنا أنتهى الليل وانتهت أيام التهريب والهروب، أخيرا لقد رأينا الشمس والنهار والنور الذي قدمه لنا البلد الجديد بمجانية من دون أن يحاسبنا عليه، تأخذنا نجوب الشوارع الى شوارع أخرى ما تكاد تنتهي حتى تبدأ بالاتساع نحو ساحات كبيرة وميادين وأسواق، الإنسان وحده هنا له الحق بأن يعيد نفسه من جديد وينفض غبار العذاب والهجرة والتهجير والحروب ليحط الرحال في هذا الحديث الذي بناه الإنسان ما بعد الحروب التي أنهكته طوال سنوات كان بها العالم بأجمعه يصر على الحرب والدمار والصد والرد والتوسع والاستيطان، لكن ألمانيا اليوم بعد سنين الحرب اصرت على ان تعيد نفسها ومكانتها التاريخية وتكسر جدار العزلة الذي اختارته لها القوى المعادية التي فرضته عليها بعد الحرب العالمية الثانية، لقد أعادت بناء نفسها من جديد بكل عزيمة واصرار لتصبح على هذا النحو من القوة والتقدم، القارة العجوز بأجمعها جددت نفسها وأخذت ترمم تاريخها وتراثها وتخلطه بالحداثة لتصبح على صورة مغايرة منسقة وحديثة ذات قوانين وتطلعات يدفع بها الانسان الحر الى التقدم والازدهار ليضمن حق الأجيال القادمة بالعيش في سلام بالوقت الذي أصبح الشرق العربي يدمر التاريخ

والتراث ويجعل من البلدان خرائب يعيث بها الفاسدون وقطاع الطرق خرابا.

لقد أقمنا مدة ثلاث أيام في فندق بعاصمة بافاريا ميونخ قرب مارينا بلاتز قبل أن نغادر الى مدينة برلين التي سوف نقيم بها هناك، كانت أيام لا توصف أخذنا نتجول بها في ساحات المدينة والشوارع، كنا نجلس كثيرا عند بحيرة شليرسي الهادئة نتأمل الغروب الذي يقبع خلف جبال تبدو زرقاء، نأخذ وقتا طويلا قبل أن نعود لنتسلق برج كنيسة بطرس القديمة، ثم نعود نسير في سوق فيكتوالين ماركت الذي تنوعت به الخضراوات واللحوم بشتى الاصناف والأشكال والأنواع التي تأتي من شتى أنحاء العالم والتي لا يمكن العثور عليها في اي مكان اخر الا بتلك المدينة التي تختصر جمال العالم وتضعها تحت طائلة الحلم، لقد قضينا الأيام بكل راحة وانطلاق، لم يكن يقصر علينا الفرحة سوى صورة اصرار التي حين نتذكرها نحتاج وقتا طويلا من الصمت قبل أن نتكلم.

فراس حسن الفاسم – آذار ٢٠٠٣

أخذت بوران تتابع نهاية رحلة فراس بشغف، ما بداخلها كان يتضور في كشف ملابسات الأحداث المتطابقة، فقد

أصبح الباطن يناضل الوضوح في معركة الذات المتواصلة على محك الحقيقة التي لاشك أصبحت تعنيها، تحاول أن ترتب أفكارها الآن بشكل آخر يثبت أن في الأمر حيلة قد تكون اتضحت في بعض جوانبها، تدرك أن هناك معاناة مغرضة ربما تسحبها الى المجهول، لقد أرادت أن لا تصدق أن في الأمر سرا يجب أن يكتشف، لكن الأسماء هي ذاتها " اصرار " هو ذات الاسم في كلا الحكايتين اللتين تطابقت بتفاصيلها تطابقا غير معقول، لقد جعلتها أحداث الكتاب تنظر حولها بعيون شاردة، ارادت أن تستمر في قراءة باقي الحكاية التي أصرت على اكمالها حتى تصل الى نتيجة تفرغ الشكوك من عقلها المشتعل لكنها أحست بتعب شديد من شدة التفكير في أمر كتاب ليل المنافي الذي أغلقته بقوة وطرحته جانبا ما لبثت أن ارجعت رأسها على الوسادة وهي شاردة الذهن، أغمضت عينيها ثم نامت، لكنها حين استيقظت بوران في اليوم التالي رأت أشعة الشمس تخترق الستارة وتصل إليها كبساط من ضوء، إشراقه كانت على غير كل الأيام، جعلها تحس بالنشاط وراحة في النفس غير مسبوقة، كانت تتمنى أن يستمر كل شيء حولها بهذه الدرجة من الراحة، لكنها حين قامت ولبست معطفها القطني وأخذت تنزل آخر الدرجات باتجاهها نحو الصالة وجدت أن حالة من الانزعاج بادية على افراد اسرتها وهم يجلسون

جميعا كالمعتاد حول شاشة التلفزيون الذي اعلنت الحكومة من خلاله عن بدأ استعدادها لعمليات التحرير، الكل كان يترقب اللحظات الحاسمة التي ستبدأ من خلالها حرب التحرير التي سوف تكون في القريب العاجل عبر تحرك القطعات والدبابات التي أخذت تذهب نحو الشمال في تسارع مستمر ليثبتوا للعالم أجمع ان بلاد الرافدين ليس مكانا سيئا للموت حين يتلبس الانسان دوره بالاعتقاد في تحرير الوطن الذي أصبح ساحة للصراعات الأممية والمذهبية والسياسية، لقد بدأت حرب التحرير، سوف ننتصر حين نتمرس على ايقاظ النصر بداخلنا، نذهب الى ما بعد نشوة الخلاص من عدو صريح زائل الى عدو آخر مجهول قادم، نثبت بالدلائل والبراهين أن هذا الحشد من الأبناء والآباء والنساء أبوا الا ان يحملوا الوطن بداخلهم، يزفون ارواحهم قرابينا من أجل مثواهم الأخير في موطن الانتصارات، فقد أصبح الهم واحدا لشعب بدا ظاهريا يرتجف تحت برودة الهزيمة المتكررة في يوم أمطرته سماء الأمس رصاصات من وهن عند اعتاب المعركة الأولى مع الذات وبين بحبوحة من أمل تصرخ على آخر أنفاس الضمير المتخاذل، لقد بدأت الخيارات الصعبة، بدت المعركة ظاهريا هي الجانب المرعب ولكن الجوانب الخفية بدأت تفضحها أفواه السياسيين الذين شكلوا من الأبناء حشدا يرتقون على أكتافه من أجل مآرب

السلطة، يصنعون من الشباب غولا يريد أن يأكل نفسه، كيان جديد بداخل الدولة بدأ يتشكل بفتوى دينية، ربما يرتكبون أخطاء الأمس التي بدت مسيرة بشكل يجعلها في متناول الخطائين، يستخدمونها إن لزم الأمر في بث الحجة من أجل فرض قسوة الموت بقوة البراهين.

كان ابوها منزعجا جدا وهو يضرب بيده على قائمة كرسيه المتحرك بضربات متوترة بينما أخذ اثير الذي كان حاضرا يفرك يديه وهو منفرج العينين، في هذا الوقت كان طرق الباب العنيف وملفت للأسماع، فز الجميع وانتبهوا الى الباب، قام أثير واتجه الى الخارج ما لبث ان عاد الى الداخل يتبعه جمع من الرجال، لم تتبين بوران من ملامحهم شيئا اذ انهم دخلوا مسرعين الى غرفة المكتب و أوصدوا الباب عليهم، عندما اتجه ابوها الى داخل غرفة المكتب، سمعوا الأصوات تتعالى بشكل سافر حتى ان بوران حسبته شجارا كبيرا قد دار بينهم، كان صوت السيد أصلان يطغى على كل الأصوات، تسمعه من خلف الباب يتعالى بشكل ملفت، كان يبدو أنه اجتماع لا يحتمل التأجيل، لم تشأ ان تكون متطفلة كالمرات السابقة وتدخل عليهم فقد كان الجو مشحونا بالغضب، لذلك ركنت الى كرسيها تترقب ما سيحدث، مر وقت غير طويل قبل أن تنتبه الى صوت الأقدام وهي تخرج مرة أخرى وتتجه الى الخارج بشكل سريع وقد بدا عليهم

الغضب الشديد من خلال أصواتهم المتذمرة، كانت هذه آخر الاجتماعات، لم يأتوا بعد ذلك، لقد اختفوا جميعا منذ ذلك الوقت ولم يعودوا يتجمعون بين فترة وأخرى، أتجه بعد ذلك وضع البيت الى الرتابة المعهودة، العمة أصيلة على نفس حركتها الدؤوبة تحضر الشاي والكعك في ساعات العصر، أما سماح فقد نزلت من مخدعها وارادت ان تكسر وحدتها، ارادت أيضا ان تصرح عن نفسها وتقول ها انا هنا معكم اسكن، لم تفقدوني منذ زمن بعيد، كانت أول المتواجدين وآخر المنسحبين اذ انها لم تشأ أن تترك مكانها لأي ظرف كان، لقد بدا على جسمها الذبول وارتسمت على وجهها علامات الكآبة، كانت تجلس امام الشاشة لوقت متأخر من الليل، تتابع الأخبار التي لم تكن على ما يبدو مهمة بالنسبة لها، لكنها أخذت تنظر الى الباب الخارجي بين حين وآخر، تنتظر ابنها الصغير الذي خرج عند الغروب ولم يعد، رأته آخر مرة يتبع طائرته الورقية التي أراد أن يصل بها الى أبعد مدى في السماء، لقد مضى وقت طويل ولم يعد منذ أن خرج مع الرجل الارنب، كان الأمر لا يخلوا من ريبة فقد تأخر كثيرا جدا مما اضطر أثير الى الخروج بالسيارة والبحث عنه في الشوارع القريبة، لكنه عاد بعد فترة وجيزة وعلى وجهه علامات الحيرة، قال وهو يجلس بينهم: (لقد أخبرت الشرطة والمستشفيات)، بعدها خرجت بوران تركض من

شارع لآخر علها تجده في الأنحاء، لكن الأمر لم يكن طبيعيا، لقد أختفى تماما ولم يتبين له أي أثر، حين عادت بوران الى البيت متعبة، ارتمت على الكرسي وهي في أشد حالات الخوف من فقدان الصغير الذي قد يكون سببا في تأزم حالة سماح التي أخذت تبكي بكاء ممطوطا حتى ساعات الليل الأخيرة، لم ينم أحد حتى الصباح وهم ينتظرون خبرا من أقسام الشرطة أو المستشفيات، لقد أخذ الحزن الخانق حيزا كبيرا أكثر من الموجودات التي كانت صامتة تترقب، لقد خرج ابن سماح ولم يعد، ربما يكون قد ضل طريق العودة الى البيت وربما تكون الريح قد سحبته الى مكان بعيد وهو يجري خلف طائرته الورقية التي طالما دأب على صناعتها بجد واجتهاد، فقد نصنع في بعض الأحيان من أشيائنا الجميلة نهايتنا المفجعة، حين عاد الرجل الأرنب وحيدا في صباح اليوم التالي، دخل بخطوات متأنية ومتعبه، وقف بالقرب من الباب، حينها هرعت بوران نحوه وأمسكته من يديه، أخذت تهزه بعنف وهي تقول "أين هو " فيما هو ظل واقفا أمامها حزينا ولم يجبها بشيء، أخذ ينظر الى وجهها الغاضب من دون أية ردة فعل ما لبث أن رفع كتفيه عاليا علامة على أنه لا يعلم شيئا، لكن بوران وبلحظة خاطفة، رفعت يدها وهوت بها على خده، لقد تفاجئ الرجل الأرنب من موقفها المباغت، لكنه لم يبد اية ردة فعل سوى

انه بدا خائفا وهو ينظر الى وجه بوران مرة أخرى ثم قال بصوت متذبذب: (ربما سرقته الريح) ثم أختفى، منذ ذلك الوقت انطوت سماح مرة أخرى على نفسها، لقد بدا ذلك جليا حين ارتسمت علامات الذبول على جسدها أكثر من أي وقت مضى، ركنت الى زاويتها المظلمة ولم تستقبل أي أحد ولم تتكلم، كان الجميع يسمعون صوتها طوال الليل وهي تئن بشكل متواصل، كان صوتها يشعرك بالانقباض وهو يأتي عبر هدوء الليل ويدخل الى مسامعهم، يخترق المسافات ويتحول في الرأس الى مواء كأنه وجع قطة تئن بين الحياة والموت.

لقد مرت الأيام على بوران كبندول يعيد تكرار الضربات المتواترة ولم يتوقف عند موقف معين يوضح سر هذه الضربات التي لم تهدأ في البيت منذ ذلك اليوم مما اضطرها إلى الخروج في كل يوم بعد أن تصحو من النوم تبحث في الشوارع عن علامات يستدل منها على الصغير المفقود، أخذت تجوب الشوارع مع أثير في المناطق المجاورة الى وقت متأخر من الليل، لقد أستمر ذلك اكثر من أسبوع ولم يجدوا شيئا يدل على مكانه، كانت عاجزة عن فعل أي شيء يعيد لها الولد الذي تخيلته امامها يلعب مع الصبية الذين يتفاجئون من نظراتها المتفحصة، كانت تتمنى أن تجده بين وجوه الصبية الذين أخذت تطاردهم في كل مكان، تدقق في

وجوههم وتسأل المارة والدكاكين والبيوت والكلاب والقطط والشجر والسحاب وعلب الفاصوليا الفارغة إلى أن ينهكها التعب فتعود ترتمي قرب سماح، ولم تعلم ان الذي يتوه في بغداد لن يعود أبدا، ربما تكون عصابات الخطف قد تلقفته واتجهت به الى مواقع القتال الدائرة على الجبهة الشمالية للبلاد وربما باعوا أعضاء جسمه الى المستشفيات الخاصة او البسوه حزاما ناسفا وزجوا به في الأسواق، كانت كل الاحتمالات مفجعة والتصورات أكثر فجيعة، لكن بوران أبت أن تستسلم واستمرت في البحث وهي دائما ما تراودها فكرة خراب هذه العائلة التي بدت شبه مدمرة، تسير الى الفناء بخطوات وئيدة، لقد تزاحم عليها الأمر واخذ يدنو من الانحدار والنهاية، لذلك عندما تعود الى البيت تبقى الساعات الطوال بصمت في الظلام، هجرت اللوحات وباءت بالدموع وهي تتخيل مصير هذا الطفل الذي لم يكن سوى ضحية لعنة العائلة، لقد مر الوقت كئيبا وحزينا وارتسم على كل الموجودين حزنا وصمتا وغضب.

الكرباح الحادي عشر – برلين

كان عمي ودودا عندما استقبلنا بحرارة الايام والبعد، اراد ان يخفف عنا عناء الرحلة الطويلة، لذلك استأجر لنا شقة

جميلة في أطراف برلين وأصبح لا يفارقنا، لقد كان يساعدنا في اكتشاف العاصمة عبر مترو الأنفاق الذي أصبحنا ننتقل به من جهة إلى أخرى، شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، كنا نتمنى لو أن اصرار على قيد الحياة لتكون معنا ونحن نجوب الشوارع سيرا على الأقدام في متعة الاكتشاف من ساحة البرج في مركز المدينة مرورا في بوابة براندنبورغ حتى نصل إلى عمود النصر، في كل يوم كنا نسير عشرات الكيلو مترات ونحن في أشد حلات السعادة، لقد كان اكتشاف العاصمة من المتع التي حرصنا على ممارستها كل يوم ونحن نضع على ظهورنا الحقائب الصغيرة ونسير في طريق جديد.

لقد جاءنا خبر اجتياح القوات الأمريكية ونحن في اليوم الثالث، كنا نجلس في شقتنا الصغيرة التي إستأجرناها في منطقة كورت شوماخر بأطراف مدينة برلين، ها هو الجيش الأمريكي يتقدم كالأفعى عبر الجنوب في الاتجاه الى تحرير بغداد من حزب البعث، تابعنا الأخبار التي انتشرت بسرعة عبر القنوات الاعلامية، لازالت الحكومة العراقية تنفي ذلك التحرك وتتشدق بالانتصار على هذا الجيش الذي لم يجد أية مقاومة في المناطق الجنوبية التي عبروها في الاتجاه الحازم لإنهاء حكم الدكتاتور الذي سقط كسقوط الأباطرة وغيره من الدكتاتوريين، نهاية متوقعه لآخر معاقل الرجعية والمزاجية، سوف يبصق التاريخ بوجه الرئيس كما بصق على غيره من

الوجوه القذرة ويرميه الزمن بوابل من السباب وتركله الذكريات المؤلمة ومواقف الموت والدمار لبلد كان من الأجدر أن تستغل ثرواته من أجل التنمية لا من أجل الحروب المدمرة التي كانت من دون سبب معقول سوى أنها مشروطة ببقاء الرئيس في السلطة مدة غير معلومة، كان يقف على جماجم الأبناء بكل عنجهية يحصد النفوس والأرواح بغير عدد ويدفن الأجساد في مقابر جماعية غير معلومة، لقد زج بالشعب الى حروب ومعارك أولها القادسية التي لم تبق ولم تذر ضد دولة ايران التي اختارت القوى العظمى أن تغير نظام دولتها عبر ثورة دينية قد تكون ندا جديدا لما حولها من الدول العربية وقطبا حاسم للصراع المذهبي في المنطقة وآخرها حروب من أجل النفط ضد دولة جارة عن طريق الغدر بهمجية يحسده عليها جنكيز خان، كان الرئيس يتعامل مع الاحداث بعفوية عشائرية وبشكل بدائي ساذج ولم يكن الشعب لديه سوى ألعوبة قد علق له المشانق في كل مكان من الوطن الذي كان هو ايضا العوبة، تنتشر به التماثيل والصور بكل مكان، كان يريد أن يقول للشعب أنه يتبعهم اينما ذهبوا يراقبهم أينما حلوا حتى يحبس عليهم أنفاسهم وتنهداتهم وحسراتهم ودموعهم أيضا، لقد سقطت بغداد من دون أية مقاومة بعد أن صرحت السلطة بأنها سوف تكون مقبرة للغزاة، لقد سقط الصنم في ساحة الفردوس وانهار

الجيش ولم يتبق من البلاد سوى الفوضى التي خلفها الرئيس الذي لم يكن سوى شخص هارب مطلوب للعدالة بعد أن فر من أرض المعركة واختبأ في جحر.

فراس حسين القاسم – نيسان ٢٠٠٣

أرادت بوران أن تعيد الأحداث مرة أخرى في ذهنها، أن ترتب كل القصة من جديد، أسئلة كثيرة أخذت تراودها وتزرع بداخلها الشك، كيف تكون قصة رحلة فراس هي ذاتها رحلة أديب، هل كان معهم أم هو قد سمع بالحكاية من جهة ما، كان لابد أن تعرف ما الذي حدث في ذلك الزمن، هل سافر الى زمن مجهول أم كانت درجة وعيه مرتبطة بين الحاضر والماضي، ربما تكون أخت فراس غيرت أسمها الى اصرار وربما كان ابو أديب يخبئ شيئا عنها، ولكن لماذا يخبئ ذلك، كانت على مشارف التخبط والشكوك، كان لابد من أجوبة مقنعة على أسئلة ملحة لا يجيب عنها سوى أحد المعنيين بالحكاية، فراس أو أديب الذي ارسلت اليه رسالة قصيرة عبر تلفونها بأنها تود أن تراه للضرورة وجاءها الرد متأخرا (أراك في كوفي شوب السومرية)، كانت قد استحضرت بعض الأسئلة في بالها وارادت أن تلتقي به حتى يتسنى لها ان تفهم أكثر، وحده أديب هو الذي سوف يخبرها

بكل الأجوبة المحيرة، ابدلت ملابسها سريعا واستعدت للخروج، ولكن عندما وصلت الى الباب الخارجي، استوقفها أثير الذي بدا ممتعضا، سألها عن وجهتها وانتظر منها الجواب الذي جاءه عاديا وغير مقنع " سوف اذهب للسوق "، لكنه امسكها من يدها وقال بشيء من الغضب: (لقد أكثرت من طلعاتك هذه الأيام)، لكنها وبحركة عصبية نفضت يدها وقالت بنفس العصبية التي اتسمت بها فجأة " لا شأن لك بي، ابن سماح لازال مختفيا " بعدها اتجهت الى الباب وسحبته بعنف ثم خرجت وصفقته خلفها بقوة.

أرادت أن تكون على طبيعتها حتى لا تثير في نفس أديب أي شكوك، أصرت أن تنهي تلك التساؤلات التي تعصف بداخلها، عندما دخلت المطعم، رأته يجلس على طاولة قرب نافذة تطل على النهر، حين توجهت نحوه بكل هدوء، جلست قبالته وقد علت وجهها ابتسامة مصطنعة، وجدته على بشاشته وهو ينظر الى وجهها الذي بدا عليه الجدية، أخذت تتحدث بأسى عن أبن أخيها المفقود الذي لم يجدوه لحد الآن وهو بدوره اخذ يستمع لها من دون ان يقاطعها الى أن صمتت برهة بعدها أخذت تنظر اليه بفتور وقالت له بعد أن أفرغت شيئا من هواء كان محبوسا بداخلها " حدثني عن رحلتكم الى ألمانيا كيف كانت ؟ "، كان أديب على سجيته حين تحدث في البداية عن سبب هروبهم من العراق، قال أن

السلطات آن ذاك وجدت أن أباه الصحفي المرموق لا يكتب عن الرئيس ومآثره شيئا في مقالاته اليومية التي كان يحررها في عمود اجتماعي خاص به في الجريدة الرسمية التي كان يعمل بها، الأمر الذي دعي رئيس التحرير على أن يشي به عند السلطات التي لن تتوانى عن اعدامه، مما أدى الى فرار العائلة عبر الدول الأوربية التي مروا بها إلى أن وصلوا إلى ألمانيا التي استقروا بها قرابة أربعة عشر سنة قبل أن يعودوا بعد التحرير الى العراق ويستقروا بمنزلهم في مدينة بغداد، كانت بوران تستمع له وهي تهز رأسها من دون أن تنطق، أخذت تستعيد في بالها التفاصيل التي دائما ما تقرأها في كتاب ليل المنافي بدقة بالغه وتقارنها مع حديث أديب الذي عزز لديها كلام ابيه الذي كان قد تكلم عن نفس الأحداث ذاتها، وبنفس التفاصيل التي قرأت بوران خطواتها أول بأول في كتاب ليل المنافي، لم تتمالك نفسها عندما رأت أديب يسهب بسرد المواقف عن أوربا والحياة هناك في الغربة، لكنها استوقفته بصورة مفاجئة وقالت "ما هي علاقتك بفراس حسين القاسم؟" عندها سكت أديب لحظات وكأنه يسترجع أسما طارئا قد حل بينهم، بعدها قال: (هو صديق عزيز)، حينها ساد بعض الصمت وهي تتطلع في عيون أديب بريبة وشك وتحدي، ولكن بعد أن تفحصت بعض الارتباك بوجهه بان بعض الظفر بعينيها اللتين التمعت، أخرجت كتاب ليل

المنافي من حقيبتها ورمت به أمام أديب الذي دهش عندما رآه، قالت له بصوت لم يخلو من لؤم "هذا كتاب ليل المنافي"، كانت لحظات اشبه بالصدمة التي حسب أنه لن يصحوا منها ابدا، كأن ثمة أحد ضربه على رأسه بعمود من حديد، لم يكن يعلم أنها على دراية بالكتاب، بدا كأنه مغفل بلا منازع، كيف تكلم عن هذه الرحلة ولم يحتسب الى أمر الكتاب الذي رآه أمامه يجثم كالفضيحة، ماذا يقول الآن، كيف له أن يصد نظرات بوران القاسية وملامح وجهها التي تفيض بالإصرار والازدراء، لم يعرف ماذا ينطق سوى أنه قال: (من أين لك هذا؟)، لكنها لم تجبه في بداية الأمر بل حملقت في وجهه الذي بدا على غير حالته العادية، فقد تغيرت كل ملامحه وأصبحت على نحو غير مفهوم، لقد كان صمتا مؤلما ومزيجا من احراج وصدمة مما أدى الى تلعثم لسانه واحمرار وجهه عندما قال: (بوران الأمر ليس كما فهمتِ)، لم يعد الأمر برمته مهما بالنسبة لها في هذه اللحظة، فقد اتضح كل شيء وانكشفت كل الأوراق، انقشعت كل الغيوم وبان المضمون من خلف الضباب، لقد فهمت بوران كل شيء وتيقنت بأن حقيقة الزيف الذي أمامها، أصبح فيما يبدو فضيلة من الفضائل، لكنها أرادت أن تشعره أن استنتاجاتها كانت صحيحة حين قالت له " أنت هو أم هو أنت " عندها أخذ أديب يتلاعب في ميدالية للمفاتيح بأصابعه

ولم ينطق بأية كلمة، ولكن بعد أن أخذ نفسا عميقا قال بكل ثقة: (لقد كانت مساعدة انسانية) أراد بذلك أن يخفف الوطء ويأخذ الحكاية الى منحنى آخر قد يكون مقبولا لدى بوران التي سحبت الكتاب وأودعته في حقيبتها، فيما هو بقي ساكنا لم تصدر منه أي بادرة تبرير على ما قاله، عندما همت بوران بالوقوف قام وأمسك بيدها وقال بشكل المتوسل: (سوف أشرح لك الحكاية كاملة)، حينها عادت وجلست أمامه على الطاولة وهي تتطلع بوجه أديب الذي قال بصوت قد بدا أنه يأتي من الماضي: (عندما عدنا من ألمانيا الى بيتنا بعد التحرير وجدنا فراس وأسرته يسكنون بقربنا، كنا أصدقاء وازدادت صداقتنا حين علمت أنه جاء من الأهوار في أعماق مدينة الناصرية)، أخذ أديب يبلع ريقه وهو يتطلع الى جدار المطعم ثم يردف: (ازدادت علاقتنا حين علمت أنه قد عانى الكثير، قال أنه كان مطلوبا للسلطة هو وعائلته وأختبأ في الأهوار، فقد أباه الذي كان يعاني من ازمة قلبية، كان معدما يعمل بفرن صمون لا يقوى على سد حاجات اسرته الصغيرة، وقتها كنت أكتب مذكراتي عن الرحلة التي قضيناها في الغربة حتى أوثقها، كان هو يقرأ كل ما أكتب بنهم كبير، كان حالما ونشطا ومتحمسا بأن يكون على مكانة كبيرة في الدولة، لذلك خطرت على باله فكرة نسب هذه الرحلة اليه حتى يبين أنه قد تهجر من النظام السابق وينال الحظوة

والمكانة لدى حزب ديني قد انتمى له في ذلك الوقت، راقت له فكرة تبادل الأدوار وراقت لي اللعبة، لذلك زيف كل مستمسكاتي الألمانية ومن دون أن يراجعني بتفاصيل الرحلة، أخذ أوراق مذكراتي وأصدر كتاب أسماه ليل المنافي وكتب عليها اسمه)، أخذ أديب يتحدث بشيء من الحسرة قبل أن يردف: (كنت اريد أن اساعده هذا كل ما في الأمر) لكن بوران ردت عليه وقالت "ماذا كان المقابل" حينها تطلع بها أديب وقال: (لقد ساعدني لاحقا على أن أكون مديرا وهميا براتب وهمي) حينها قالت له بشكل ساخر "كان خطأكم الوحيد هو موت إصرار"، بعدها قامت بكل حزم واتجهت الى خارج المطعم من دون أن تودع أديب الذي ظل ساكنا وهو ينظر إليها ببئس، ولكن عندما خرجت من البوابة تفاجأت بوجود أثير أمامها، كان ينتظرها مستندا بجسده على عمود النور وقد وضع يديه الاثنتين في جيوبه، حين أقبلت نحوه وقفت أمامه وقالت "سوف أخبرك بكل شيء لاحقا" لكنه أشار لها بأن تلحقه الى سيارته التي كانت مركونة بالقرب، حين انطلقوا عبر الشارع بادرها أثير بالسؤال عن الرجل الذي كانت معه فما كان من بوران الا انها قالت "انها قصة يطول شرحها بدأت بصدفة وانتهت بصدفة" حينها أخذ اثير ينظر اليها وهو يكبس على دواسة البنزين بقوة لتنطلق السيارة بسرعتها العالية عبر الشارع.

عندما نحاول أن نقرب مسافات الاحتراق، ليس هنالك داعي من اكمال حكايات التضاد، لقد انتهى الأمر بشكل سيء كما الأشياء الجميلة حين تنتهي، كانت بوران على موعد مع الجراح والألم من جديد، فقد أصبحت جثة هامدة محنطة بالمدى البعيد تسير بدروب موحشة وغريبة وكأنها ماتت منذ زمن الخيانات الاولى، لكن موتها هذه المرة من نوع آخر وشكل آخر لا يحمل سمة من صمت الأغصان الذابلة ولا تسول في صراخ الحرمان ولا تتسكع بضمير لا يمطر الوشايات ولا رصاصة بداخل بندقية لم يطلقها غادر أفاق على نفسه، هو مزيج من حزن قديم وموقف أيقظه ظرف طارئ جاور الحروب والدمار والجوع والتشرد الذي جعل الانسان رغما عنه يكذب ويمتهن الزيف من أجل أن يعيش ويصمد مرغما في هذه الحياة التي يصنعها غيره، تدفعه بذلك غريزة البقاء، فمعطيات النفوس تحددها صراعات المحيط وضغوط التداعيات التي تغير النصاعة الفطرية التي سرعان ما تتلون وتتحول الى مزيج من عوالم قد لا تعنينا تكون دخيلة في الطباع والتصرفات، منذ ذلك الوقت انطوت بوران على نفسها فترة طويلة ولم تكلم أحدا قط، فقد بلغ الحزن والاكتئاب أشده في نفسها، منذ ذلك الوقت أصبحت لا تؤمن بأحد، الكل كاذبون غشاشون، لقد انعدمت الثقة بكل من حولها وأخذت تسير في البيت واجمة في أوقات

النهار، تقضي معظم الوقت في الباحة الخلفية تجلس وحدها سارحة وعند الليل اخذت تبلع الأقراص المنومة التي يجلبها أثير لها بشكل مفرط، حينها تأخذ النسمات منحى آخر وتبتعدعنها عند اول الأطراف الخدرة التي تستسلم لتقلبات جسدها المهمل، يحفها سكون البيت الممل مما انعكس كل ذلك على ملامح وجهها الذي بدا ذابلا، ارتسمت هالة من السواد حول عينيها بدت جليه وواضحة، كانت دائما في سبات عميق لا تستوعب ما يحدث حولها، الأمر الذي جعل أثير يتقرب لها كثيرا بعد ان حكت له عن قصتها مع فراس واديب، حاول ان يسوعب الحكاية لكنه لم يعر للامر أهمية قصوى حين صرح عن ذلك وقال: (انه مجرد كتاب لم أنت مهتمه) لكن بوران ردت عليه بشرود وخدر واضح " لا الحكاية أكثر من انه مجرد كتاب، انها حكاية انتقام "، لم تحس بوران بأن أثير قد استغل موقفها واخذ يداه تتحسس جسدها المتمدد، أخذ يمسح بيده على رأسها، تحسس شعرها بحنان ثم انتقل الى خدها الذي مر عليه بباطن يده بكل روية وهو ينظر اليها بعينين قد بدأتا باللمعان، تركت اصابعه تمسح على شفتيها ورقبتها بانسيابية هادئة، كانت شهوة الكلام لدى بوران معدومة بعض الشيء، يحفها الصمت من كل مكان، رددت ترنيمة على فمها الخدر غير مفهومة واخذت تهز برأسها بشكل متمايل ما لبثت ان فتحت

عينيها الناعستين بصعوبة وقالت بصوت حالم أشبه بصوت حدوة حصان يسير على ارض حجرية " أثير ماذا تفعل؟"، لكن أثير بدا انه وجد ضالته في جسد بوران الخدر، حينها أغمضت عينيها واستسلمت لحنان يده المرتجفة التي انسحبت على صدرها واخذت تتحسس نهديها بكل نعومة بعد أن فك ازرار قميصها بكل هدوء ولم تبد بوران أية مقاومة تذكر إذ ندت منها شهقة حالمة حين لامست أطراف أصابعه حلمتها التي بدأت تكبر، تخيلت بأنها سائرة فوق السحاب، يرافقها رذاذ خفيف ينث رعشات غير مألوفة بدأت تسري في بدنها المطروح وترمي على الشفاه هذيانَ شبق، انزل يديه على بطنها وألصق راحة يده بالمنتصف عند خصرها ثم انسحبت يده نحو الأسفل بكل حنان وأخذت تلامس زمنها المفقود، ندت منها آهات حالمة وازداد فحيح صوتها الذي بدا مسموعا اذ تثاقلت أنفاسها حين احست ان دفء يده تلامس شيئا حسبت أنها تناسته منذ زمن البلوغ، انتابتها أحاسيس مثيرة أخذت تغيبها الى عالم بعيد يأخذها فوق موج ناعم قد وصل الى سواحل شواطئها المبلولة، بعدها تركت جسدها يهتز وهي تغمض عينيها.

أخذت الليالي تطلق المباهج في حضن الغيم يوما بعد يوم، لا يعرقل نمو لذة اللقاء سوى الصحوة المباغتة والعودة الى ما بعد نزوة ما بعد الخدر، أضحت بوران تحب رائحة

الأقدار الجديدة، تنصاع الى خائنة الريح الناشزة، لقد استسلمت الى مصرعها على السرير في كل ليلة ولم تجد من ينصفها من طير الروح الذي يترقب احتمالا غامضا يأتي من الماضي يكابر خلف ضمير يتلعثم، أخذت بوران تترقب النجم الغارق بالسكون عبر النافذة من دون أي حراك، أرادت أن تبوح له بشيء لا تعلم كيف تصوغ كلماته، لكنها ظلت صامته وكأنها أيقنت خسارة فيض نداءاتها المتروكة بيد الصحوة، لم تكن تتنبأ أنها سوف ترتمي على صدر الممنوع من دون إرادة تتبعها أنفاس الترجي، اطلالة من طيف كاد أن تتنامى بصدر الحكايات التي هزت خاطر الخلجات في الليالي التي أخذت تتسلل عند أطراف جسد لا يضيء، يتقاسم الدهشة مع نسمات مختنقة لا تجد زهور تداعبها، أخذت انصاف الفرحة تشاركها الذهول المتكامل الذي أبعدها عن أقرب نقطة وصول للذات، كانت خاملة تتفكر حين رن جرس التلفون الذي لم يكن بعيدا عنها، التقطته بتململ ثم فتحه، لم يكن أديب هذه المرة هو الذي على الطرف الآخر، لقد جاءها صوت متحشرج وقاس: (بوران، اشتقت اليك) قال ذلك وانتظر لحظات بأن ترد بوران التي أخذت تستمع الى الأنفاس الثقيلة التي عرفت من خلالها أن الصوت لم يكن سوى صوت فراس الذي فيما يبدو أنه كان ثملا، لقد دعاها الى مقابلته بلكنة أشبه بالتوسل، لكنها وبعد

أن كان صمتها قد غلفته الصدمة، اعتذرت عن عدم وجودها بالعمل وقالت له انها ليست على ما يرام وتحتاج الى وقت كافي حتى تعود الى العمل، لكنه رد عليها بعصبية بدت وكأنها الرجاء: (لا دخل لي بأمر العمل أريد رؤيتك أنت)، كانت واجمة، لا تعرف كيف تتجاوز الالحاح الذي استمر لدقائق، سمعته مخلوطا ببكاء، لكنها بلحظة من التفكير أرادت فعلا أن تقابله، فقد أصبح كل شيء واضحا وفاضحا بعد أن كان مبهما وغامضا مما أشعرها بالغبن والغضب معا وجعل رأسها يشتعل، لقد أتت الفرصة التي تستطيع من خلالها فضح فراس والغائه من حياتها الى الابد، لذلك لم تمانع في مقابلته، قالت أنها سوف تكون معه غدا صباحا في مكتبه الخاص، حين انتهت المكالمة رمت بالتلفون جانبا والقت بجسدها على السرير وهي تفرد ذراعيها، لكنها اعتدلت مرة أخرى، جلست على طرف السرير بتململ وأخذت تفكر للحظات، ما لبثت أن قامت ولبست معطفها، ثم أخذت تنزل درجات السلم الى ان وصلت الى نهايته، بعدها اتجهت الى غرفة أثير، فتحت الباب ببطء ثم أغلقته خلفها، لقد وجدته نائما، اتجهت الى سريره، رفعت الغطاء واندست في هدوء بين أحضانه.

في صباح اليوم التالي لبست أجمل فستان لديها، فضح بعض من مفاتنها، تزينت بزينة مفرطة وتعطرت بأكثر من

عطر، أرادت أن تخبئ هالات من السواد خلف المساحيق، أرادت أن تبين له أنه الطرف الخاسر، اتجهت نحو المكتب بثبات، عندما دخلت عليه مكتبه الخاص رأته جالسا على الأريكة، يقلب جهاز التلفون بيده ويحمل بالأخرى سيجارة مشتعلة تكاد تلسع اصابعه، كان يجب عليها أن تكون معتدلة المزاج وهي تحاول أن تكتم كل ما يجول بداخلها من غضب وترسم على فمها ابتسامة مصطنعة غير مقنعة، أنتبه لها عندما وقفت أمامه كامرأة تجيد التحايل على القلوب ما لبث وأن قام ثم اتجه نحوها مرحبا بابتسامة أحست بكذبها، تراءت لها صورته أمامها مزيجا ما بين الرضى والانتقام، لقد كرهته بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، عجبا كيف تتحول المشاعر الصادقة الى أدوار كاذبة، انها مفارقة حقا، لقد دعاها بكل هدوء الى الجلوس على كرسي كان بالقرب وما أن جلست حتى قال لها بنبرة لا تخلو من انكسار: (بوران أنا آسف على كل ما حدث)، لكنها لم تشأ أن تطيل هذا اللقاء الحاسم، لذلك قالت له وهي تشد على حروف كلماتها "هل هنالك دور جديد تحب أن تلعبه" حينها اراد أن يكون أكثر هدوءا و اتزانا بعد أن شعر بالإهانة من وراء كلماتها، أخذ يقرب جسمه نحوها بحركة هادئة وقال بلطف: (بوران لا تكوني على هذه الدرجة من القساوة فنحن لم نبدأ بعد)، أرادت أن تصل معه الى نهاية الحديث من خلال صمتها الذي دعي

فراس الى أن يكمل: (أنا على استعداد لأن أجعلك مديرة لأهم الأماكن لدي) حينها تطلعت بوجهه وقالت " والثمن "، مسح على ذقنه قبل ان يقوم ويتجه الى المكتب من دون ان يتكلم، جلس على كرسيه الوثير، اشعل سيجارة وقال بكل هدوء (رحلة جديدة الى السعودية) حينها أخذت بوران الوقت غير الكافي وهي تداري غضبها، لكنها وبلحظة مباغته أخرجت الكتاب من حقيبتها ثم قامت وألقت به على الطاولة امامه من دون ان تقول اية كلمة، أخذ يدير نظراته بين الكتاب وبين وجهها الذي بدا اكثر حدة وصرامة، ساد هدوء طويل قبل ان يلتقط الكتاب بيديه ويتمعن به مليا وكأنه يراه لأول مرة، ما لبث وأن أعاده على الطاولة ودعاها الى الجلوس، لكنها بادرته بالسؤال الملح الذي وجدت الاجابة له مسبقا "من هو مؤلف ليل المنافي" ارادت ان تسمع منه كل شيء وأن يعترف بكل شيء أمامها، ولكنه أخذ يتمعن ببرود بوجهها الذي لم تكن ترتسم عليه غير علامات الاحتقار ثم قال لها مستفسرا: (ماذا تريدين أن تعرفي بالتحديد؟) حينها لم تقو على الكتمان، وقفت بكل حزم وشجاعة أمامه وقالت بعد أن سحبت الكتاب وأرجعته الى حقيبتها "عموما لقد شرح لي أديب كل شيء"، ولكن قبل أن تدير جسدها وتهم بالذهاب قال لها: (بوران أنني أحتاجك) ردت عليه بابتسامة حاولت اخفاءها "لقد اصبح لديك كل ما تحلم به فبماذا

تحتاجني أنا بالذات" حينها تقدم نحوها وقال بصوت يشبه التوسل: (لدي العديد من النساء ولكن أريد أن أكفر عن ذنبي معك) لكنها أخذت تتطلع في وجهه الذي لم تحب أن تطيل النظر في قسماته التي بدت كالشيطان، ما لبثت وأن استدارت ثم اتجهت نحو الباب، وقبل أن تخرج قالت له " صحوة ضمير أخرس، لك قريحة الزيف في زمن الخذلان " لكنه تبعها بسرعة، أمسك بذراعها وهزها نحوه وهو يقول: (تعلمين جيدا أنني كنت ضحية من) ثم أردف بغضب وهو يحكم قبضة يده على ذراعها ويسحبها نحو كرسي بالقرب من مكتبه ويرميها عليه بعنف: (بوران، لازلت لم أنتقم من ابيك، أنت تعلمين ذلك)، حينها تطلعت بوجه فراس كثيرا، اخذت تدير النظر بينه وبين حقيبتها بشكل صادم بالوقت الذي اتجه هو الى النافذة التي كانت تطل على بيوت قديمة خلف سور متهالك وقال بصوت قوي مسموع: (كان الأجدر في ذلك اليوم ان اثبت وطنيتي بعد أن حاصرتني لوعة المقاهي والدروب وأطراف المدينة، كنت ظمآنا وجائعا وأنا أرى الجميع من حولي يذهبون الى الجهات المتعاكسة ويدخلون مغارة علي بابا بكل شراسة) وبعد أن أخرج حسرة من صدره أردف وهو يتنهد (جميعنا زائفون، أردنا ان نعوض سنوات الحرمان من خلف وجوه جديدة)، كانت بوران صامتة، تستمع اليه بلا مبالاة، لم تعرف من هو الضحية، هي

أم هو، فقد بدت الأخطاء متساوية والنتائج غير مرضية، لن تحتاج الى أية أضافات بعد أن أقر فراس بإدانته، لقد آن لها أن تزيح مواطن ضعفها عن مواضعها وترسم لها جسرا من ورق تحاول ان تعبر به بعيدا عن ضفة الكلمات والمعاني الزائفة، لتصل الى الطرف الآخر الذي تكمن به رمزية الوصول الى نتيجة قد لا تكون واهيه ومن دون عراقيل ولا تركيبات جمل متموجة، لقد أتضح كل شيء، فضحته اول السطور وأخر سطور الانتقام التي بدأت بشكل قاس من خلالها، ولكن فليذهب الجميع الى الجحيم ما داموا مذنبون ولتبقى هي تعيش حياة التخبط والانقسام، كان الأجدر بها أن ترد عليه وتناقشه لكنها قامت واتجهت الى الباب ولكن قبل أن تخرج قالت له "أكمل مسيرتك أيها الميكافيلي العظيم ".

في هذا الليل عندما كان التيار الكهربائي مقطوعا، أخذت بوران تتقلب على السرير وهي تحاول أن تغفوا قبل أن يأتيها أثير بكل راحة ويندس بقربها، لكنها عندما تطلعت بعيون خدرة رأت الرجل الأرنب يقف أمامها خائفا يرتجف، رفعت رأسها وأخذت تتمعن به مليا ثم ارجعت رأسها على الوسادة وأغمضت عينيها، لكنه أمسك بيدها وقال: (تعالي بسرعه)، أخذت وقتا قصيرا وهي تفكر بأمر خوفه، قامت متململة واتجهت معه الى النافذة التي وقف عندها الرجل الأرنب بعد أن أزاح الستار، لازال في السماء محتوى من نور القمر

المكتمل يوضح حافات أعلى المنازل المقابلة في الظلام الذي كسى المكان، تعمدت ان تفتح النافذة على مصراعيها رغم البرودة التي احستها، أطلت برأسها وأخذت نفسا عميقا من الهواء ثم زفرته بوجه الرجل الأرنب الذي وضع يده على وجهه، لم تقف عند ذلك بل أخذت نفسا آخر وأعادت نفس الحركة، لكن الأمر لم يرق لها، لذا أخذت تتطلع في وجه الرجل الأرنب الذي كان خائفا من شيء ما لم تعرفه، تنبهت أنها تلبس ثوب نوم قصير ورقيق، ارادت أن تتركه واقفا وحده يرتجف وتعود الى سريرها حيث الدفء، ولكن قبل ان تغلق النافذة وتعود سمعت وقع أقدام كثيرة، حين أدارت رأسها لترى من القادم، تفاجأت بأجسادا كثيرة تدخل عبر الباب الرئيسي قرب مدخل البيت، سمعت جلبة واصوات مكتومة، لقد اتضحت معالم بعض الشخوص بالرغم من الظلام يتجهون نحو الباحة الخلفية للمنزل، كان الموقف غير طبيعي حين سمعت صوت أثير واضحا يحثهم على التقدم بغضب، أرادت أن ترى ما يحدث من دون أن يشعر بها أحد، لذلك لبست معطفها واتجهت الى السلم الذي أخذت تنزل درجاته بكل هدوء الى أن وصلت الى البوابة المؤدية للباحة الخلفية، ترقبت بوران الموقف بحذر وهي تضع يدها على ركيزة الباب، كانوا خمسة من الشخوص مكبلة ايديهم الى الخلف ومعصوبي الأعين، سمعت صوت أثير وهو يجرهم

من الأمام ويتبعهم أشخاصا آخرين قد لبسوا أقنعة سوداء على رؤوسهم، لقد أخذ الموقف يزداد رعبا حين جعلوا الأشخاص المكبلين يجثون على ركبهم، حينها بدأت الأصوات تتعالى بالترجي والتوسل، لكن الأمر لم يطل كثيرا حيث اخرسوهم بأكياس بلاستيكية وضعوها على رؤوسهم وامروهم بالسكوت، أخذ الوضع يزداد رعبا عندما رأت أثير يجر أحد الأشخاص المكبلين الى مكان بعيد وهو يخرج سيفا طويلا حادا لمعت حافته تحت ضوء القمر، أمسك أثيرالسيف بيديه الاثنتين وهوى بها على رقبة الرجل المكبل قبل أن يرمي بجثته بعيدا، كانوا يسرعون بذلك عندما ارادوا أن يسحبوا شخصا آخر نحو ذات المكان ويقطعوا رأسه، لم تصدق بوران ما رأت، ارادت أن تحبس صرخة كادت أن تخرج من فمها الذي وضعت يدها عليه، لكنها لم تستطع، لقد خرجت منها صرخة قوية هزت عتمة وسكون الليل، استدارت بجسدها وهمت بالهرب وهي تصرخ بهستيرية، تعثرت قدمها ووقعت ما لبثت أن وقفت وهرعت عبر الصالة نحو الباب الرئيسي، أرادت أن تهرب بعيدا الى أية جهة، لذلك انطلقت راكضة عبر الشارع الرئيسي بسرعة وهي تصرخ بعد أن أحست بأن أحدا يركض خلفها، حين أدارت رأسها الى الخلف وجدت الرؤوس المقطوعة تقطر منها الدماء وهي تتطاير خلفها.

كانت تلهث حين أتت الى مرسم أديب وارتمت بين أحضانه وهي تشاهد الرؤوس المتطايرة حولها، لقد ضمها اليه في بادئ الأمر حين رآها ترتجف، حسبت أنه سوف يشعرها بالأمان عندما أخذ يداريها بمرسمه الصغير، ثلاثة أيام كانت تحاول أن تستعيد بها طمأنينتها وتبعد عنها كل الهواجس والتخيلات وتعود الى طبيعتها، لقد غفرت لأديب كل شيء واستمحت له الاعذار بعد أن آواها بحنانه واهتمامه، لكنه فيما يبدو أنه لم يحتمل وجود جسدها المغري أكثر من ذلك بقربه، بدا غريب الأطوار حين أخذ ينظر اليها بتمعن بعد أيام قضتها معه وهو يقترب من جسدها الذي يكاد لا يبرح السرير الوحيد في مرسمه أكثر فأكثر، وبليلة مظلمة، أتاها محموما هائجا وهو يرى جسد بوران اللدن من خلف ثوب نومها الخفيف تحت ضوء خافت، تمدد بقربها وأخذ يمسح على أجزاء من جسمها، لكن بوران حين أحست به حاولت ابعاده عنها بشكل لطيف فما كان منه الا أن انقض عليها ومزق كل ملابسها من دون أية مقدمات، كان يخفي الشراسة خلف لوحاته وألوانه وزاويته التي اختارها من مرسمه الصغير، كانت تقاومه بقوة وهي مدهوشة من موقفه الذي لم تتوقعه، لكنها ما لبثت وان استسلمت له بعد أن أعياها التعب من شدة ما كان مندفعا بشكل قاس، لقد كان اصراره العنيف دليل على عدم تراجعه عن ما ينوي فعله

بأي شكل من الأشكال، تركت جسدها يهتز تحته وهي تنظر الى لوحتها غير المكتملة والتي اطلق عليها اسم السيدة الناصعة، لم يكن أديب يختلف عن الباقيين بشيء، أصبح الكل سواء لديها، هم فقط لا يريدون سوى جسدها اللعين الذي لا يقاوم، فقد أثقلها بالجراح في ليلة انسحاب الروح لدخان يتطاير بالمزاج، كانت تريد أن تهرب اليه ولكنه وقف في طابور الخذلان بمحض شهوته، قالت له في آخر ليلة بعد أن أطرقت وهي تشد حولها الشال، تداري به بعض من جسدها العاري " لن أحزن فالناقمون والمترصدون سواء، لست أوطأ من غيرك " لكنه رد عليها وهو يبتسم: (أنت كأنك وطن مفقود تحكمه سلالة مغرية)، لكنها تمتمت بكل حزن وقالت " قد لا يروق لي هذا الوصف كثيرا فأنا من سلالة عريقة أما أنت فيبدو أنك من الأوباش تتستر خلف فنك الزائف " عندها ضحك كثيرا وقال: (ذنبك أنك عرفت السر) بينما هي أخذت تبكي من الداخل.

الى أرواح الراحلين، لقد بدأت مواسم قطاف النفوس، سوف يأتي صوت ميلاد قناعات جديدة لدى بوران ولكن هذه المرة بشكل آخر، أخذ يفرق آخر أنفاس التراضي عن وداعتها ويحولها إلى كائن غريب عملاق جريح، يتخبط ويتجول في الداخل وكأنه يريد الانتقام من الجميع في جو مرعب، فلم يعد الرضا نشوة من أسرار كانت تحسبهاأاسرار،

الحب والعشق والغرام واشياء اخرى تعرفها، رحلت بالأمس في فضاء الشعور وعادت اليوم تندبها، بحثت عن السماحة والطمأنينة بنفسها فلم تجدها، بحثت عنها في مسافات شعرها، بعينيها او بأطراف شفتيها او بداخل القلب فلم تجدها، أحست بأنها تبحر منفية في قارب مثقوب الى جزيرة يتكلم أهلها لغات شتى لا يفهم بعضهم البعض، لقد بدأت طقوس من القساوة ترتكب عمدا أمام ناظريها وبدأ الكره يتسلل من جميع مسامات الجسد ويترك في الصدر جرحا غائرا يقيم بداخلها نارا وكراهية معلنة للجميع، لقد أظلم الليل، ها هو المنفى يتجسد بداخل بوران، في الشجر والدروب والبيوت والشوارع، وحدها الرياح تسرح في دروب المدينة التي ظلت صامتة طوال فترة غيابها عن البيت، يعطيها صفير الرياح صفعة من الضياع، عندما عادت الى البيت، لم يكن سوى الهدوء والضباب يغزوان اول المدخل، فقط صرير الباب الرئيسي الذي دفعته ودخلت بخطوات متأنية صرح عن وجودها، عبرت السور والحديقة الى أن وصلت الى الباب الخشبي الكبير، حين فتحته بحذر، وجدت كل شيء من حولها معتما، لازمها الرعب والخوف حين وجدت ان المكان الساكن لا ينبئ بوجود حياة، ارادت ان تحتمي بأي شيء قبل ان يتنبأ بوجودها أحد، وصلت الى الصالة الواسعة وتوجهت الى اشعال ضوء خافت قرب الكنبة

العريضة التي جلست عليها، أدرات ناظريها في المكان الصامت ولم تر شيئا متغير، لابد أن العمة أصيلة الآن نائمة في غرفتها قرب سماح التي بعد أن فقدت ابنها الصغير الذي ذهب الى البعيد خلف طائرته الورقية ولم يعد، أصبحت كالجثة الهامدة لا تقوى على الحركة أبدا فقد أخذ جسدها يتضاءل يوما بعد يوم حتى أصبح كالهيكل العظمي، تطلعت الى غرفة أثير، وجدتها أيضا ساكنة، لابد أنه هرب وأختفى كعادته الى جهة غير معلومة، لابد أنه ذهب ولم يعد منذ فترة طويلة كي يترك التساؤلات خلفه كما هي في كل مرة، كم كان عمله دنيئا، من العبث أن نتجاوز فعلته المقيتة، لقد رأته وهو يهوي بالسيف على الرقاب، مشهد لم تكن تتصور أن تراه حقيقيا أمامها بهذه الصورة أو أن تتجاوزه في فكرها، فلم يكن الأمر بهذه السهولة التي تجعل الانسان بهذا الرخص، كانت متعبة جدا، عقلها أخذ يعمل بشكل جزئي، أرادت ان تنسى كل شيء وتذهب لتأخذ قسطا من النوم، أصدرت حسرة طويلة وهي تشبك أصابعها ببعضها قبل أن تحاول ان تتصنع الهدوء والطمأنينة في نفسها، قامت وأرادت أن تذهب الى غرفتها في الأعلى، ولكن قبل ان تصعد اول الدرجات، تنبهت الى ضوء خفيف يخرج من أسفل باب مكتب أبيها، لذا استدارت وذهبت نحوه الى أن وقفت قرب باب المكتب الذي وجدته صامتا هو الآخر، لابد أن أبوها يحبس نفسه

الآن بين الأوراق، يكتب تقريرا جديدا أحب أن يكتبه بصمت كعادته، ارادت ان تطرق عليه الباب وتنبيهه بوجودها، لكنها عدلت عن ذلك وعادت لتصعد الدرجات الى غرفتها التي عندما فتحت الباب وأشعلت الضوء، وجدت الرجل الأرنب يقبع بزاوية الغرفة متكورا وهو يرتعش، عندما اقتربت منه، سألته عن سبب خوفه، أخذ ينظر إليها بعيون جاحظة وهو يقول: (يجب أن تتصلي بصديقتك السورية نينار)، لم تفهم حينها ماذا يقصد، كانت تحب أن تستفسر منه أكثر، لكن حين اقتربت منه، بدا أكثر حزنا وخوفا وقال بصوت مرتجف: (لقد مات عماد) بعدها قام وولج بالجدار واختفى بينما هي توجهت والتقطت تلفونها النقال، أخذت تكبس على الأرقام بعجلة، لقد أتاها صوت نينار حزينا، قالت وهي تحاول أن تكتم البكاء: (لقد قتلوه، لم يحتملوا أن يجدوه يغني ويرقص، هم ضد كل شيء جميل)، حينها أغلقت المكالمة بوجوم ورمت بالتلفون بعيدا، جلست على اطراف السرير ورمت رأسها بين كفيها، لقد أصبح صوت ضميرها يسألها عن الريح التي تجري بما لا يشتهي الحلم وعن الزورق المثقوب الذي يتنزه في نهر ليس له مرسى، لم تجد إجابات شافية عن كل التساؤلات التي أخذت تعصف في داخلها، لقد توافدت عليها الانتكاسات تباعا، موت عماد لن يكون الأخير إنما هو

بداية موتها الجميع، أخذت تبكي بحرارة في هذا الليل الحالك.

الكرباج الحادي عشر- كورت شوماخر

لقد طويت أسوء صفحة بتاريخ العراق، كانت أحداث الأمس دليلا واضحا لعنجهية حاكم حول الدولة الى حكم عشائري تسانده أفراد القبيلة في ترسيخ السيطرة على الشعب الذى عانى من التصرفات العنجهية والتهميش والإقصاء والدمار والحروب، كان على مر التاريخ الحاكم الأسوأ على الإطلاق فقد تعامل بمزاجية بمشاركة افراد الحزب البالي على جعل الوطن عبارة عن سجون وزنازين ومقابر، ولم يدرك أن العالم يسير بعنفوان متحرر نحو عالم آخر تكمن فيه المواقف الانسانية ويكون الإنسان هو أغلى ما تملكه الأوطان.

لقد كنا نتابع كل الأحداث عبر شاشات التلفزيون بعد أن استقر بنا المقام في برلين، كنا نشاهد ما لهذا الذل والهوان من أثر على نفوسنا حين أخرجوا الرئيس من حفرة بالأرض وأخذوا يحاكمونه أمام العالم أجمع وهو بدوره لا زال يرفع الشعارات الواهية التي أودت به وبالشعب والوطن الى حفرة أعمق من التي كان بها، كانت الأيام تسير ونحن في بلد

جديد قدم لنا ما لا يقدمه الوطن وارتضينا بأن نكمل بقية حياتنا هنا ولكن أبي كان له رأي آخر، فقد كان يريد العودة بعد أن رأى أن من الممكن أن نعيش هناك بعد التحرير، كان يقول دائما أننا مهما عشنا فلن نعرف طعم الحياة الا في بلدنا لذلك كان مستاء جدا ويفكر دائما بالعودة، لكننا اعتدنا على منطقتنا الجديدة، كورت شوماخر التي تقع في أطراف العاصمة برلين التي احببنا ان نعيش بها في سلام.

دائما ما نذهب أنا وأبرار الى المدرسة صباح كل يوم سيرا على الأقدام، نقطع الدروب التي أخذنا نحفظ اسماءها ونسير بها في راحة، عندما نعود نجد أمي التي دائما ما يكون غداؤها جاهزا تنتظرنا في بشاشة، فقد أخذت تمارس حياتها الطبيعية في الشقة، تعمل المعجنات وغيرها من التحضيرات التي أشغلت بها نفسها، بينما أخذ أبي يمارس هوايته القديمة بعمل الميداليات الخشبية التي يحفر عليها الحروف والأسماء المختلفة ويعلقها بسلسة حديدية ثم يعلقها أمامه على لوحة بيضاء، لقد مضت فترة طويلة أحسسنا من خلالها رتابة الأحداث وتشابه الأيام، فلم يتغير أي شيء كبير سوى أحداث طفيفة وزيارات عمي التي أخذت تتفاوت وتتباعد مع مرور الأيام مما زاد من إصرار ابي على العودة الى العراق بعد أن أخذ يتذمر من كل هذا الهدوء والوحدة.

فراس حسين القاسم -نيسان ٢٠٠٦

الصباح كان معتما بعض الشيء، صرخات العمة أصيله كانت كفيلة بإيقاظ بوران واخرجها من السرير بسرعة، عندما هرعت تخطو الدرجات نحو الأسفل وجدت أبيها قد سبقها قرب باب غرفة سماح وهو يضع يديه فوق رأسه، حين أطلت برأسها الى الداخل، وجدت عمتها أصيلة تجلس على ركبتيها وتضع يديها على جسد سماح المسجى وهي تئن وتصرخ، كان الموقف اكبر من الدهشة التي أخذت منها النزر اليسير بتخمين ما يحدث، فقد استقر نظرها على مشهد لم تود أن تراه أو تسمعه خصوصا في هذا الوقت المتأزم ما لبثت أن اسرعت اليها لتجد أن جسد سماح من دون أية حركة، وجهها كان شاحبا وعيناها معلقة بالسقف وقد خرج من فمها شيئا أشبه بالرغوة البيضاء التي امتزجت بكريات من الدم صغيرة وبقربها قد تناثرت حبوب كثيرة، حينها عرفت بوران أن سماح غادرتهم، كان موتها شيئا متوقعا، فقد كانت سماح ميتة منذ زمن بعيد، لابد أنها تحاملت على نفسها و زحفت والتقطت الحبوب في اخر لحظاتها، ارادتها كانت قوية نحو الموت، لابد ان يكون ما مر بها زاد من إصرارها على الموت الذي تمنته في كل يوم، حتى جاءتها فرصة الخلاص، لم يتسن لها ان تكتب شيئا أخيرا لأنها كانت تعلم اننا نفهم لماذا

انتحرت، لقد طويت صفحتها فوق شفاه الريح وأطلقت آخر قراراتها في مكامن عند الفراغ كالطيور المهاجرة وتركت الآهات تنتحب فوق صدر أعزل، سماح المسكينة، لقد أقفلت صندوق حكايتها ورمت به في أعماق بحور غامضة وصعدت مع آخر غيمة شتاء بارده الى السماء ولم تتحدث عن حلم لا ينتهي أبدا فقد كان بداخلها أملا مفقودا يترنح في أعماق الشعور، كانت صامته الى أن ذهبت كقربان يحتضر، مراسيم العزاء كانت بسيطة، حضر السيد اصلان وبعض من رفاقه، لم يتبق احد من الحضور بعد أن كانوا يجلسون ساعات قليلة بصمت في الصالة، ينظر بعضهم الى بعض، الأمر الذي دعاهم الى الانسحاب، الشخص الذي كان على غير المتوقع وجوده بينهم في الصالة، والذي لم تحسب بوران له أي حساب هو حضور فراس، كان يعلم جيدا أنه لا يمكن ان يكون بينهم، لكنه يبدو انه قد اتى لأمر ما، ربما كان يريد أن يتشفى بأبيها الذي كان ينظر اليه بين الحين والآخر بنظرات خاطفة، فهو يعلم أنه بالإمكان ان يتخلص منه فراس في اية لحظة انتقاما لما قدمه من تقارير في حق اسرته وأنه السبب في موت أبيه، لقد التقى الندان، التقت وجوه الخطيئة، تقابلت وكأنها تريد أن تقول لبعضها البعض أن الدنيا أقصر مما يتصوران، ربما أراد تصفية الحسابات بشكل آخر بعيدا عن الدماء، كان فراس فيما يبدو يريد ان يوصل رسالة الى

بوران بأنه باق على حياة أبيها لأجلها مما جعل الرعب يدب في داخلها يوما بعد يوم بعد أن رأت فراس يدخل الى حياتهم من جديد، لقد مرت الأيام متسارعة على بوران، أخذ الهواء البارد يتسرب من جهة لا تعلمها، بدا لها أنها تستمع لأصوات استغاثة من قبور بالأنحاء تكاد تتحرك، أو صرخات من قبو تحت الأرض تسجن به اجسادا حية تتلوى، تساءلت في نفسها أن كان باردا هو الأخر أم لا، عندما تحبس الهواء بداخلها، تستطيع أن تسمع بوضوح الأصوات بشكل مرعب وحين تتنفس تحجب الأصوات عنها وتبدأ بسماع صوت يشبه نقرات قطرات الماء على فتحة في صخرة جوفية، ثمة روائح تأتيها من مكان مجهول، رائحة خرقة بالية مغموسة بالبنزين والشحوم تكاد تخنقها، كاد كل شيء يجتمع برأسها ويصبح كالطنين وكاللغط، لقد شعرت بشحوبها، تصورت أن ينقلب لون وجهها الى الرمادي وبعدها يتقشر فيصبح كتلة حمراء بلا ملامح، لم تعلم لم وصل بها الأمر على هذا النحو من الجنون، فقد أخذت تتلفت في كل حين بفضاءات المكان، تتراءى لها رؤوس تتطاير حولها تقطر دما من حين لآخر حتى أنها رأت رأس الرجل الأرنب بينهم، تغمض عينيها وتعصرهم وتسد أذنيها بكلتا يديها بقوة وتتمنى أن تصحو من الكابوس الذي أخذ يلاحقها ويجعلها تبدأ بالبكاء والانين، لم تكن تتصور أن يكون أمر النهاية على هذه

الشاكلة من القلق، فقد اخذت ترتجف من شدة الرعب وتجفل لسماع اقل صوت، لقد أصبح كل شيء حولها مرعبا كلما زادت من التفكير بالقادم، كانت تريد أن ترى أي شيء معقول يسير بها نحو جادة الصواب ويبعدها عن هذا الجو المشحون قساوة بشكل كافي، هل كان كل الذي حدث ما هو الا قصور في فهم الذات وتقلبات النفس التي سرعان ما تراها على غير عادتها وهي تأخذ منحى مغاير لمجرد أنها تتعرض الى مواقف غير مألوفة لديها تعكر صفو سريرتها، أم كان للآخر دور في دفعها الى تغير قناعاتها التي تعدم كل شيء معقول لديها، أنها احتمالات زمن انعزالها عن موقع التقاليد العفوية غير المبررة يجعلها تمر في مراحل قد تستوعب بوران البعض منها الذي يطابق توقعاتها وترمي البعض الآخر في خانة قدرات التطبيع التي تجيز الاحتمالات المحكوم بها سلفا، والتي يجب أن تؤمن بها من دون أن تراها فتكون على شكل ممارسات تزرع بها هذا الكم الهائل من الرعب والخوف من المجهول، أحست بوران أن يدا تهوي على كتفها، فزعت وأخذت تصرخ بهستيرية عندما رأت الرجل الأرنب يقف خلفها بلا رأس، صرخاتها ملأت المكان وارتد صداها كما الانفجار المحبوس، وضعت رأسها بين يديه وأخذت تبكي ثم رفعت رأسها فجأة وأخذت تنظر الى الرجل الأرنب بنظرات خاطفة اشبه بالذهول، ما لبثت أن

انتفضت مفزوعة وهي تصيح "سوف يقتلوننا جميعا، سوف يقتلوننا جميعا"، قامت مسرعة واتجهت الى غرفتها في الأعلى بخطوات مرتبكة، أسدلت ستار النافذة و أطفأت نور الغرفة الفاضح واشعلت شمعة، بعدها أصبحت جاهزة للبكاء الصريح، كأنها تريد فقط أن تبني لها سجنا للبكاء ولا تخرج من بابه المفتوح أبدا، فقد احبت ان تعود الى الحزن بمحض إرادتها وتبتعد عن كل الناس، الهواجس والخيالات التي أخذت تلاحقها أحست أنها سوف تصيبها بالجنون، أخذت عيناها المسلطة على النافذة تنظر الى شعاع من نور خافت بدأ يلج عبرها، ما هي الى لحظات حتى بدأ يتسع ويشتد نوره الى أن بدا واضحا، أخذت تقتفي أثره في هذا الليل فكان الشعاع يخترق نافذتها ويمتد نحو السماء الى أبعد مما تصورته، فقد أخذ يتلاشى بعمق غامض في أعماق المجرة، اوهمت نفسها بالخلاص عبر مسار النور الواسع، أحبت أن ترتقيه وتسير فوقه نحو السماء بكل تأن، تتشبع من أصوات التراتيل التي بدأت تسمعها وتشحذ ما بداخلها من همة للخلاص المبكر لتصل الى أعلى مدى في الكون وتختفي، لكنها خافت من تهالك مساحة النور تحت قدميها وهو يصدر صوت ازيز وامض، حينها سوف تسقط على مهل كالريشة على أرضية مبللة بالموت، لقد فكرت في الانتحار في هذه اللحظة، لكنها عدلت عن الفكرة عندما ادركت ان ليس

هنالك شيء مهم تموت من اجله بالرغم من الآلام التي ترغمها على فضح المزيد من نوايا الشعور المرعب في ترقبات الضياع، مرحلة من اليأس لا تحسد عليها بوران، تكونت في لحظات هي ابعد من جرح غائر في الصدر يذرون عليه الملح على جرعات ببطء شديد، حتى بات لا يستجيب لنداءات الألم، تمنت ان تقتفي اثر السكون وتنام بكل راحة، رقدة طويلة لا تقوم بعدها ابدا، أخذت تعصر عينيها بكل قوة ما لبثت أن فتحتهما و قامت فجأة، أخذت تجول في الغرفة كما الهائجة، تبحث عن أقراصها السحرية، وحدها الأقراص هي من يخمد هذا الفكر المشتعل، أخذت تدور وتدور من دون أن تجد شيئا الى أن وصلت الى لوحة الفتاة البائسة، تطلعت في وجهها كثيرا وهي تزفر بعصبية ثم قالت " هذا يكفي، لقد تشبعت من الحزن بما فيه الكفاية "، بعدها امسكت اللوحة بيديها وانزلتها ثم اتجهت بها الى النافذة ورمت بها الى الأسفل، عادت الى أدوات الرسم والألوان، أخذت ترمي بهم واحدة تلو الأخرى، لقد تحولت بوران الى امرأة شرسة تدور في الغرفة وتحطم كل شيء أمامها وتنثر كل ملابسها على الأرض، أرادت أن توقظ بداخلها غولا كان نائما فترة طويلة، تريد أن تكون أقسى و أشرس من بوران التي تعرفها على طبيعتها الهادئة.

لازالت الحرب الدائرة من أجل تحرير الأرض متواصلة، ما زال النزوح يستشري في المدن المغبونة لينتج أفواجا من النازحين والهاربين من بطش الجماعات المسلحة التي فرضت وجودها بالتنكيل والتعذيب والقتل والدمار، أدت الى فوضوية بالغة في وطن يواصل مسلسل الحروب المتعاقبة جيلا بعد جيل، في كل زمان ومكان، فالعدو الجديد لازال يتبجح على الأرض بعدوانية لا مثيل لها منذ عهد قريب، يقتل ويسرق ويغتصب وينكل بالإنسان عبر فكر وصحائف تجيز له ذلك، فالصراعات الدائرة أصبحت خارج حدود المنطق وخارج حدود الإنسان الذي تعدته واتجهت الى صراع بالوكالة على الأرض التي أصبحت هي القضية، يريدون السيطرة على الأرض من أجل ارضاء غرائزهم الدينية التي تنبأ بها غيرهم، شعارات تفضح التكهن بسؤال مروع يوضح مدى توازن القوى السياسية في هذا العالم الذي ما خلق إلا لسلالات معينة، تدير هذا الكون بالوكالة وبقية الشعوب وقود أفكارهم المندفعة لتنفيذ مخطط مختار من الرب الذي أباح لهم ذلك، أما بقية البشر ما هم الا دمى متدلية بخيوط واهية من السماء تلعب دور الضحية، أصبحت بوران تواظب على تتبع الأحداث عبر جهاز التلفاز، لم تبرحه طيلة مكوثها في الصالة التي كانت تجلس بها وحيدة ترتجف، تتطلع بما حولها وهي تلف على جسدها ملاءة

حمـراء، لازالـت عمتهـا أصـيلة تحـبس نفسـها فـي الغرفـة المجاورة، لـم تعد تمارس حركتها الدؤوبة في الصباح ولـم تعـد تلـك النشـيطة التـي دائمـا مـا تسـعى الـى عمـل الشـاي واحضار الكعك في العصر، رأت بوران حركتها الثقيلة حين أقبلت عليها ووقفت أمامها وهي تقول: (سوف أذهـب أبحث عـن ابـن سـماح) ثـم عـادت الـى غرفتهـا، كانـت العمـة أصـيلة تحاول أن تداري شعور يتخبط في الصدر، فقد كانت تقف بين خيارين، أما اتقان الاستسلام الى المجهول في فضاءات ليس لها بها قرار ثابت، أو انها تنفصل من دفق تيار الواقع وتبنـي لهـا صـومعة مـن الحـزن فـي مكـان مـا مـن أي مدينـة أخرى، فقد أخذت تندب الأيام برثاء لا ينقطع أنينه، كانت قد انعطفت بطرق حرجة نحو اسفار تترصد الويلات في زمن لم يفهمها، أما أبوها فقد حبس نفسه في غرفة المكتب الذي أصبح لا يفارقه حتى في اوقات النوم، حسبته قد مات على كرسيه المتحرك، يبقي نور المكتب مشتعلا طوال اليوم، تراه بـوران مـن تحـت عقـب البـاب، أثيـر الغـامض لازال غائبـا كعادته في جهة لا تعلمها، حاولت الاتصال به لكنه كان لا يـرد علـى جهـاز التلفـون أبـدا، لقـد ذهبـت العمـة أصـيلة فـي صباح اليوم التالي تبحث عـن أبـن سـماح الصـغير ولـم تعـد حتـى الليـل، بحثـت عنهـا بـوران ولـم تجـدها، انتظرتهـا عنـد ناصية الطريق ولكن لم يبدو لها أثرا، قالت في آخر مرة أنها

لن تعود دون أن تجد ابن سماح الصغير الذي لم يأت الى الآن، أخذت معها صورة له وقميصا وطائرة ورقية وضعتهم جميعا في كيس واتجهت الى البعيد، كانت تتصور في أسوأ الأحوال أنها سوف تجد جثته هامدة في أحد المنازل المهجورة أو في زوايا البيوت المتهالكة، وفي أحسن الأحوال قد تجد له قصة حقيقية تبين السبب من وراء اختفائه.

جلست بوران وحيدة في الصالة المظلمة، تتابع التطورات التي أخذت تتصاعد عبر جهاز التلفاز الذي لم تبرحه طيلة مدة بقائها على وضعها الحالي وهي تلف ملاءتها الحمراء حول جسدها، أخذت تشاهد تقدم القوات العراقية في معركة التحرير، لقد كان التقدم كاسحا في أرض المعركة، يوما بعد يوم أخذت الانتصارات تتوالى، ها هي المناطق التي كانت تسيطر عليها الجماعات الارهابية تتحرر، ها هي القوات العراقية تدحر وتشتت العدو في الصحراء التي أتى منها باسم الجهاد الذي كان ذريعة مغرضة من أجل الاستيلاء على ما لا يملكه بسيف يقطر دما بريئا، لم تتصور بوران أن يحدث كل هذا الخراب الذي حل بالمدن المحررة، دمار في كل مكان خلفته حروب التحريرمن داعش، وكأن الذي حدث لم يكن سوى زوبعة هوجاء مرت على بقعة تقع على نهر الفرات، أثارت بهم شيئا أكبر من شعور بالغبن والغضب وأكملت

طريقها نحو شعور آخر أكثر شراسة، هو شعور الانتقام، فقد أصبحت أحداث الموت مألوفة لديهم، اخذوا يحصدون العدد الأكبر من البشر، تهيج البنادق لفترة وجيزة وتنتهي بانتهاء المسببات والأسباب المعروفة سلفا، فتترك في الأعماق مجرد شهقة على الطين الذي أختلط بالدم والدموع، لم تعد أيام بوران حبلى بالشتات بعد الآن، حيث أنها أخذت تتمخض عن حقيقتها الآتية التي آمنت بها واستسلمت لها بكل قناعة، لقد انتهت آلام الليالي التي لم تنجب قصيدة أو حكاية أو حتى ذكرى مفرحه، أصبحت حقيقة الأحداث لديها تتحول الى صور محروقة في الذاكرة تحاول ان لا تستعرضها وهي تواظب على اشعال الشموع في كل ليلة، ترتب لحياتها الجديدة هواجس بدت انها لا تضيف الى الآخرين شيئا، أخذت تنظر لمن حولها بعيون جاحظة يكسوها السواد وشعر مهمل، لقد أخذت تقسوا على نفسها، قطعت عنها الأكل والشرب لأيام، أخذت تخط على يدها خطوطا بسكين حادة حتى أحالتها شروخا من الدماء، تجادل وتناقش وتصرخ بكل من حولها في فراغ، أرادت أن تكون بوران أخرى تجيد الغضب والانفعال وتتمرس عليه، كان يجب عليها ان تنسى كل شيء وتبدأ من جديد، لكنها أصرت على حالتها هذه، سوف تنسى فعلا كل الماضي وتبدأ من جديد، ولكن هذه المرة سوف تستخدم نصفها الآخر الذي كانت تهمله، لذا

سوف تتعبد بنسيان بوران السابقة وتبدأ بحوشيتها وقسوتها التي أخذت تتضور وتتفاقم يوما بعد يوم، فقد علمت أن كل شيء ممكن أن يكون عندما يتحول اعتقاد الانتقام بداخلها ويتجانس معها ليصبح هو وحده حقيقتها القادمة، لذلك قررت في لحظة أن تلجأ الى الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يجعل منها انسانة اخرى لمرحلتها القادمة، لذا أمسكت بالتلفون وأخذت ترن عليه أكثر من مرة الى أن جائها صوته أخيرا عبر الجهاز، كان هادئا وباردا، لم تعلم من أين يستمد كل هذا الهدوء بالرغم من إجرامه، قالت له وهي تشدد بكلمات مرتعشة على مسامعه " أثير أريدك لأمر ضروري "

عند المساء كان صوت أثير في البيت، لقد تنبهت لوجوده واخذت تسترق السمع الى خطواته التي بدت جلية تصعد الدرجات وتسير في الممر، عندما قامت بكل تثاقل، وقفت عند باب غرفتها، أطل عليها بهيئته التي بدت تزداد سوءا وقساوة، فقد كانت لحيته الطويلة المهملة تدل على البشاعة والاهمال، سحنة تحولت الى لون أشبه بلون التراب، لقد وقفت قبالته بصمت تنظر اليه بعيون جاحظة بعدها أفسحت له الطريق وعادت تجلس على أطراف سريرها بصمت فيما هو تقدم بخطوات متأنية وجلس على كرسي قبالتها، لم تشأ أن تتطلع به كثيرا، انزلت رأسها وهي تقول "لابد أنك علمت بالذي حدث" لكنه وبعد صمت قصير رد عليها: (ما الذي

حدث؟) حين رفعت رأسها، تمعنت بوجهه الذي بدا أكثر برودة وقالت مستغربة "ألم تعلم بموت سماح" حينها أخذ ينظر الى وجهها الذابل، وضع يديه على فمه بخط مستقيم وأغمض عينيه لبرهة ما لبث أن فتحها وأخذ ينظر الى بوران التي كان رأسها منكسا الى الأسفل ثم قال بكل هدوء: (لم أعن أمر سماح فهو مفروغ منه، كانت قد ماتت منذ زمن بعيد ولكن ماذا حدث لك أنت)، لم تشأ بوران أن تتكلم في بداية الأمر بعد أن تأكدت من خلو الرحمة في داخله، لكنها رفعت رأسها وردت عليه بسخرية وقالت " هي لعنة العائلة " حينها تطلع بها كثيرا قبل أن يقوم ويتجه الى النافذة التي ازاح ستارتها وأخذ ينظر من خلالها للخارج ثم قال من دون ان يستدير نحوها: (ما لأمر الضروري الذي تريديني لأجله) قامت بوران واتجهت نحوه وقالت له " لم يعد الأمر مهما لديك، فالذي حدث أكبر من قنابلك " عندها أشاح بوجهه نحوها وأخذ ينظر اليها بنفاذ صبر، أشبك أثير يديه وقال بنبرة مخلوطة ببعض الغضب: (ما لذي تريدينه الآن) لم تشأ أن تطيل في الحديث، فقد ارادت أن تفصح عن نواياها بشكل صريح من دون اية مقدمات بعد أن رأت أنه لم يحتمل الاسفاف في حديثها، لكنه صدم عندما سمعها تقول "أريد قنبلة ناسفه" حينها اراد أثير أن يضحك من خلف شفتين متشققتين، لكنه وقف قبالتها بحزم وقال وهو يخفي من

خلف وجهه تساؤلات قد يجد الاجابة عليها ان هو انتظر منها ان تحكي كل شيء: (يكاد يكون الأمر كبيرا) لكنها لم تعر لسخريته اي اهتمام، اخذت تتطلع عبر النافذة الى صورة فراس التي بدت تتجلى أمامها وتكاد أن تفقدها صوابها وقالت بكل وضوح " هل تستطيع جلب لي واحدة " حينها هز رأسه بالموافقة واقترب نحوها، ضمها على صدره وأخذ يمسح بيديه في حميمية على ظهرها.

في صباح اليوم التالي، كان الجو غائما يحمل برودة أجبرتها على احكام اغلاق ازرار الجاكيت الصوفي الطويل، ادخلت يديها في داخل جيبيها التي حملت بداخل احداهن سكين مطبخ حادة غلفتها بورق جرائد، شدت يدها على السكين وهي تسير نحو الباب الرئيسي الذي وقفت عنده لحظات تتطلع الى الجو الغائم الذي بانت من خلاله بوادر هطول أمطار ثم اتجهت بعد ذلك الى الخارج وانطلقت عبر الشارع تحاول ان تجد سيارة تكسي، كانت تريد ان تكون مع اديب، أرادت أن تراه وتصفي أول الحسابات، حين وصلت اتخذت الطريق المؤدي الى المرسم الصغير الذي وجدته مظلما، ترددت في بادئ الأمر من إكمال خطتها، أرادت أن تعود من حيث أتت، لكنها اتجهت بكل حزم واصرار الى بيته الذي لم يبعد كثيرا، انتظرت طويلا أمام الباب الذي رسم عليه سرب من البجع يرحل الى البعيد، لم تنتظر كثيرا بعد أن

قرعت الباب مرة أخرى، فما هي الا لحظات حتى فتح واطل من خلاله رأس رجل، لم يكن أديب هذه المرة، ولكن كان ابوه الذي حين رآها واقفة أمامه افسح لها الطريق حتى تدخل، لكنها توقفت ولم تدخل، ساد بعض الصمت قبل أن تسأله عن أديب بصوت مرتبك بدا عليه التحدي، لكن صوت أبيه أتاها حزينا حين قال: (لقد رحل أديب الى ألمانيا)، ساد بعض الصمت وهي تنظر في عيني أبيه الحزينتين بعدها استدارت وعادت من حيث أتت من دون أي كلمة وهي تفكر في الأقدار التي جعلت من أديب جثة تهرب منها، سارت وحدها في الشارع تحت المطر الذي بدأ يهطل، حسبت أنها خلقت من قطراته، نور الشارع الشاحب يأسر الجسد المبلل، أسرار الحكايات تربكها، تمنت أن يغسل الماء بداخلها كل أفكار الشر التي تراودها، تمنت أن تبكي الجراح على صدر حنون يمسح دموعها المغبونة بكل أمنيات طائر يتوسل، يقتحم عليها مدينتها المبللة، يحتويها برداء دافئ وينتشلها من عذابات الوحدة، ولكن الذي كان يسكنها أكبر من ذلك، الانتقام فقط هو الذي كان يراودها بداخل قفص من عظام الصدر، ولكن من اي واحد، من فراس ام من ابيها ام من عماد أم من أديب الذي نفذ بجلده، ارتبكت قليلا ولكن لا مجال للتراجع، هو الطريق بعينه الذي لابد أن تجتازه بثبات، كلما انتظرت أكثر كلما ابتعد عنها الغل

والغضب كثيرا، فكرت في كيفية الخروج من الاطار والانتقام لنفسها، حاولت أن تنسى ذلك وتعود عن اندفاع الغضب داخلها بعد أن أغمضت عينيها ولكن ما بداخلها ظل مستيقظا، حين عادت الى البيت وجدت أثير ينتظرها، أشار لها بالإتيان خلفه وهو يتجه الى غرفته، دخلت وأغلقت من خلفها الباب، أخذ يتطلع بهيئتها المبللة وهي تقف أمامه ترتعش، تقدم نحوها وخلع عنها الجاكيت بكل تأن ورماه بالقرب، كانت بوران كما البليدة عندما أقدم على فك أزرار قميصها بكل هدوء، لم تتفوه بأية كلمة بعد أن نزع عنها القميص وبان نهديها الكبيرين من خلف الحمالات، أخذ يتمعن بنصف جسدها الساحر وهو يرمي بشعرها المبلل الى الخلف، مرت لحظات قبل ينزع عنه سترة من الجلد كان يلبسها وألقاها على كتفي بوران التي تقدمت نحو السرير وجلست على حافته، أتجه أثير نحوها وسحب من تحتها صندوقا من الكرتون، عندما فتحه أمامها، أخرج لفافة من القماش كانت تحتوي على أصابع معدنية مربوطة ببعضها البعض بأسلاك ملونة، كانت صامتة حين قال: (هذا ما طلبته) بعدها أخرج تلفون صغير من جيبه ومده بيده نحوها وقال: (نحن جاهزون الآن).

اصبحت الصالة هي مأواها ومجلسها، لم تبرح عيناها جهاز التلفاز الذي أخذ يصدر الاخبار تباعا عن معارك

التحرير التي بانت نهايتها في آخر جيوب ومعاقل العدو، أخذت تستخلص من الأحداث صورة بدت جلية أمام ناظريها وهي تتابع الأحداث المتسارعة في أرض المعركة الأخيرة، تفكر في النهايات الصعبة التي قد لا تعني لها شيئا بعد الآن فقد بدت الصور والاحداث قاسية، ذلك الاندفاع الشعبي لم يكن له غاية سوى أنه يسيطر على المنطقة الغربية وبناء دولة داخل دولة، لقد أكتملت المسرحية التي حددت تفاصيلها القوى العظمى التي ارادت ان تصنع كيانا جديدا لها يسيطر على الأرض، لم يكن دخول داعش الى العراق الا عملا مفبركا تعاونت جميع القوى من أجل إنتاجه، والنتيجة كل هذا الخراب الفاحش، أخذ عقل بوران يدور بين كل الذي حدث، أصبح رأسها مثقلا، أرادت أن تضع رأسها على الوسادة وتنام لأيام عدة، لكنها أدارت رأسها نحو مكتب ابيها، أخذت تنظر الى غرفة المكتب الذي لازال النور يأتي من تحت عقب الباب، الرائحة الكريهة التي بدأت تخرج من مكتب أبيها الذي لم يخرج منه منذ وقت طويل لم تعني لها شيئا، لم تكن تهتم لأحد ولم تسأل عن أحد بعد الآن، لقد وصلت بوران الى نتائج أصبحت غير مهمة بالنسبة لها جعلتها على نحو كبير من الصلافة، لكن فضولها جعلها تقوم وتتجه الى غرفة المكتب، حين وصلت فتحت الباب بروية، أدارت ناظريها بالغرفة المضاءة الى أن وصلت الى المكتب

الذي كان خاليا يحفه الصمت، لم يكن هناك أحد موجود سوى الرائحة التي كانت شديدة، شدت أصابعها على أنفها وهي تتقدم نحو المكتب، لم تجد سوى كرسي أبيها المتحرك قابعا بالخلف لكنها حين تقدمت أكثر كانت صدمتها كبيرة، لقد وجدت جثة أبيها ممدودة على الارض، لم تفعل شيئا سوى أنها أخذت تحملق في الجثة التي أصيبت بإطلاقة في الرأس، بعدها انسحبت وأغلقت الباب خلفها وعادت الى مكانها في الصالة، حملت التلفون واتصلت على فراس، لم يرد في بادئ الأمر، ولكنها تمهلت قليلا واعادت الاتصال مرة أخرى ليأتي صوته على الطرف الآخر متحشرجا، تجاوزت الاحراج وقالت بصوت حنون "هل أستطيع أن أقابلك لأمر مهم" حينها كانت تنتظر لحظات الموافقة التي لم تكن طويله، فقد رد عليها وهو يقول بكل راحة: (غدا في مطعم الساقي).

لقائهما الأخير، لم يكن لقاء فقط، كان مأتما جاءت تعزي به نفسها بصمت، اقتادتها قدميها رغما عنها الى ركن شاحب في المطعم حيث كان يجلس فراس الذي استقبلها برتابة، حين جلست أمامه دفعت بحقيبتها التي تحمل أصابع الديناميت أسفل الطاولة بحذر بالغ، أخذت تصنع من ابتسامتها الراحة والانسجام، وكأن الذي حدث في ذلك الزمن الغابر لم يكن يعنيها، ولكن النار التي توقد بداخلها

كانت مرعبة وقاسية، لم تعرف وما عادت تعرف، تركت له الادارة في آخر لقاء بينهما ولاذت بقرار رحيله الذي لم يكن أول مرة، فقد اعتادت على هذا الموقف منذ ان هرب عنها وتركها وحيدة في مخزن الحبوب تسيل الدماء من بين فخذيها، لن تحمل المواقف أكبر من طاقتها بعد الآن، فلم تمهلها اللحظات بأن تتمعن بوجهه كثيرا بعد أن اندفعت النادلة وقدمت لهما قائمة المأكولات ثم تركتهما مع ابتسامتها اللطيفة وعادت من حيث أتت، تمعنت في القائمة طويلا، كانت تبحث بها عن سبب مقنع لرحيل فراس هذه المرة ولم تسعفها المأكولات المرسومة والاسعار على معرفة شيء، توقفت طويلا عند صمته الذي دائما ما يسبق العاصفة، كانت تتساءل بداخلها، من أين له كل تلك الصلافة، جسده وتصرفاته وكلماته التي لا تعكس مدى قسوة مواقفه، النظرات، شفتاه والكلمات، كل ذلك وهو يمارس معها البرود القاتل، لكنها أيقنت أنها أصبحت كالإسفنجة تمتص العذاب لأجل الخلاص بكل امتنان، كانت تود أن تهرب من قرارها الذي اصبح ملحا، لقد أيقنت أن بالإمكان مزاولة القتل وهي في أشد حالات الطمأنينة، اذ أن الرحيل أصبح عادة لا يتماثل في تمرسها أي مصطلح آخر غير أنها بسيطة، شرخ الذاكرة يمارس معها خدعة سحرية برأسها، يداخله صواب خجول يلج كالومضة ويختفي بالداخل كلما كان

العرض يليق بحضور وجوه الأشرار التي تراءت أمامها، لكنها لم تكن تخشى أي أمر مريب يخيفها أو يبعدها عن جادة الانتقام ويجعل لديها انفصالا بطيئا عن شعور تتطاير منه رائحة العودة الى الذات، ليس المهم أن تكون غائبا حاضرا على ان تكون حاضرا غائبا، الاهم من ذلك أن تتفادى تلك الأسئلة العالقة بالذهن منذ ان عرفت لماذا نحن هكذا دائما، نركن إلى أسئلة مؤجلة عن عمد حتى لا نفضح نوايا الإجابات السئة.

أخذت بوران تتطلع عبر النافذة الى الحركة التي تسري بأعماق الطرقات والى زحام السيارات وحركة الناس الدؤوبة في الشوارع وهي تسمع أغذية حميد منصور (لولا الملامات شوكك بعد ميعود لولا الملامات) ربما كان حديث الروح مبهما وزهيدا في هذه اللحظات بعد أن تفوقت على نفسها بلحظات عصيبة على الحنين، أرادت هدنة مع الشعور في رهانات فاشلة على النسيان، لم تكن هنالك فوارق بالعودة بارزة وانما كان اندماجا بالرحيل والعودة الى نصفها الثاني القاسي، لقد أثارت كلمات فراس في نفسها الضيق حين قال: (هل لديك شيء تريدين قوله)، أخذت تنظر اليه بتحد، تنهدت ثم قالت "ليس لدي شيء"، حينها أخذ فراس ينظر اليها بتعجب وهو يقول: (ما الأمر المهم الذي أردتني من أجله؟) تمعنت بوران بوجهه كثيرا، أخذت تتذكر الطلقة التي

في رأس أبوها وذلك الزمن الذي جمعهما معا في مخزن الحبوب، أصبح صوت ضميرها يسألها عن الريح التي تجري بما لا يشتهي الحلم وعن الزورق المثقوب الذي يتنزه في نهر ليس له مرسى، ولكن لم تجب عن شيء، فقد كانت تلوم نفسها، لم تجد إجابات شافية عن كل التساؤلات التي أخذت تعصف في داخلها. قد تكون أفعالها التي التصقت بحياتها منذ بدأ البلوغ ما هي الا تبرير جرائمها التي لم تقترفها، رواية فتاة كتبت حياتها بالدم والدموع، خطها رأس مدبب لمنقار طائر الجن الذي يلتقط أخر حبوب السلام بنفسها ويرمي بها في عقر المجهول، تبقيها في مواجهة النيران الموعودة التي تضرم للتائهين والعاكفين على الذنوب، أخذت بوران تتطلع بعيونها الجاحظة نحو السماء، تطلب الغفران لخطيئة قادمة، سوف تظل آمالها تهذي فوق حبل غسيل مضفور بالرأس، تعلق عليه أثوابا من وجع وآلام قد ترمي بها رياح عاتية خلف سور الذاكرة، حين التفتت نحو فراس وجدته يتمعن بها مالبث أن قال: (أحبك أكثر من أي وقت مضى)، لكنها قالت له في نفسها، شكرا لكلماتك التي كانت تخدر الأطراف، شكرا للصباحات المنتقاة، وأيضا الى تلك المشاعر الهادئة التي شاغلتنا منذ مهد علاقتنا عن عصف آخر يتغلغل بهتاف الرحيل، أخذت تتطلع بوجهه كثيرا، لكنها استأذنته بأن تذهب لتصلح من مكياجها، قامت وتركت

الرجل الأرنب يجلس معه حول الطاولة متقابلين، قبل أن تتطلع الى حقيبتها التي تركتها تحت الطاولة، شيعتهما بنظراتها وهي تخطو بعيدا عنهم فيما الرجل الأرنب أخذ يلوح لها بيده، القت عليهم النظرة الأخيرة وهي تتجه الى الباب الخلفي للمطعم، كان اثير ينتظرها في الخارج، اقتربت نحوه ووقفت قبالته قليلا ما لبثا ان سارا سويا عبر الشارع المؤدي الى منعطف عند شارع المتنبي ولكنهما لم يلجا اليه فقد وقفا على الناصية برهة، حينها اخرج أثير تلفونا صغيرا من داخل جيبه وأسلمه بوران التي أخذت تتطلع به وهي تمسكه بيدها، سادت لحظات من الصمت وهي تتذكر ذلك اليوم حين ودعته اخر مرة قبل ان يرحل ويتركها وحيدة تعاني الأمرين، حين أخذت تنظر الى السيارة التي تطاير خلفها الغبار بعيون دامعة، سالت منها دمعة على خدها أحستها أبرد من هذا الصباح ما لبثت وأن رفعت رأسها نحو أثير وتبادلا النظرات قبل أن تضغط بأصبع مرتجف على زر التلفون.

كرباج أخير – بوران

وداعا سوف أغادر إلى أحزاني أبحث عن بقاياي، أنتظر قطارا فاتني عند محطة كنت احسبها الأخيرة، أحمل أشيائي والحنين في حقيبة، قد اعود بها معي الى الذات مرة أخرى

أجر أذيال الوحدة وقد أذهب الى مجهول آخر في خريف سماوي، سوف أقفل صندوق الحكايا وأرمي به في أعماق البحور الغامضة وأترك الأيام التي اختارت أن أكون في معادلة محسومة بالجريمة تتدفق منها البغضاء بعد أن أيقنت أن بياض الأماني بريء من بقعة دم حمراء عابره، فلم أكن مذنبة حين أردت أن أكون انسانة ولكن الأقدار أرادت أن أكون مذنبة.

بوران - كانون الثاني ٢٠١٧.

٨١٣ /٩٢
خ ٩٢٦ المسفر ، حامد ثامر
ليل المنافي : رواية / حامد ثامر المسفر
: - بغداد: دار أحمد المالكي، ٢٠٢١ .
() ص ؛ (١٤.٥ × ٢١ سم) .
١- القصص العربية - العراق - أ- العنوان .

م ٠ و
.... / ٢٠٢١

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (....) لسنة ٢٠٢١م

العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٣٩٢٩٣٧٨ـ ٠٧٨١٩٣١٣٣٩٥
بريد إلكتروني: hassanjasdrt@gmail.com
أحمد المالكي: Facebook